
يوسف السباعى
نادية
الجزء الثانى





الجزء الثاني

(٢٩)

دعوة فى الأوهام !

رفعت « نادية » رأسها ونظرت إلى « منى » وتساءلت فى صوت حزين :

- ولماذا أفكر فى النهاية منذ الآن ؟!

- لأنها آتية .. آتية .

- وهل تفكرين أنت فى نهاية حياتك ؟

- نهاية حياتى أحس بها بعيدة .. وقد أفكر فيها عندما تقترب .

- وأنا أيضاً .. أحسن بالنهاية بعيدة .. إننى ما زلت فى بداية أمتع مراحل عمرى ، لم أتصور قط ، أنه يمكن أن يكتب إلى .. يكتب إلى وحدى .. ويسألنى صورتى .

- وهل تنوين أن ترسلى له صورتك ؟

وخيم على « نادية » سحابة غم ومدت يدها بلا إرادة تتحسس عنقها وتشد الإيشارب عليه وقالت هامسة :

- أرسلى صورتى ؟.. لم لا ؟.. إن عندى صوراً قديمة قبل الحادث ، والصورة التى صورتها عند « أرمان ».

- ذات الضفيرة المدلاة على كتفك ؟!

- أجل .

- التى تبدين فيها كطفلة صغيرة ؟

- ألا تعجبك ؟!

- بالعكس . إنها تعجبنى جداً .

ومدت « نادية » يدها إلى أحد أدراجها وأخرجت ظرفاً أخذت تقلب ما به

حتى أخرجت منه صورة فى مساحة « الكارت بوستال ».

ونظرت إليها « منى » وهى تقول :

— جميلة جداً .. ولكنه لن يرد عليك بعد ذلك .. لأنه لا يمكن أن يتوقع أنه يراسل طفلة بضفائر .

— ولكنى سأوضح له أنها صورتى منذ بضع سنوات .

وهزّت « منى » رأسها ، ثم تناولت رسالة صبرى .. وألقت نظرة على صفحاتها المكتظة بالكتابة وتساءلت :

— ماذا يريد أن يقول بكل هذا اللت ؟!

— اقرئيها .. ستفيدك جداً .

— من أى ناحية ؟!

— ستضيف إلى معلوماتك أشياء كثيرة .

— ليس لدىّ وقت لهذه المعلومات .. لقد انتهيت من الدراسة .. هل قال إنه يحبك ؟

وضحكت « نادية » قائلة :

— ليس بعد .. ولكنه يتمنى أن أكون بجواره فى مصر لأرقب الأحداث الضخمة التى تمر بها مصر .

— مثل ؟!

— إعلان الدستور .

وتناولت « نادية » رسالة صبرى وأخذت تقرأ لها :

« لو سمعت جمال عبد الناصر وهو يقف بين الشعب ليعلن سيادة الشعب لا سيادة الأمراء .. ولا سيادة الحكام .. ويعلن أن الثورة ثورة بناء وثورة تعمير .. لأحسست فى نفسك بمثل ما أحسست ، ولأفعم صدرك يا « نادية » ما أفعم صدرى من أمل فى أننا عن قريب سنصبح شعباً عظيماً .. ».

وهزت « منى » رأسها وقالت جادة :

ـ اسمعي .. عندما تكتبين الرد .. وجهيه مباشرة إلى « جمال عبد الناصر ».. لأن نصف رسالته من خطابه .. وأعتقد أن « جمال » أولى بالرد .

وردت « نادية » قائلة :

ـ إن « جمال » هو الذى يتحدث بلسان الشعب ولهذا يحس كل فرد بأنه هو المتحدث .

ـ اسمعي .. اسأليه .. باختصار .. متى ينوى أن يقول إنه يحبك ؟

ـ لا تسخرى منه يا منى .. إن لديه آمالا كباراً .. وبه وبغيره ممن تمتلىء قلوبهم بهذه الآمال ، سيتحدد مصير مصر ، وتتحقق حريتها .

وهزت « منى » رأسها وقالت :

ـ ربما .

ثم أردفت وهى تغادر الحجرة :

ـ أستحضرين حفلة مدام كلود ؟

وأجابت نادية :

ـ طبعاً .

ـ إذن اعتذرى لها عنى .. لأنى أكره هذه الحفلات الجنائزية .

ـ لا تكونى سخيفة .. إنها سيدة رقيقة وهى تجاملنا فى كل مناسبة .

ـ لو ذهبت فسأقلب لها حفلها المحترم .. إلى حفل راقص .

ـ أؤكد لك أنها لن تتضايق .

ـ سأذهب على أن تذهبى معى لنلعب « تنس ».

ـ أنا متعبة يا منى .

ـ سأسمح لك بأن تصحبى معك شريكا .

ـ من سيرضى أن يلعب معنا الآن ؟!

ـ صاحبك .. الذى قررت أن تدعيه إلى كل رحلاتك ونزهاتك . ألم تسأليه أن يدعوك إلى لعب الكروكيه ؟!

وضحكت « نادية » قائلة :

ـــ ولكن لم يدعنى بعد .

ـــ ادعيه أنت إلى « ماتش تنس ».. وسيستحى هو ويدعوك إلى الكروكيه .

وضحكت « نادية » .. ودب النشاط فى جسدها ، وهى تتخيل مدحت يسير بجوارها وقد أمسك بمضرب التنس .

وقالت وهى تنهض :

ـــ معك حق .. سأريه كيف تكون الدعوة .. فى الأوهام ، بين السطور والكلمات ، حتى يتعلم كيف يدعونى .

وتناولت الفتاتان قطعتين من « الساندويتش » ثم انطلقتا إلى النادى القائم عند المنحدر .

وفى المساء كانت « نادية » قد خلت إلى نفسها فى حجرتها ، وقد ساد السكون إلا من نباح متقطع للكلب الرابض بجوار حجرة « بول ».. وصفير الريح ، تقطعه طرقات شباك لم يحكم غلقه .

وجلست « نادية » أمام منضدتها الصغيرة التى تستعملها للكتابة ، وأزاحت الزهرية التى وضعت بها ثلاث قرنفلات جانباً ، حتى تفسح مجالا للكراسة الزرقاء وأعادت تلاوة رسالة مدحت .. وأخذت تزن فى رأسها كل كلمة منها .

ثم بدأت تكتب وبنفسها شعور الرهبة الذى يتملكها كلما همت بالكتابة إليه .. والذى يدفعه فى نفسها إحساسها بأن على كل رسالة تكتبها يتوقف مصير هذا الأمل الذى شع فى حياتها .

ونظرت إلى كلمة « عزيزتى » التى بدأ بها رسالته .

إن لها وقعاً حالماً فى سمعها .. إنها تشعر بالأثر الذى تركته فى نفسه .. والمدى الذى قطعته علاقتهما معاً ، فى تلك الرسائل الأربع ... ولكن هل تستطيع هى أن تناديه .. كما ناداها ؟!

بودّها لو استطاعت أن تفعل ، ولكنها لا تجرؤ .

إنها تحس بأنها تتجاوز حدودها لو فعلت .

تحس بأنها .. قد طمعت .. وتخشى أن يفقدها الطمع ما جمعت . كما يقول المثل .

وبلا إرادة .. خط قلمها « سيدى العزيز ».

وأحست للنداء .. بشيء من ارتياح .

أجل .. إن فى هذا الكفاية على الأقل هذه المرة .

وتمهلت لحظة ، ثم اندفع قلمها على الورق محدثاً صاحب الرسالة :

« كيف حالك .. وحال مرضاك .. وعملياتك وطلبتك ؟!

« أتسمح لى أن أنتشلك من بين هذا كله .. لأصحبك فى جولة سريعة فى بلدنا الصغير .. لا تقل ليس لديك وقت فأنا أعرف أنك تستطيع اختطاف بعضه .. للنادى .. وللكروكيه .

« دعنا اليوم من النادى ، وهيا بنا ننطلق بين المزارع ، ثم ننحدر على السفح وندفىء نفسينا ببعض ضربات «تنس »، ثم نذهب إلى منزل مدام كلود .

« من هى مدام كلود .. ألم أحدثك عنها أبداً ؟

« لا بأس .. إنى لم أحدثك عن شيء بعد .. لم أحدثك إلا عن نفسى ، وحتى حديثى عن نفسى لم يتعد لجلجة الخائف الوجل .. وارتباك المنتحى المعتذر .

« سأحدثك عن أشياء كثيرة فيما بعد .

« ليس الآن ، لأنه لم يعد لدينا وقت .. إن « متى » تستحثنا وتصيح بصوتها الصاخب من أسفل السلم .

« متى .. من ؟ حتى هذه لم أذكرها لك .. عجيبة !! إنها أختى التوءمة الملاصقة لى .. منذ أن رأينا النور سوياً حتى الآن

« كان يجب أن أقدم لك نفسى بطريقة خير من هذه وأن أعرفك على الأقل

بهؤلاء الملاصقين لى : أمى الحنون الصامتة ، وجدتى الطيبة .. المترثرة ، وجانيت قريبة أمى .. التى تعيش معنا .. وبول العجوز .

« كان يجب أن أعرفك بكل هؤلاء .. وأن أعرفك كيف أعيش ، وأن أصف لك « جاب » التى أعيش فيها .. وأصف لك القمم البيض .. والمياه المنحدرة والأشجار المتكاثفة على سفح الجبل ، والبحيرة المنبسطة أعلى القمة ، والشمس المشرقة على المنحدر .

« أشياء كثيرة كان يجب أن أحدثك عنها ، قبل أن أندفع فى دعوتك معى كالبلهاء ، ولكننى لم أفعل .. قد يكون عذرى اعتقادى أنك تعرف كل هذا ، لأننى أعرف كل شىء عنك.أعرف هؤلاء المحيطين بك .. أعرف هؤلاء الذين يلعبون معك الكروكيه .. أعرف صديقك « جاد الله » الذى أرجح أنه هو بعينه صاحبك الذى قلت عنه فى رسالتك : إنه يحتفظ بصورتك .. حتى « ميرفت » خطيبتك أعرفها .

« أعرف كل هذا ، لأنى كنت أجلس أرقبك فى صمت من بعيد .. وأنت لا تشعر بوجودى ، وقد توهمت أنك تعرف عنى ما أعرف ، واندفعت أدعوك لصحبتى ، ناسية أنك لا تعرف عنى إلا بضعة الأسطر الوجلة التى بعثت بها إليك فى رسالتى .

« عذراً .. سأعرفك بكل هذا ، إذا أردت أن تعرفه طبعا .. وإذا لم أثقل عليك به .. أما الآن .. فليس لدينا وقت .. هيا بنا .. إن « منى » قد بدأت تسب .. وهى إن لم تكن تعلم .. وقحة .. قليلة الأدب .. لا تتحفظ كثيراً فى ألفاظ سبابها ، وأخشى أن يصيبك منها ، ما يغضبك .. هيا بنا .

« هل المعطف معك .. إن الدنيا برد ، برد أكثر مما تتصوّره . ارتده ، فأمى لن تسمح لك بالخروج ، دون أن ترتديه ، ستلقاها فى القاعة أمام المدفأة ، هى وجدتى ، وجانيت وسيحاولن استبقاءك بالطبع للجلوس معهن أمام النيران ، ولكن دعهن وانطلق بسرعة من الباب .

« لا تخش من بول .. إنه لطيف .. ولن يعضك .

« أنا أعنى « بول » الكلب طبعاً ، وليس « بول » الخادم ، وإن كنت لن تستطيع أن أن تفرّق بينهما كثيراً .. لا شكلا ولا موضوعاً ..

« هل تعجبك هذه القرنفلة البيضاء التى تترنح على عودها ؟ سأقطفها لك .. إنى أحب القرنفل جداً .

« أنت لا تهتم كثيراً بالزهور .

« أكاد أعرف عنك هذا .. ليس لديك وقت لتأملها والتفكير فيها !!

« إنى لا أقرّك على هذا .. إن فى حياتنا أشياء كثيرة ، صغيرة .. تستحق أن نتوقف أمامها ونتأملها .. لا يجب أن نُركز حياتنا فى عمل معين ، نرى كل شىء تافهاً بجواره ، لأن حياتنا هى فى ذاتها ، مجموعة تفاهات .

« هل أتفلسف عليك ؟!

« أنت بالطبع تكره الفلسفة .

« أنا أيضاً لا أحبها ، ولكنى فى بعض الأحيان ، أحب أن أفكر ، ثم أعبر عن تفكيرى .

« هيا بنا .

« مارأيك فى « منى » ؟

« إنها لطيفة جداً .. ومضحكة جداً . وهايفة جداً .

« لا تأخذ على كلامها كثيراً .. وإذا شتمتك .. فصهين .

« إن البرد شديد القسوة .. أتحب أن نعدو ؟

« هيا بنا .

« قف .. هذا هو النادى .. ليس كبيراً بالطبع كنادى مصر الجديدة .. ولكنه لطيف جداً .. وبه مدفأة تشبه مدفأة نادينا .. أعنى المدفأة الكبيرة التى تتوسط القاعة القديمة ، وبه نافذة زجاجية عريضة كنوافذ الشرفة المطلة على النافورة .

« ولكن المنظر الذى نطل عليه .. أجمل كثيراً من النافورة .. سترى منها منظر الجبال تمتد أمامك بسفحها الأخضر وقممها البيض .. وسترى منها من الجانب الآخر أسقف المدينة بمداخنها وشريط سكة الحديد يمتد أمامك .

« ستبصر منها المدرسة التى أعمل بها أيضاً .. والسنديانة الضخمة القائمة بجوار المحطة .

« أتريد أن تبدل ملابسك .. هذه حجرة الرجال .

« لن أغيب عنك أكثر من بضع دقائق .. حتى أبدل ملابسى .

« سنلعب أنا وأنت فى جانب .. و « منى » والممرّن فى جانب آخر

« خذ بالك .. لا تعتمد علىّ كثيراً .. أنا لا أجيد اللعب . لا تترك لى إلا الكرات السهلة وإلا أضعت عليك المباراة .

« أجاهز أنت ؟ هيا بنا . إن البرد يكاد يجمد الأطراف . ولكن اللعب سيدفئنا وسنشرب الشاى أمام المدفأة بجوار النافذة الزجاجية التى حدثتك عنها .. أو إذا شئت نتجه رأساً ، إلى منزل مدام كلود .

« أتدرى .. أى سعادة أحس بها لصحبتك .

« لم يخطر على بالى قط .. أن لعب التنس يمكن أن يكون ممتعاً بهذا القدر .. لماذا تقطب وجهك هكذا ! أهى تقطيبة العادة .. لا .. لا فك عقدة وجهك .. يجب أن نضحك نحن الاثنان ما دمنا معاً .. أجل .. هكذا .

« هل تدرى أن هذه أول مرة أراك تضحك ؟

« ارم أنت السيرف .

« خذ بالك لا تتكل علىّ .

« لقد بدأنا نحس بالدفء .

« لقد تعبت .. بدأت ألهث .. هذا الممرّن الماكر .. يأبى إلا أن يقذف كراته عندى .

« إنى لا أكاد .. أصدها . ».

وأتكأت « نادية » بظهرها على المقعد ، ورفعت رأسها وحركت ذراعيها ، وهى تحس كأن اللعب قد أجهدها

وفجأة فتح الباب وبدت « منى » على الباب بالبيجامة وهى تتثاءب متسائلة :

ــ أما زلت مستيقظة ؟

ثم نظرت إلى الكراسة ، وإلى صفحاتها المليئة وتساءلت فى دهشة :

ــ أكتبت كل هذا ؟! أوجدت كلاماً تقولينه ؟!

وأسندت يديها على كتفى « نادية » وانحنت فوقها محاولة أن تقرأ ما كتبت ، وهى تقول محذرة :

ــ إياك أن تكونى قد كتبت له عن الدستور

وضحكت « نادية » قائلة :

ــ لا تخافى . إنى لا أحسن الظن به بهذا القدر

ــ ماذا كتبت له إذن ؟

ــ عباطات .

ــ كيف ؟

ــ لقد دعوته لمرافقتنا إلى نزهة .

وضحكت « منى » قائلة :

ــ ما شاء الله .. ثم تتهمينني بعد ذلك بالهيافة .. أريني ما كتبت .

وهمت بتناول الكراسة ، ولكن نادية أقبلت عليها قائلة :

ــ عندما أنتهى منها .

وكانت « منى » تجرى بعينيها بين السطور واستطاعت أن تلتقط اسمها .. فهتفت قائلة :

ــ ماذا قلت له عنى ؟!

ثم أخذت تقرأ :

« ما رأيك فى « منى » ؟ إنها لطيفة جداً .. ومضحكة جداً .. وهايفة جداً ».

وصاحت « منى » وهى تمسك نادية من عنقها :

ـــ أنا .. أنا الهايفة ؟. أنا التى أدعو الناس فى القاهرة ، كى يلعبوا معنا « تنس » فى « جاب » !

ثم عادت تنظر إلى الكراسة لتقرأ :

« لا تأخذ على كلامها كثيراً .. وإذا شتمتك فصهين ».

وصاحت ضاحكة فى دهشة :

ـــ ما هذا !! أجننت ؟

ـــ ألم تشتميه !؟

ـــ وماذا قلت عنى أيضاً ؟

ـــ لقد لعبنا « تنس » .. أنا وهو ، وأنت مع المدرّب .

ـــ وغلبتما ؟!

ـــ طبعاً .

وضحكت « منى » قائلة :

ـــ ولماذا لا تفعلين .. تستطيعين أنت وصاحبك الغشيم أن تتغلبا على أبطال العالم جميعاً .. ما دمتما تلعبان على الورق .

وربتت « منى » ظهر نادية وأردفت قائلة :

ـــ عن إذنك . لا أريد أن أوقفك عن تكملة « الماتش » تفضلى .

وأجابت « نادية » ضاحكة :

ـــ لقد انتهينا من الماتش .. ونفكر الآن فى الذهاب إلى مدام « كلود » أو فى تناول الشاى فى النادى .

وردت « منى » فى لهجة جادة :

ـــ مدام كلود أرخص .. النادى سيكلفنا كثيرا.. وسيطير المبلغ الذى

ادخرته للراديو .

وضحكت نادية وهى تقول :

ــ معك حق .. ليس لدينا وقت .. يادوبك .. مدام كلود .

وغادرت « منى » الحجرة وهى تهز رأسها قائلة :

ــ أخشى عليك أن تُجنّى من هذه الدعوات الوهمية .. فقد تكفين عن الذهاب إلى المدرسة .. وتكتفين بدعوة المدرسة إليك .

وأغلقت « منى » الباب .. وعادت « نادية » تسترسل فى الكتابة .

وفى الصباح قبل أن تهبط للإفطار أعادت قراءة الرسالة .

وأحست بعد قراءتها أنها اندفعت ، فى كتابتها ، بطريقة حمقاء بلهاء ، وأمسكت بها بين أصابعها برهة وهى تهم بتمزيقها .

ولكنها .. بدل أن تمزقها .. طوتها .. ثم وضعتها فى الظرف .. ووضعت معها الصورة ذات الضفيرة .

ماذا تخشى .. بعد أن اندفعت كل هذا الاندفاع ؟!

إن المسألة برمتها ، حماقة كبرى .. فلم هذا التردد ؟!

إن الحماقات كلها تتساوى .

وخير لها أن تكون حمقاء شجاعة .. من أن تكون حمقاء مترددة .

وقبل أن تصل إلى المدرسة اتجهت إلى المحطة ومدت يدها بشجاعة .. ووضعت الرسالة فى صندوق البريد .. كأنها تقطع كل خيط للتردد والحيرة .

وبعد أربعة أيام .. كان الخطاب الأحمق ، قد انتقل من الصندوق المعلق فى محطة « جاب ».. ليستقر فى يد « زكية » الممرّضة .. وقد سارت تحمله إلى مكتب مدحت .. وقبل أن تصل إلى المكتب رآها « جاد الله » وهو يسير فى الممر ولمح فى يدها الظرف ذا الخطوط الحمر والزرق ، فصاح بها :

ــ لمن هذا يا زكية ؟!

ــ للدكتور مدحت .

وأمسك « جاد الله » الرسالة ووزنها فى يده ، ثم تحسسها بأصبعه .. وأحس بصلابة الصورة فى داخلها .. فاندفع إلى حجرة مدحت وهو يهتف به ضاحكاً :

— خذ .. أرنى شكلها بسرعة ، حتى أرى إن كانت تستحق كل هذه الهيصة .

ونظر إليه مدحت متسائلا فى دهشة :

— من هى ؟!

— صاحبتك .. ساكنة الألب .. افتح الرسالة بسرعة وأرنى شكلها

— وماذا يهمك من شكلها ؟

— لو كانت قبيحة . فسأخرب بيتها . لن أجعلك ترد عليها .

وضحك مدحت قائلا :

— ومن أدراك أن بها صورة ؟!

— افتح . وسترى .

وفتح مدحت الرسالة ، ومد أصابعه فسحب الصورة .. ونظر إليها .. وبدت على ملامحه علامات الدهشة ، ومضت لحظة ، وهو يحملق فيها دون أن يتكلم ، ولم يطق « جاد الله » فمد يده وخطف الصورة قائلا :

— ياأخى هات . مالك تنظر إليها كالأبله .

ونظر « جاد الله » إلى الصورة فى ذهول ، ثم هتف قائلا :

— يا بنت الإيه .

ثم صمت لحظة ، وهو يتأمل الصورة قائلا :

— جميلة جداً .. ولكنها صغيرة جداً .. غير معقول أن تكون هذه هى التى كتبت كل تلك الرسائل . إنها من كتابتها تبدو ذكية .. عاقلة .

وقلب « جاد الله » الصورة وقرأ التاريخ المكتوب عليها — نوفمبر ١٩٥٢ — وهز رأسه وعاد يتأمل الصورة قائلا :

— هكذا معقول .. إنها صورتها منذ ست سنوات ، لا بد أنها الآن نمت

واكتملت .

ثم سلم الصورة لمدحت ، وهو يردف قائلا :

ـــ حلال عليك يا عم . كنت ستضيعها بوجهك المعقد . عسى أن يثمر فيك .. خسارة فى جنتك .

ونظر إليه مدحت زاجراً ، وهو يقول :

ـــ ما هذا السخف !! ما هذه التى هي خسارة فى جنتى ؟!

ـــ بنت كاللوز .. إن لها عينين هائلتين ؟!

ـــ ماذا تظننى فاعلا بعينيها يا غبي ! إنى أكتب إليها مجرد عطف .

ـــ مفهوم .. مفهوم .. إنه أحياناً ، يبدأ عطفاً .

ـــ ما هو هذا الذى يبدأ عطفاً ؟!

ـــ الحب يا أستاذ .

ـــ حب .. أنت مجنون .. أنا أحب .. فتاة تسكن قمم الألب ؟!

ـــ ولم لا ؟! البعيد يقرب .

ونظر إليه مدحت فى غيظ وقال له :

ـــ اسمع يا « جاد الله » ، أنت تعرف أنك أنت الذى دفعتنى إلى الرد عليها .. فإذا أصررت على هذه السخافات التى تقولها سأمزّق الرسالة والصورة .. مفهوم ؟

وضحك جاد الله واختطف الصورة والرسالة من يده قائلا :

ـــ أنت مجنون .. إنى أمزح . ما ذنب البنت المسكينة . أما مغفل صحيح

وأخذ جاد الله يقرأ الرسالة بصوت عال ، ولكن مدحت خطفها من يده ناهراً :

ـــ ما هذا أيها الغبى ! أتريد أن تلم علينا الممرّضات ، ماذا يقلنّ ؟!

ـــ لا مؤاخذة .. نسيت أنك راجل حشمة ووقور ومحترم .

وأخذ فى القراءة ، ومدحت ينظر إليه فى غير اكتراث وكأن الرسالة لا تهمه

حتى انتهى من قراءتها وسلمها إليه قائلا فى تأثر :

— بنتِ هايله .. تصوّر .. إنها تعرفنى ، وتعرف ميرفت . إنها لطيفة جداً وفى منتهى الذكاء .. وإن كانت أختها تبدو قليلة الأدب .

— أختها ؟

— أجل .. إنها دعتك إلى النادى وعرفتك بجميع أفراد العائلة . حلال عليك .

وتناول مدحت الرسالة وأخذ يقلبها بلا اهتمام وهو يقول :

— كلام فارغ ولعب عيال ، لن أجيب عليها الآن .

— أيها الغبى إن الرسالة فى منتهى اللطف ، والله لا تستحقها .

— إذا كنت تريدها فخذها .. اشبع بها .

— لو كانت ترضى أن أكتب إليها .. لفعلت .

— لماذا لا تجرّب ؟!

ونظر « جاد الله » إليه وقال له فى غيظ :

— اسمع .. اقرأ الرسالة أولا ولا تكن مغروراً . إن الغرور سيقتلك .. السلام عليكم .

وقبل أن يترك « جاد الله » الغرفة قال له :

— اسمع .. إنها تريد منك صورة كبيرة ، تضعها أمامها فى إطار .. وأنصحك أن تذهب من الآن لتصوّر صورة محترمة غير صورة المشردين التى أرسلتها إليها ، حتى لا تؤذى عينى البنت الرقيقة !! مفهوم ؟.

(٣٠)

رد على دعوة !

عندما غادر مدحت المستشفى ظهر اليوم كانت رسالة « نادية » ما زالت عالقة بذهنه .

لقد استطاعت الرسالة ، رغم تظاهره بالاستخفاف بها وادعائه بأنها عبط ولعب عيال .. أن تتسلل إلى نفسه .

لقد أحس بحرارتها ، وبساطتها وصدقها .

أحس بأنه يمسك يد صاحبتها ويعدو بها على المنحدر وسط البرد المتساقط ، وبأنه يصد عنها كرات « التنس » وبأنه يجلس بجوارها أمام المدفأة يحتسى الشاى .. وينصت إلى أصابع مدام « كلود » وهى تعزف البيانو فى دقات بطيئة متقطعة .. تنساب إلى النفس .

إنها حملته إلى جو روائى عجيب .. كذلك الذى كان يعيش فيه ، وهو يقرأ قصص « شارلس جارفس » فى صباه .

وأحس بأنه يتوق إلى أن يسمع أنغام « الفالس داديبه » الذى ينساب إلى أعماق الفتاة الشقراء ذات العينين الواسعتين والضفيرة المدلاة من وراء كتفها .

إنها تبدو صغيرة جداً فى صورتها تلك .

لماذا لم ترسل له صورة حديثة ليعرف كيف تبدو ؟ ولكن ما له بها !

لماذا يفكر فيها كل هذا التفكير .

لتبد كما تبدو !!

يجب أن يكف عن منحها مثل هذا الاهتمام ، وألا ينزلق معها إلى « عبطها » .. إنه لا يستطيع أن يكتب إليها بالطريقة التى كتبت بها .. إنه سيكون مضحكا جداً .. لو حاول أن يبادلها بدعوة .

ماذا يمكن أن يقول لها ؟ وإلى أى مكان يدعوها ؟

هل يستطيع أن يدعوها بنفس البساطة التى دعته بها ؟

يدعوها مثلا إلى « ماتش » سكواش .. ثم إلى الغداء فى النادى كما ينوى أن يفعل الآ ن ؟

هل يستطيع أن يقول لها .. لا تقلقى .. سأمر عليك بعد دقائق لأصطحبك معى إلى النادى .. ولا تتناولى الغذاء فستتناوله معاً بعد الماتش .

لا .. لا .. لن ننتظر .. دعى « منى » تتناوله وحدها .

لتشتم وتنفلق .. إنى أعرف كيف أربها ، عندما أراها .

وكان مدحت قد هبط إلى فناء المستشفى واتخذ مجلسه أمام عجلة قيادة السيارة وذهنه قد شرد فى دعوته الوهمية . وما يمكن أن يقول فيها .

هل يستطيع أن يصف لها الطريق ؟

لِم لا ؟

إنه حقاً .. لا يبدو رائعاً .. كالطريق الجبلى المنحدر . ولكن له خصائصه ، ومعالمه .

لِمَ إذاً لا يصفه لها .. بنفس الدقة التى وصفت بهاطريقها ؟لِمَ لا يعبر بها بوابة المستشفى وينحدر بها يساراً عند عسكرى المرور ؟

إن الجو ليس بارداً جداً .. لا يمكن بالطبع أن يصل للدرجة التى وصفت بها قمم الألب ، ولكنه مع ذلك بارد ، وكتل الغيوم السود تتزاحم لتقطع الطريق على أشعة الشمس .

هل تذكرين معالم الطريق .. أم أذكرك به ؟

هذا ضريح « أحمد ماهر » بقبته الضخمة المرتفعة ، والبناء العالى وراءه هو دار الشفاء ، وحول الضريح ينبسط المنتزه الصغير ذو الرقعة النجيلية الخضراء ، ازدحم بها أطفال ونساء العباسية .. واختلط النجيل الأخضر من حولهم بقشر « اليوسف أفندى » و « مصاصة القصب » .

أتحبين عصير القصب ؟!

إنى أحبه جداً .. وخصوصاً فى الشتاء .

سأتوقف بك عند أول بائع عصير . كوبتين من فضلك . ما رأيك فى لونه الكهرمانى ، وفى الرغاوى البيض التى تعلوه .. كأنها « الشمبانيا » ؟

لاتحبين الشامبانيا ؟! ولا أنا .. لا .. لا .. ولا أحب أى شىء به كحول .. أحب البرتقال والمنجة . والقصب ، والطماطم أحياناً .

أترين بائع « البطاطا » الذى يقف بعربته على الرصيف المقابل .. جلس على ذراع عربته والتف بالمعطف الكاكى ولف رأسه « بالتلفيعة » .. أترين الدخان المتصاعد من مدخنة الفرن ؟!

ما رأيك ؟

أتحبين منظره ؟. حقاً ؟!

وتحبين « البطاطا » أيضاً ؟

ولكن ليس هذا وقتها يا نادية لا داعى لأن تتخمى نفسك « بالبطاطا » قبل اللعب ، وقبل الغداء .

سأبتاع لك منها وقتاً آخر .. أى وقت .. لا داعى للهفة الآن .. لا بد أن نسرع إلى النادى .. حتى لا نجد الملاعب قد ازدحمت .

ما رأيك فى ميدان العباسية ؟! لقد تغير كثيراً .

هل مررت بالنفق ؟

إنه فى نظرى خير ما قامت به الثورة .. لى شخصيا .. لقد وفر علىّ ثلاثة أرباع وقتى وثلاثة أرباع أعصابى .

هل تصدقين أنى ما مررت بالمزلقان .. إلا وجدته مغلقاً !!

لقد ضربت خفير المزلقان ذات مرة

كنت على وشك أن أعبر المزلقان بالعربة عندما رن جرس المزلقان منذراً بمجىء القطار .

ولم يكن هناك أثر للقطار .. وكنت واثقا أنه لن يمر بالمزلقان قبل بضع دقائق ، فضربت « الكلاكس » للخفير علّه « يستذوق » ويتمهل فى إغلاق المزلقان حتى أمر ، ولكن الخفير نظر إلىّ باحتقار واستمر فى سحب المزلقان .

وصحت به أرجو :

— وحياة أبوك .. ثانية واحدة حتى أمر .

ونظر إلىّ الخفير ، ثم أشاح بيده بمنتهى الاحتقار قائلا :

— يعنى وراك إيه !! مجلس الثورة يا خى ؟!

ولم أطق صبراً ، وهبطت من العربة وأنا أغلى . ورفعت يدى وصفعته قلماً رن فى جميع أرجاء المزلقان . وقلت له ثائراً :

— ورايا .. أرواح الناس .. ورايا عملية .

ونظر إلىّ الرجل ، ولم ينبس ببنت شفة ، ووجدت عينيه تدمعان .. وبعد لحظة صمت قال لى :

— ما انا يا بنى كان ورايا أرواح ناس .. لو تركتك تمر .. لأضعتك وأضعت الأرواح التى تتعجل المرور من أجلها .

وهز رأسه وتمتم فى أسف :

— الله يسامحك .

وأحسست أن الرجل ردّ لى اللطمة مضاعفة ، وتملكنى ندم شديد على ثورتى وتسرعى ، ولم أعرف كيف أكفر عن ذنبى ، ومددت يدى فى جيبى فأخرجت خمسين قرشاً .. دسستها فى يد الرجل وأنا أقول :

— متأسف يا حاج .. متأسف جداً .

وانفرجت أسارير الرجل وقال وهو يبتسم :

— كتر خيرك يا بنى .. أنا خايف على أرواحكم .

وفى كل مرة كنت أمر بالمزلقان .. كنت أفقد ثلاثة أرباع وقتى .. أو ثلاثة أرباع أعصابى .. أو الاثنين معاً .

هل علمت سر إعجابى بنفق العباسية ؟!

هل أنا ثرثَار ؟

الثرثرة ليست طبيعتى ، ولكنى أجد فى نفسى ميلا إلى الثرثرة معك .

هل ترين جامعة « عين شمس » لقد كانت قصر « الزعفران » فيما مضى .

ماذا ؟! تعرفين كل هذا ؟

ظننتك لا تعرفين .

لا .. لا .. العفو .. لم أظنك سائحة أبداً ، إنما هى مجرد ثرثرة كما قلت .

وهذا بناء الأرصاد الجوية .. لقد قال إن الشمس اليوم مشرقة .. ويبدو أن بينه وبين الشمس ثأرا .. لأنها ترفض الشروق منذ علمت أن الأرصاد قد أرغمتها فى نشرتها على الشروق .

يبدو لى أن الأرصاد عندنا كقراءة الفنجان تتحدث عن الماضى .. أما المستقبل فهو فى علم الله .

على يمينك وشمالك .. كلها أبنية عسكرية .

أظن هذا هو سلاح الفرسان .. أما بقية الأبنية فلا أعرف عنها شيئا .. اللهم إلا المستشفى العسكرى .

فى هذا الشارع المتجه إلى المطار .. يوجد بيت الرئيس « جمال عبد الناصر » .

لا شك أنك تعرفين كل هذه المنطقة .. وتعرفين أيضاً الطريق إلى النادى .

ها قد وصلنا .

ما رأيك فى النادى ؟!

هل أصفه لك .. أم أنك تعرفينه خيراً منى ؟!

هيا بنا إلى الملاعب .

وكان « مدحت » قد وصل إلى الملاعب فعلا ، ووقف أمام منضدة الحجز وعندما سأله « بكر » :

ــ ستلعب مع من ؟

كاد يقول له :

ــ مع نادية .

من فرط ما شرد ذهنه طوال الطريق فى دعوته الموهومة .. ولكنه تدارك نفسه قائلا :

ــ معك .. هل أنت فاضى ؟

ــ فاضى يا دكتور .

وأبدل « مدخت » ملابسه .. واتجه إلى ملعب رقم واحد حيث وقف المدرب فى انتظاره ، وضمته جدران الملعب .. وهو مستمر فى تصوّراته ، يردد فى نفسه :

ماذا يمكن أن يقول فى دعوته لها للعب والغداء ؟

واتضح له أن هناك أشياء كثيرة .. يستطيع أن يقولها ، واتضح له أيضاً أنه لعب هذه المرة بطريقة أمتع .. وأنه ضحك كثيراً مع « بكر » .. وأنه لم يدخل الملعب بالتكشيرة إياها ، و لم يقض المباراة فى صمت و لم يغادر الملعب فى تجهم .

وانتهى من المباراة ، وهو يتصبب عرقاً فأسرع إلى الحمام ووقف تحت « الدش الساخن » يدلك جسده بيديه وهو يحس نشاطاً وسعادة .

يجب أن ينتهى بسرعة حتى لا يتركها تنتظر .. سيأخذها بعد الحمام .. إلى الشرفة الزجاجية .

كان يجب أن يوصى « الريس » بإعداد طعام فاخر شهى .

حقيقة إن معدته لم تعد تحتمل الطعام الشهى الدسم . فهى تكاد تهضم قطعة من اللحم المشوى مع الخضار المسلوق .

ولكنه اليوم يحس بشهية مفتوحة ، وهو يستطيع أن يهضم الزلط .. بدون رنى ، وبدون سترات .

أجل .. أجل .. يجب أن يتناسى معدته التالفة ويأمر « الريس » بأن يعد له

سمكة « بالمايونيز » ومكرونة بالفرن .. و « جنبرى » و « طبق فتة » بالكوارع والخل والثوم ، ويعد له طبق « كريم كرامل » .

هل تحبين الكريم كرامل »؟!

أنا أحبها جداً .

وأحب أيضاً الكميك قطايف بالقشدة ، رغم ما تفعله بمعدتى .

هل تصدقين أنى أكلت أنا وجادالله ذات مرّة بستين قرشاً كميك قطايف ؟ كنا نسير فى شارع قصر النيل .. ومررنا بالحلوانى عطبة .. قرب شارع شريف .. هل تعرفينه ؟

واقترح علىّ «جاد الله » أن أعزمه على « كميك قطايف » و لم أتردد .

ودخلنا المحل ، وطلب كل منا طلباً .. ونظر جادالله إلى طلبه وصاح بالبائع :

ــ القشدة مالها قليلة ؟

وانحنى البائع فى أدب وتساءل بابتسامة رقيقة :

ــ قشدة المحل كلها تحت أمرك يا سعادة البيه .. أتريد مزيدا من القشدة ؟!

ــ طبعاً .

وأخرج الرجل طبقاً من القشدة ووضع لى قطعة ولجادالله قطعة .

والتهم « جادالله » القشدة .

فعاد الرجل يتساءل بأدب :

ــ كان يا سعادة البيه ؟.

وأجاب جادالله وهو يتلمظ :

ــ كان .

وظل الرجل يضع القشدة ويتساءل : كان ؟ .. وجادالله يلتهم ويقول : كان .

وكلنا يعتقد .. أن القشذة ملحقة بالكميك قطايف .. وأنها جزء من الطلب الذى تناولناه ، والذى لا يزيد ثمنه بأى حال عن خمسة قروش .

وأخيراً غسلنا أيدينا ، وتناول كل منا كوباً من الماء المثلج ، وختم الرجل المهذّب حواره بيننا بالدعاء لنا « بالهناء والشفاء » . ثم قدّم لنا .. تذكرة الحساب بستين قرشاً .

ومن يومها .. وأنا أصر عندما أصحب جادالله معى ، أن أعرف بالضبط ثمن ما سيأكله قبل أن يفعل .

وبدأ « مدحت » يتناول طعامه .

طعام النادى العادى ، وحيداً فى الشرفة .

ونظر من النافذة الزجاجية إلى النافورة ، وإلى شجرة الكافور ، وسرعان ما حل أمامه منظر آخر .. جبال تمتد فى الأفق .. ذات سفوح خضر وقمم بيض ، وأسقف الدور الحمر المنحدرات ذوات المداخن .

و .. وماذا أيضا ؟

ماذا .. بعد كل هذه البلاهة والعبط ؟

منذ أن غادر المستشفى وهو يفكر فى الرسالة البلهاء ، وفى صاحبتها الطفلة الشقراء .. ذات الضفيرة .

أهناك جنون أكثر من هذا ؟

ماذا ينوى ؟ وفيمَ يفكر ؟

إنه يفكر فى أن يكتب إليها ، ويرد على دعوتها الوهمية . بدعوة مماثلة . بل لقد تصور ماذا يمكن أن تكون عليه الدعوة . بكل تفاصيلها وحذافيرها !

بل لقد دعاها فعلا .

إنه حتى الآن .. لم يفعل شيئاً بمفرده ، لقد صحبها فى كل ما فعل فى الطريق .

وفى ملعب الاسكواش .

وفى الغداء .

وأكثر من هذا .. قص عليها حوادثه ونوادره .

صفع خفير المزلقان قلماً ، وكيف أكل « كميك قطايف » هو وزميله

« الحيوان » بستين قرشاً .

أهذه أخبار تروى ، وحوادث تقص ؟

ماذا تقول عنه ، وهو يحكى لها كيف صفع خفير المزلقان قلماً ؟

متوحش .. أم همجى ؟

ثم ، يخبرها بعد ذلك أنه أكل بستين قرشاً « كميك قطايف » .

يعنى .. حيوان نهم .

لماذا لا يبحث عن شىء آخر فى ذهنه يمكن التفاخر به .. غير الخفير ، والنهام القشدة !

يحدثها مثلا عن عملية .. المعدة ، التى قطع ثلاثة أرباعها ؟ أهذا كلام ؟

إن الصبية ، سيغمى عليها قبل أن تكمل الرسالة .

أليس عنده أخبار .. ألطف من هذا !؟

ماذا ؟! أيخبرها عن نوادره مع الممرّضات ؟!

لقد ضرب إحدى الممرّضات بالأمس .. علقة ساخنة . عندما وجدها تسرق نصف اللبن ، وتخلط النصف الآخر بالماء ، ولمّا سألها أجابت عليه ببجاحة ، أنها قصدت أن تخففه ، لكى يسهل على المرضى هضمه

لا .. لا .. هذه فضائح لا ينبغى أن تروى ، ثم إنها تنتهى بأنه ضرب الممرضة علقة ، وهذا يؤكد وحشيته .

يجب أن يبحث عن شىء آخر .

ولكن لماذا يبحث .. إنه لن يكتب إليها شيئاً مما فكر فيه من سخافات .

سيكتب إليها رسالة مختصرة .. يشكرها على دعوتها . ويرجو لها الصحة ، ويتمنى لها أطيب التمنيات ، ويرجوها أن تبلغ سلامه إلى « منى » .

هذا أقصى ما يمكن أن يكتبه

أجل .. أجل

لن ينزلق .. إلى مثل هذا النزق ، والطيش .. عليه أن يكون متزناً .

ولن يرسل إليها صورة أخرى .

تكفيها جداً .. الصورة التى أرسلها إليها .

ليس لديه خير منها ، إنه ليس ممثل سينما .. حتى يجلس أمام المصور .. يلوى عنقه ويرفع وجهه ، ويفرج شفتيه ، فى ضحكة سخيفة بلهاء .

وغادر مدحت النادى ، وقد أقنع نفسه بكل ما قال . وفى طريقه إلى المستشفى قبيل الغروب .. لم يتجه إلى المستشفى رأساً بل استمر فى طريقة إلى المحطة .. ثم إلى ميدان مصطفى كامل .

وأوقف العربة . ثم هبط إلى الميدان ثم سار متلكئاً ، كأنه لا يبغى قصداً معيناً .. حتى وقف أمام باب علقت على يمينه بعض صور فوتوغرافية وكتب فوقها .. « أرمان » .

ونظر إلى الصور نظرة فاحصة .

ثم انثنى راجعاً إلى العربة ، وهو ينهر نفسه :

كفى سخافة .

وقبل أن يصل إلى العربة كان قد عاد إلى الباب مرة أخرى.سخافة .. لمه ؟

هل التصوير سخافة ؟

إنه سيصوّر .. لأنه لا بد له من ذلك .. لقد طلب النادى منه ثلاث صور . فلم يجد غير هذه الصورة السخيفة التى تشبه الصور المعلقة فى قسم عابدين .

هل التصوير عيب ؟. أم حرام !

إنه لن يصوّر من أجلها !

أجل .. أجل .. لن يفكر أبداً فى أن يرسل إليها صورة .. إنه لم يبلغ من الحمق حد أن يصوّر من أجلها . كما طلب منه المغفل « جادالله »

سيصوّر من أجل نفسه .

إن أمه ، وأقرباءه ، يريدون أن يحتفظوا بصورة له .. و « ميرفت » أيضاً قد طلبت منه صورة .

دلف « مدحت » من الباب ، وقفز درجات السلم .

وبعد برهة . كان قد جلس أمام « الكاميرا » ، وقد أدار عنقه ورفع رأسه . وفتح فمه راسماً على شفتيه تلك الابتسامة البلهاء .. التى أصر عليها المسيو « أرمان » ، والتى يصر عليها كل مصوّر غيره .

وبعد بضعة أيام .. كانت الصورة .. تتخذ طريقها بالطائرة إلى « جابْ » داخل ظرف حوى رسالة طويلة .. كتبها « مدحت » فى ليلة .. خالية ساكنة .

وجلست نادية .. تمسك بالرسالة ، وتتحسس صلابة الصورة ، وتزن ثقل الأوراق التى بها .

وأحست بسعادة شديدة .. وهى تغلق باب مكتبها بالمدرسة ، ثم تتلفت حولها فى حذر خشية أن يكون هناك من يرقبها .. ثم رفعت الرسالة ، ومستها بشفتيها فى تبتل وعبادة ، كما تمس شفتا العابد أضرحة الرسل والأنبياء .

وفتحت الظرف ، وأخرجت الصورة بأصابع مرتجفة .. من فرط الفرحة .

ونظرت إلى الصورة ، وأجابت على ابتسامتها بابتسامة عريضة .

ومرة أخرى عادت تتلفت فى حذر وخشية .

ثم رفعت الصورة إلى شفتيها .. وقلبها يدق فى عنف ، ومضت فترة وهى تتأمل الصورة ، ثم تشرد ببصرها من النافذة .

وبعد أن تمالكت نفسها .. أخرجت الرسالة ، وبدأت فى القراءة .

وانهمكت فى القراءة .

والابتسامة تعلو شفتيها .

ابتسامة .. لا تلبث حتى تنقلب إلى قهقهة

لشد ما أحبت دعوته إلى الاسكواش ، وإلى الغداء .. ولشد ما أحبت وصفه للطريق .

ولشد ما استمتعت .. بكوب العصير الذى سقاها إياه .. إنها تحس « برغاويه » على شفتيها .

والبطاطا ! لماذا لم يشتر لها « بطاطا »

فى المرة القادمة ستصر على أن يشترى لها . إنها تحبها جداً ، ويمكن أن تؤجل تناولها إلى ما بعد اللعب ..

بل كان يمكن أن تأكلها قبل اللعب .

إنها على أية حال لن تفعل بها ما فعله به « الكميك قطايف » الذى أكله بستين قرشاً .

مرة أخرى .. وجدت نفسها تقهقه .

ولكنها قطعت القهقهة عندما أحست بالباب يفتح . وسمعت صوت مدام « كلود » يقول لها فى رقة :

ـــ ألا تنوين الرحيل يا نادية !! لقد مضى على وقت الرحيل نصف ساعة .

ودهشت « نادية » .. فقد سرقها الوقت ، وهى منهمكة فى الصورة والرسالة .

لقد قرأت الرسالة .. أكثر من خمس مرات .

وعندما هبطت إلى الفناء ، وجدت « منى » تهم بالصعود إليها قائلة :

ـــ ماذا أخرك إلى الآن ؟

وأجابت نادية فى عجلة :

ـــ شغل .. كان عندى شغل كثير .

وضحكت « منى » قائلة :

ـــ يا كذّابة .. إن فى وجهك .. أنباء مثيرة لطيفة .. قولى الحق .. شغل .. أم رسالة حلوة ؟!

وأخرجت « نادية » الرسالة من جيبها قائلة ، وهى تضحك :

ـــ رسالة حلوة جداً .. جداً

واختطفت « منى » الرسالة ، ثم أخرجت الصورة ونظرت إليها قائلة فى دهشة :

ـــ ما شاء الله .. أخيراً ، بدا كالبنى آدم .

ـــ وماذا كان يبدو من قبل ؟!

ـــ كالثيران التى تتأهب للمصارع .

ـــ مجرمة .

وعادت « منى » تتأمل الصورة ضاحكة ، وهى تقول :

ـــ وما له يبتسم هكذا !. مبسوط !!

ثم فتحت الرسالة ، وهالتها الصفحات المزدحمة بالسطور .فتساءلت فى دهشة :

ـــ كل ذا كلام ؟! لقد « تدردح » جداً .. ماذا يقول لك ؟

وألقت على الصفحة الأولى نظرة عابرة .. فاصطدمت عيناها بكلمة « البطاطا » فصاحت فى دهشة :

ـــ « بطاطا » .. يخرب بيته .. أيصح أن يذكر سيرة البطاطا ، فى رسالة غرام ؟!

وخطفت « نادية » الرسالة من يدها قائلة فى نهر :

ـــ من قال إنها رسالة غرام ؟!

ـــ أمال رسالة إيه ؟! رسالة ، فى « شوى البطاطا » ؟!

وهزت « منى » رأسها مستمرة فى سخريتها الضاحكة وقالت :

ـــ الله يكون فى عونك .. واحد يحدثك عن الدستور .. والثانى عن البطاطا .. من صبرى لمدحت يا قلبى لا تحزن

وقالت نادية غاضبة :

ـــ الحق علىّ أنا التى أريتك الرسالة .. آخر مرة أطلعك على شىء .

ومدّت « منى » يدها فلفتها حول كتفى نادية وضمتها إليها قائلة :

ـــ أغضبت ؟! إنى أضحك يا عبيطة .. هاتى الجواب .

وأخذت الرسالة وقبلتها قائلة :

ـــ أموت فى البطاطا ، وبياعين البطاطا !

ثم وضعت كفيها على خدها مثل بائع البطاطة ، وهو يهتف :

ـــ معسله قوى يا بطاطا .

وصاحت بها نادية :

ـــ كفى عن هذا .. ماذا يقول الناس عنك فى الطريق .

ـــ الذين سيفهمون العربى .. سيعرفون أنى أنادى على البطاطا ، والذين لا يعرفون .. سيظنوننى أغنى .

وألقت « منى » نظرة على نهاية الرسالة فإذا بها ملحوظة يقول فيها مدحت :

« أرسل إليك صورة أخرى لى ، كما طلبت .

« ولا شك أنه يسعدنى .. أن أتلقى منك .. صورة أخرى » .

وهزت « منى » رأسها ، وهى تقول :

ـــ مشكلة .. هل لديك صورة أخرى ؟!

ـــ لدىّ « ألبوم » صورنا القديم .. أستطيع أن أرسل إليه ما شاء من الصور .

ونظرت « منى » إلى وجه « نادية » ، وإلى الإيشارب المحيط به ، وتملكها إحساس بالعطف عليها والقلق من أجلها ،

ولكنها أخفت مشاعرها بضحكة مرحة وجملة مازحة هاذرة

(٣١)

لن يراها ..

استمرت الرسائل بين « نادية » و « مدحت » .. تحمل دعوتهما الوهمية .. وصورهما المتبادلة ، وحاول « مدحت » فى أول الأمر أن يوهم نفسه ، أنه يباشر عملية ..إحسان ، وشفقة .. دفعته فيها الظروف

ولكنه لم يستطع أن يمنع نفسه قط من شعور المتعة الذى يغمره كلما تسلم رسالة من « جاب » .. أو كلما جلس ليكتب إليها رسالة .

وكانت العملية — عملية تبادل الرسائل — من أنسب عمليات المتع الحسية لطبيعة مدحت .. فهو مخلوق رقيق فى باطنه .. وإن كان يكسو رقته بمظهر عبوس متجهم يحاول أن يكتسب به هيبة فى عمله ، واحتراماً ممن حوله .

كان مظهره الجاد يقف حائلا أمام مشاعره الرقيقة .. وكان يكره أن يبدو محباً ودوداً .. إلا فى ضيق الدوائر المحيطة به ، والتى لا تتعدى .. صاحبه « جاد الله ».

ومنحته الرسائل .. دائرة أضيق .. ينفس فيها عن طبيعته المرهفة المحبة .. دائرة لا يكاد يكشفة فيها أحد .. سوى نفسه .. ومخلوقة مجهولة .. شبه وهمية .. تسكن فى أعالى جبال الألب .. كأنها إحدى أميرات الأساطير .

ومع ذلك فقد كان يصيبه أحياناً نوع من الحذر فى كتابته ، عندما ما يتذكر نفسه ، ومظهره .. وجدّه .. ويتذكر العملية العجيبة التى ينغمر فيها ، والكائنة — غير الكائنة — التى يصادقها ويمزح معها ، ويدعوها لمرافقته .. فى ثلاث أرباع نزهاته ، والتى يطلعها ببساطة على خبايا نفسه .

لقد استطاعت « نادية ».. أن تكتسب ثقة المخلوق الحذر المنطوى .. بصدق مشاعرها ، وإخلاص دعوتها .. وبساطة حديثها ، وأكثر من هذا .. بمقرها

النائى ، وعواقبها المأمونة ، وخطرها البعيد غير المحتمل .

وبمر الأيام .. أصبحت رسائلها .. شيئا حيوياً ، فى حياة « مدحت »، واحتلت قراءتها .. والرد عليها .. مكاناً من وقته .. يتساوى فى الأهمية .. مع عملياته ، ومحاضراته ، وبقية الأعمال الرئيسية التى تتركب منها حياته .

ورغم محاولاته المتعالية المترفعة فى صد مشاعر الحب من التسرّب إلى تفكيره وبالتالى إلى كتابته ، ورغم تأكيده لنفسه ، المرة .. تلو المرة .. أن العملية كلها لا تعدو .. عطفاً على غريبة نائية .. لا يحس لها بأكثر من إحساس الأخت الصغرى .

رغم كل هذا .. لم يستطع أن يمنع نفسه من أن يؤكد لها ذات مرة ، وكأنه لا يقصد شيئاً .. أن « ميرفت » ليست خطيبته ، وأنه لم يكن بينهما أكثر من صداقة عابرة .

و لم يستطيع كذلك أن يمنع إصراره على وقف تلك العلاقة المعلقة بينه وبين « ميرفت »، وعائلتها ، وأن يفهم جاد الله .. باختصار .. أنه لا يفكر فى الزواج أبداً وأنه فى غنى عن خدمات أبيها سواء أكان عميداً للكلية .. أم مديراً للجامعة ، أو حتى رئيساً للوزراء .

وأكثر من هذا .. لم يستطع أبداً ، أن يمنع نفسه من التفكير فيها ككائن حقيقى .. موجود .. لايمنع بعد مقرها من احتمال لقائها .

و لم يستطيع أيضاً .. أن يمنع لهفته على صورها ، وضيقه عندما يحس من خفة الظرف .. خلوه منها .

وأخيراً لم يستطع أن يمنع نفسه من أن يكتب إليها .. فى نهاية إحدى رسائله .. بعد أن انتهى من دعوته لها إلى جزيرة الشاى بحديقة الحيوانات :

« نادية .. أرسل لك مع رسالتى هذه صورة التقطها لى — وكنت أود أن أقول لنا — ولكن الظاهر .. أن الكاميرا لاتتسع عدستها .. لتصوراتنا ، ورغباتنا — التقطها لى مصوّر من مصورى الطريق .. أتعرفينهم ؟ هؤلاء الذين

يلتقطون لك الصورة ثم يقذفون لك بالتذكرة .. ويفرون هاربين

« لقد التقطها لى وأنا أجلس فى الجزيرة .. فى نفس المكان الذى دعوتك إليه ، والذى تناولنا الغداء فيه .

« ما رأيك فى الأشجار المحيطة بنا ؟ وفى البط السابح فى البحيرة !!

« ترى .. البحيرة .. هنا .. تشبه بحيرتكم ؟!

« لماذا لا ترسلين إلى صورة لك ، وأنت فى إحدى نزهاتك .. أعنى فى إحدى نزهاتنا ، على الأقل ، حتى آخذ فكرة عن هذه الأماكن التى تصحبيننى فيها .

« ترى .. « جاب » قد خلت من المصوّرين الخطافين ؟!

« وإذا كانت قد خلت .. أليس عندكم مصوّر . فى محل .. يستطيع أن يلتقط لك صورة حديثة !

« ألم تلاحظى أن كل صورك التى أرسلتها لى . قد مضى على أحدث صورة منها مالا يقل عن ست سنوات !

« هل من ذلك .. أن « موضة » التصوير قد بطلت ؟

« أم أن التصوير قد أضحى .. مسألة .. عيب ؟

« أم أفهم أن بلدكم قد خلا من المصورين !

« أم مفروض علىّ .. ألا أعرفك .. وألا أعرف شيئاً عن ملامحك بعد الثانية عشرة ، وأنك قد أخفيت نفسك بعد هذه السن تحت « التزييرة » وخلف « البرقع » .. فلم يعد يرى لك وجه أو تبصر لك صورة !

« أيتها . المتمنعة المحجبة .

« أيها الشبح المختفى .. منذ الثانية عشرة .. « اظهر وبان عليك الأمان » اختشنى ، وأرسلى صورة حديثة ، لأعرف على الأقل كيف تبدين الآن .

« وحتى أحس وأنا أصطحبك فى دعواتى أنى لا أمسك فى يدى صبية صغيرة ليست فقط لم تتعد الثانية عشرة .. بل تأبى أن تتعداها .

« إنى فى انتظار الصورة .

« صورة .. بلا ضفائر ، ولا « فيونكات ».

« صورة .. أستطيع أن أدعو صاحبتها .. إلى الأوبرا ، دون أن أخشى من نومها وسط السهرة ، ودون أن أعود بها محمولة على يدىّ .. أو على كتفى ».

وهكذا لم يستطع « مدحت » .. رغم ما به من تؤدة ، واتزان ، وعقل .. أن يمنع لهفته .. على أن يعرفها كما يجب أن تعرف ، وأن يقرّبها إلى ذهنه كواقع .. كشىء يعرف سماته وملامحه كما هو كائن .. لا كما يتوهم أن يكون .

ووصلت الرسالة إلى « نادية ».

حملتها إليها « منى » فى يوم من أيام أبريل ، وقد استلقت « نادية » فى فراشها تستريح من وعكة برد أصابتها ، ومنعتها من الذهاب إلى المدرسة .

وكان الربيع قد بدت طلائعه والثلوج قد أخذت فى الذوبان وانحدرت مياهها من أعالى الجبال .. متدفقة فى أخاديد السفوح .. وبراعم الأوراق الخضر قد كست الأغصان التى عراها الشتاء ، وزهور أشجار الفاكهة قد كللت فروعها بألوانها البديعة ، و « نادية » تجلس على فراشها ، وقد أطلقت بصرها متنقلا بين قمم الجبال فى أقصى الأفق والسحب المتابعة على قرص الشمس تحجبه تارة وتخفيه تارة .. وهى تنصت فى لهفة إلى وقع أقدام « منى » تجتاز الممر الخارجى ، وتسمع صوتها طالبة الطعام .

ولم تطق « نادية » صبراً .. فنهضت من فراشها وأطلت من أعلى السلم صائحة :

— منى .

كان موعد الرسالة قد حل ، وكانت تعد ثمانية أيام من إرسال رسالتها ، ثم تبدأ لهفة الانتظار ، وقد حاولت اليوم الذهاب إلى المدرسة للتبكير فى تسلم الرسالة المنتظرة ، ولكن أمها أصرّتْ على منعها ، ولم تستطع « نادية » الإصرار على الذهاب .. لا سيما ، وهى تعلم أن حرارتها ما زالت مرتفعة ، وجَسدها ما زال

مجهداً .

ورفعت إليها « منى » وجهها من أسفل السلم ، وقد افتر ثغرها عن ابتسامتها المرحة وتساءلت فى سخرية :

ـــ مالك مسروعة هكذا ؟

ـــ أريد أن أسألك .

ـــ عن ماذا ؟.

ـــ عن المدرسة .

ـــ مدام كلود تهديك أزكى السلام .

ـــ أهذا كل ما فى الأمر ؟

ـــ وجابى تسأل عن صحتك .

ـــ وبيتر . ؟

ـــ يسأل أيضاً عن صحتك .

ـــ فقط . ؟

ـــ وعن صحة جدتى .

وبدا الضيق على « نادية » وتساءلت فى صوت حزين :

ـــ ألم .. ألم .. يرسل لك شيئاً ؟

وهزت « منى » رأسها فى استخفاف متسائلة :

ـــ شىء ..؟ شىء مثل ماذا ؟

وهتفت بها « نادية » فى غيظ :

ـــ اسمعى .. كفى استعباطاً .. لماذا لا تصعدين إلى .. بدل هذا الصراخ من أسفل السلم !

وضحكت « منى » قائلة :

ـــ لا تشخطى هكذا .

ثم قفزت السلم صاعدة ، وهى تقول :

ـــ لو صبرت لحظة لصعدت إليك .

و لم تكد تصل إلى آخر السلم حتى مدت يدها فى جيبها وأخرجت الرسالة ، وهى تقول ضاحكة :

ـــ هاتى شلن أولا .

واختطفت « نادية » منها الرسالة ، وهى تقول مؤنبة « منى » وقد غمرتها الفرحة :

ـــ يا كلبة .

ـــ ومالك فرحة هكذا !! كأنك قد سلمت ألف جنيه . ترى أين دعاك هذه المرة ..؟

و لم تجب نادية فقد انطلقت عائدة إلى حجرتها .. لتنفرد بالرسالة ، وهبطت « منى » لتتناول طعامها .

وبعد برهة عادت إليها .. لتجدها قابعة فى الفراش والرسالة ملقاة فى حجرها ، وقد بدا عليها شرود حزين .

وهزت « منى » رأسها متسائلة ، وهى تقضم تفاحة فى يدها :

ـــ ماذا حدث !! كفى الله الشر ؟!

و لم تجب « نادية »، ومدت « منى » يدها تتناول الرسالة ، وهى تردف قائلة :

ـــ لعل الدعوة هذه المرة ليست على ما يرام .. أين ذهبتما ؟ إلى الأراجوز ..؟ لا بأس يا نادية .. نحن فى آخر الشهر ، وموسم العمليات قد كسد ..و ..

ورفعت « نادية » رأسها وقاطعتها قائلة :

ـــ اسمعى يا « منى ».. إن مدحت يريد منى صورة حديثة

ـــ صورة حديثة ؟!

ـــ أجل .. لقد لاحظ أن كل صورى قديمة ، وتساءل : لماذا أصر على إخفاء وجهى بعد الثانية عشرة ؟

وبدت الدهشة على وجه « منى » وتساءلت :

ــ إخفاء وجهك .. هل .. تظنين ...

ــ لا .. لا .. إنه فقط يتساءل .. وهو يريد صورة بلا ضفائر ، ولا « فيونكات ».

وضحكت « منى » قائلة :

ــ معه حق .

وأطرقت « نادية » وتساءلت فى صوت خفيض يائس :

ــ وما العمل ؟

ورفعت « منى » كتفيها ببساطة :

ــ ولا شىء ! أهى معضلة ! تصوّرين .

وتساءلت « نادية » فى فزع :

ــ كيف .. ؟

وردت « منى » بنفس البساطة التى تتحدث بها :

ــ تذهبين معى غداً .. إلى المصوّر على الناصية أمام « الكوافير » .. ثم تسألينه أن يصوّرك .. وتقعدين أمام الكاميرا ، وتتركين الباقى عليه .

وصمتت « نادية »، وقد بدا عليها الوجوم واليأس .. ثم مدت يدها تتحسس الإيشارب الذى لا يفارق رأسها وعنقها وتمتمت كأنها تحدث نفسها :

ــ كيف أقف أمام المصوّر .؟

ــ كما تقفين أمامى .. وأمام أى مخلوق آخر .

ــ وأظهر فى الصورة بالإشارب ؟

ــ و لم لا ؟ إننا هنا فى عز البرد .

ثم صمتت برهة ، واستدركت قائلة :

ــ وإذا لم تعجبك الصورة بالإيشارب ، فاخلعيه .

ــ وأبدو فى الصورة كما أنا ؟!

ــ لن يظهر شىء فى الصورة ، وإذا ظهر .. فستضيعه الرتوش .

— وكيف أقف أمام المصوّر .. بشكلى هذا ؟!

— وماذا يهمك من المصوّر .. إنه لن يخطبك .

وارتسمت على وجه « نادية » أمارات حزن عميق وقالت لمنى عاتبة :

— هل تظنين أنى أستطيع حقاً أن أخدعه بالرتوش الذى يصنعه المصوّر ؟!

— إنك لا تخدعينه يا حبيبتى .. إن هذا عمل المصور .. إن الندبة التى فى جبينى .. لا يتركها المصوّرون تظهر فى الصورة أبداً .. فهل تظنين هذه خدعة ؟!

— هل ندبة جبينك .. مثل حرق وجهى ؟!

— إذن تصوّرين بالإيشارب .. لن يكون به ما يدعو للعجب أبداً .. إنه إشارب وليس « ملاءة لف ».

وهزت « نادية » رأسها فى استسلام ، وضمتها « منى » إليها وهى تقول ضاحكة :

— وسأذهب معك لكى أصوّر أنا أيضاً .. إن عصام ما زال يصر على صورة حديثة يضعها فى حافظته .

وقبل أن تغادر « منى » الغرفة عادت تقول لها مؤكدة :

— اتفقنا ؟.. سنذهب للتصوير غداً !

وهزت « نادية » رأسها موافقة .

وفى اليوم الثانى .. كانت التوءمتان تطرقان باب المصوّر ، ونظر الرجل إليهما من وراء منظاره وتساءل ضاحكا :

— توءمتان ؟!

وأجابت « منى » ضاحكة :

— من أدراك ؟!

— الشبه .

وتساءلت « منى » وهى تنظر إلى وجهها فى المرآة المقابلة وتبتسم فى مرح :

ــ أهى جميلة مثلى ؟

وضحك الرجل قائلا :

ــ لو نزعت عنها الإيشارب ، وسرحت شعرها نفس التسريحة .. أعتقد أنه يكفينى أن أصوّر إحداكما ، وأخرج من صورتها عدداً كافياً لكلتيكما

وقالت « نادية » مازحة وقد بدد لطف الرجل ما تملكها من رهبة

ــ إذن تصورين أنت نيابة عنى .

وقال الرجل :

ــ بل تصوّرين أنت نيابة عنها . إن وجهك أكثر طيبة .

وصاحت « منى » ضاحكة :

ــ هل يعنى هذا أننى شريرة !؟

وأجاب الرجل :

ــ حاشا لله .. إنها أكثر طيبة ، وأنت أكثر لطفاً

وقالت نادية :

ــ وأنت أكثر رقة وأدباً .

ودفعتها « منى » أمامها وهى تقول :

ــ هيا بنا .. فليس لدينا وقت لنتقارض المديح

وأشار الرجل إلى غرفة صغيرة وهو يقول لنادية :

ــ تستطيعين أن تخلعى فيها الإيشارب وتعيدى تصفيف شعرك .

وهزت « نادية » رأسها فى شىء من الخوف ورفعت يدها تحكم وثاق الإشارب على عنقها قائلة :

ــ لا .. لا .. سأصوّر كما أنا .

ــ برأسك مربوطاً هكذا ؟!

ــ أجل .. أجل .

ــ ولكنك ستكونين بدونه أجمل كثيراً .

وردت « نادية » فى إصرار وضيق :

ـــ إنى أفضل أن أكون هكذا .

وهز الرجل كتفيه قائلا فى استسلام :

ـــ أمرك .

وانتهى المصور من تصوير التوءمتين .. وبعد يومين ، كانت نادية تجلس فى مكتبها بالمدرسة ، وقد انتهت من كتابة الرسالة .. ووضعتها فى الظرف ، وأمسكت بصورتها .. تنظر إليها فى تمهل وإمعان ، وقد بدا عليها الضيق والقلق .

ترى كيف ستبدو له الصورة !!

إنها تبدو بالإيشارب .. كاللاجئات ، والمهاجرات .

لماذا أصرت على ارتداء الإيشارب ؟

ولكن كيف تستطيع أن تصوّر .. بدونه ؟.. كيف تجرؤ ؟.

ألم تقل لها « منى » إن المصور كفيل بعمل ما يلزم من رتوش لإخفائه .. إذا ظهر ؟. ولكن ألا تكون تلك خديعة ؟

ألا تكون بذلك قد خدعته عن حقيقتها ، وأرسلت له وجهاً غير وجهها !

وهذه الصورة .. ألا تعتبر خديعة !

ألا تكون الخديعة .. إلا بالتغيير ، والتبديل ؟

والإخفاء .. ألا يعتبر خديعة ؟

أتعتبر الصورة ذات الإيشارب .. الذى أخفى ما بها من تشويه صورة حقيقية لها !

لماذا تورطت إلى كل هذا ؟

لماذا لم تقصر العلاقة .. على مجرد الرسائل ؟. لماذا زجت بها إلى تبادل الصور ؟

ألم تكن هى البادئة بطلب صورته !!

ماذا كانت تتوقع غير تلك النتيجة !

إنها جرؤت على الكتابة إليه .. لإحساسها بأمن البعد ، واستحالة اللقاء ، ولثقتها بأن الجانب المادى للعلاقة .. الذى قد يضطرها إلى عرض نقطة ضعفها وهو شكلها .. لم يعد له وجود .

ومع ذلك فهى تجد نفسها قد لفت .. لتواجه جزءاً من المشكلة التى ظنت أنها قد جاوزتها ، وأنه لم يعد هناك من سبيل لمواجهتها .

وهى مهما فعلت .. لا تستطيع أن تحلها إلا بالخداع .. بل إن ما فعلته حتى الآن يعتبر خداعاً .. بالتجنب ، واللف والدوران .. فكل ما أرسلته من صور لطفولتها كان تجنباً منها للواقع المرير .. واقع شكلها المشوّه .

وهى الآن تجد نفسها مضطرة إلى الاستمرار فى المزيد من الخداع ، بأية صورة من صوره .. وبأى شكل من أشكاله .

وإذا كان الخداع مسلماً به .. فلماذا لا تقدم عليه بصورة منصفة ؟!

لماذا تضطر إلى صورة الإيشارب التى تبدو فيها كاللاجئات والمهاجرات ، والخدم !؟

لماذا لا تصوّر بدون إيشارب .. وتسأل الرجل وهو كما بدا لها رقيق لطيف أن يقوم بعمل « الرتوش » اللازم .

ومدت يدها لتتناول مجموعة ، وتقلبها بين أصابعها .

ووقع بصرها على إحدى صور « منى » .. بين صورها .

واستبقتها بين أصابعها تتأملها برهة .

كانت صورة جميلة .. رشيقة .. أنيقة فاتنة .. بدت بجانب وجهها وقد عقص شعرها فى صورة ذيل الحصان .. ليس بها شبه اللاجئات و المهاجرات .

أيمكن حقاً أن يكون هناك شبه بين الاثنتين .. وتذكرت ما قاله المصوّر :

« لو نزعت عنها الإيشارب ، وسرّحت شعرها نفس التسريحة أعتقد أنه يكفينى أن أصوّر إحداكما وأخرج من صورتها عدداً كافياً لكلتيكما » .

لو نزعت الإيشارب إذن .. فستبدو كهذه الصورة .. أنيقة ، رقيقة ،

أرستقراطية .. لماذا إذن لا تنزعه ؟

ولكن لماذا تنزعه ؟

لكى تحصل على صورة مماثلة ؟

ولماذا لا تأخذ نفس الصورة ؟

ألم يؤكد الرجل .. أنه يستطيع أن يصور إحداهما . ويخرج من الصورة عدداً كافياً للأخرى !

لماذا تتعب نفسها فى التصوير مرة أخرى !!

لماذا تفضح نفسها بخلع الإيشارب وبتسريحة الشعر .. ما دام أقصى ما يمكن الحصول عليه هو صورة أخرى طبق الأصل من هذه الصورة !!

ألم يقل هذا المصوّر نفسه !!

أليست المسألة من أولها خداعا فى خداع !!

فلماذا لا تقدم على ما يمنحها أطيب النتائج .. بأسهل الوسائل ؟!

هل تخشى أن تكتشف الخدعة ؟

متى ؟.. عندما يراها ؟

وهل تتصرف هى على أساس احتمال رؤيته لها ؟

إنه لو رآها لهدم كل شىء .

هل تخشى أن يكتشف الخدعة .. لو قارن الصور الحديثة بصورها القديمة ؟!

إن آخر صورة لديه منذ ست سنوات .. بالضفائر و « الفيونكات »

ومفروض أن تكون قد تغيرت فى السنوات الست .

ثم إن الشبه موجود .. كل من رآها يجزم بهذا ، ولن يشك أحد أن الصبية صاحبة الصورة ذات الضفائر .. ليست هى الآنسة صاحبة الصورة ذات ذيل الحصان بعد ست سنوات .

ولكنها ستكون خديعة كبرى .

وهل هناك فرق بين الخديعة الصغرى .. والخديعة الكبرى ؟!

وأمسكت صورة « منى » تتأملها . وتقارنها بصورتها ذات الإيشارب ..
وأحست بكره لصورة الإيشارب ، وكره لما بها من تشويه يخفيه الإيشارب .
وبالسبابة والإبهام .. سحبت صورة « منى »، ووضعتها فى الظرف بجوار الرسالة .

إنها بلا جدال .. لن تخذله فيها !

وعندما يطلب صورة أخرى .. سترسل له صورة أخرى لمنى .

وكلما طلب صورة ستصور له « منى ».

ستصورها له بين الثلوج ، وعلى سفح الجبال ، وعلى شاطىء البحيرة .

وستشترى « كاميرا » بدل الراديو .. بالنقود التى جمعتها

أجل .. ستقوم هى بدور المصوّر الخاطف الذى يصوّر .. ويقذف بالتذكرة ، ثم يعود هاربا .

إن الخديعة تجر الخديعة .

ولن تكتشف خديعتها إلا إذا رآها .

وهو لن يراها .

(٣٢)

إنه يحبها

أمسك « مدحت » بالرسالة الزرقاء يتحسس بأصابعه الصورة الصلبة التى حواها الظرف ، وهتف « جاد الله » وهو يقف وراءه ويحس تردده :

ــ افتح يا أستاذ .. أرنا آخر صورة .. لعلها تكون قد استحت .. وقصت ضفائرها .. وفكت فيونكاتها .

وفتح « مدحت » الظرف ، وأخرج الرسالة .. فسقطت الصورة على المكتب .. وانطلق من شفتى « جاد الله » صفير طويل .. وصاح فى دهشة وإعجاب :

ــ يا بنت الإيه !!

ولم ينبس « مدحت » ببنت شفة ، وأخذ ينظر إلى الصورة مأخوذاً .. ويتأملها ، وقد شرد فكره .

ومدّ « جاد الله » يده محاولا اختطاف الرسالة ، وهو يقول ضاحكا :

ــ أظنك اقتنعت الآن أنها تستحق الكتابة .. ما رأيك ؟!

وتمتم « مدحت » قائلا ، وهو ما يزال ينظر إلى الصورة :

ــ لطيفة !

ــ لطيفة فقط .. إنى على استعداد لأن أذهب إلى قمم الألب من أجلها .. إنها هائلة .. ولكن ماذا كتبت هذه المرة ؟.. هل تعرف أن دمها خفيف جداً !

وأطبقت أصابع مدحت على الرسالة . ولم يدع « جاد الله » يتناولها منه بل أمسك بالصورة وأعادها إلى الظرف ، ثم وضع الظرف فى جيبه قائلا :

ــ هيا بنا .

ـ ألا تنوى قراءتها ؟!

ـ بعدين .

وضحك جاد الله قائلا :

ـ بعدين ؟.. أم هناك أسرار بينكما ؟! على أى حال ، حلال عليك .

ولم يجب « مدحت » وازدادت فى ملامحه علامات السرور فاستغرق « جاد الله » فى الضحك قائلا :

ـ والله وقعت .. واللى كان ..كان .

ونظر إليه « مدحت » نظرة زاجرة وهتف به :

ـ ما هذا السخف الذى تقول ؟!

ـ أرهن أنك تحبها .

ـ أنا ؟!

ـ أجل أنت .

ـ أحب ماذا ؟!.. أنت مجنون !

ـ اسمع .. لا تدخل فى عبى .. وتكروتنى .. بذمتك ألا تتمنى أن تراها ؟!

ـ يجوز .. من باب حب الاستطلاع .

ـ حب الاستطلاع فقط ؟! أتعنى أنها تتساوى فى نظرك مع قوس النصر .. وبرج إيفل ؟!

وضحك مدحت وأجاب :

ـ مع الفارق .. إن برج إيفل لم يكتب إلى ، ولم يرسل لى صورته .

وأردف جاد الله متمماً قول مدحت :

ـ ولم يدعك فى لهفة .. ولم يخبرك أن حياته معلقة ، فى سطور منك .. ولم يلاحقك بالدعوات .. ولم يصحبك فى كل نفس يتنفسه .. أو حركة يتحركها .

وعاد السرور إلى وجه « مدحت »، وأردف « جاد الله » متسائلا :

ــ اسمع يا مدحت .. هل تشك أن الفتاة تحبك ؟!

ورفع كتفيه قائلا فى حيرة :

ــ تحبنى !.. كيف ؟!

ــ كما يحب الناس بعضهم .. ماذا تقصد بسؤالك كيف ؟!

ــ أعنى كيف تحبنى .. وهى لا تعتبرنى أكثر من وهم ، تحدثنى كوهم .. وتدعونى كوهم .. إنها لم تتحدث أبداً عن أى احتمال .. للقاء بيننا .. بل لم تبد لى أنها تأمل فيه .. أو تتمناه .. إنها تخاطبنى كما تخاطب الأرواح .

ــ ولكنها تعرفك جيداً .

ــ تعرفنى كشىء مضى ، ولكنها تتوهمنى كشىء آت. أتعرف كيف أحس من حديثها معى ؟!

ــ كيف ؟!

ــ أحس .. كأنى إنسان كان فى حياتها .. ثم خرج منها .. ولم يعد لها إليه من سبيل .. أحس كأنى ميت .. لا أمل لها فى لقائه .

ــ يا شيخ . « فال الله ولا فالك ». ما هذا الذى تقول !

ــ إنى أقول الحق .. إنها لا تتحدث أبداً عن أمل فى مستقبل . إنها تعاملنى ، باعتبارى شيئاً مستحيلا عليه أن يكون أكثر مما هو فى وهمها . أتفهم ما أعنى .. إنها لا تأمل أبداً .. كما يأمل بقية الناس .. أنت تعرف أننا دائماً ، نأمل فى خطوة جديدة .. بعد كل خطوة نخطوها .. ولكن تبدو أنها قد جمدت آمالها عند حد معين .

ــ وهل تأمل أنت فى خطوة أخرى ؟!

وأحس « مدحت » أن « جاد الله » يتصيده ، فهز رأسه متسائلا وهو يحاول أن يمنح نفسه فرصة للتفكير :

ــ ماذا تعنى ؟!

ــ أعنى هل أنت نفسك .. تأمل فى خطوة أبعد ؟! هل تأمل مثلا فى أن

تراها .. وأن .. وأن ..

— ولم لا ؟!

— وماذا تأمل أيضاً ؟!

— آمل فى أن أصادقها .. وأن أحقق لها الدعوات الوهميه .. التى دعوتها إليها .

— وماذا أيضاً ؟!

— لست أدرى بالضبط .. ولكنى أحس أنى أود .. أن أجسدها أمامى .

— أنت واثق إذاً .. أنها شىء حقيقى ؟!

— طبعاً .

— وتخذلك .. أن تكون شيئاً وهمياً .. خدعة مثلا .. أو أكذوبة .

وبدت على وجه « مدحت » علائم الضيق والخذلان .. فأردف « جاد الله » قائلا :

— لا تكتئب هكذا .. أنا أقول مثلا .

— بالطبع أكره أن تكون أكذوبة .

— لقد باتت إذن شيئاً فى حياتك .. شيئاً واضح الملامح يشغل جزءاً من تفكيرك واهتمامك .

— أعتقد هذا .

— وإذا فقدته .. تحس أنك فقدت شيئاً ؟!

— لا شك .

— شيئاً عزيزاً ؟

— تستجوبنى ؟!

— أبداً .. إنما فقط .. أعرفك بمشاعرك .. أنت تضمر المسألة فى نفسك وترفض أن تحددها أمام عينك .. إنك تحبُّ الفتاة .

— كيف ؟!

— « تانى ! »

— أعنى كيف أحب .. مخلوقة لم أرها .. مخلوقة كل معالمها .. مستمدة من السطور .. والصور .. هل يعقل أن يحب إنسان صورة .. ووصفاً ؟!

— ولم لا ؟! إن الحب دائماً لا يكون إلا صورة ووصفاً .. نظل نحملها فى أذهاننا .. حتى نلتقى بأقرب الناس شبهاً بها وانطباقاً عليها .. فنرتمى فى أحضانه .. والفارق بين حالتك .. وحالات غيرك من المحبين .. أن المخلوقة وجدت ، أولا .. ثم رسمت فى ذهنك صورتها وأوصافها .. فإذا أحسست أنها قد لاءمتك .. وأغلب ظنى أنها لاءمتك فعلا ، فليس عليك إلا أن تمد يدك لتتناول الأصل .. إنها نعمة من الله أن أرسلها إليك ، لتوفر على ذهنك عملية خلق الصور والصفات التى تتمناها فيمن تحب .. إنك مخلوق ضعيف التصوّر .. باهت الخيال .. وكان يحتمل .. أن تستمر فى حياتك هكذا بلا شعور .. ولا حب .. لأنك أكسل من أن تفكر فيما تريد .. أو تحدده فى ذهنك وتصوّره لنفسك ، أليس هذا حقيقياً ؟!.. أجب !!

وهز « مدحت » رأسه .. وأجاب ضاحكاً :

— أنت غلباوى .

— وأنت حمار عنيد .

— أنا !!

— أجل أنت .. لماذا لا تعترف أنك تحبها ؟!

— الله .. أما مجنون !! أحب من يا غبى .. إنها مخلوقة لطيفة .. أشفق عليها .. وأتسلى معها .

— تتسلى ؟!

وهز « جاد الله » رأسه وأردف فى استسلام :

— تتسلى .. تتسلى حتى تغرق لأذنيك .. ولا تجد من ينقذك .. مع السلامة يا أستاذ .. يا متسلى .

وافترق الصديقان .

وعندما عاد « مدحت » إلى حجرته فى « منشية الطيران » وتمدد على مقعده المريح فى الشرفة المطلة على المطار . ولاحت له أشباح الدور فى ضوء القمر الباهت تقطع خط الأفق وقد نتأت من بينها قباب « هليوبوليس بالاس ».. وبرج قصر البارون .. وبدت أشجار الكافور الضخمة .. بسور المطار ، ومن أسفل الشرفة تصاعدت رائحة زهر البرتقال الذى يملأ حديقة البيت .. تحملها نسمات مايو الدافئة لتشبع الجو بأريجها العطر .

ومرة أخرى عاد النقاش يدور حول .. ساكنة قمم الألب .. الشقراء المرهفة .. الرقيقة .. اللطيفة .. الذكية الحنون .. المحبة .. الودود .. ال .. ال .. التى لا يستطيع إلا أن يصفها بكل وصف طيب ، بلا مبالغة ولا تزيد .

عاد النقاش مرة أخرى يدور حولها .. المخلوقة التى لا يحدد وجودها سوى السطور والصور .. المخلوقة الكائنة بالوصف والرسم .

وفى هذه المرة كان النقاش ، بين مدحت ، وبين نفسه ، كان نقاشاً .. أصرح .. وأجرأ .

أهو حقاً ، يتسلى معها ، ويشفق عليها ؟!

جائز .

محتمل أن يكون هذا .. هو بعض ما يفعله معها ، ولكنه قطعاً ، ليس كل ما يفعله .

إنه يمارس معها عملية تسلية ، وشفقة .. ولكن هذا قد أضحى ضمن عملية .. أعم وأشمل .

قد تكون المسألة .. بدأت شفقة ، وامتدت تسلية .

ولكن الشيء المؤكد ، أنها لم تنته ، إلى هذا فقط .

إن هذه المخلوقة ، الرقيقة ذات العينين المتسعتين ، والشعر الذهبى .. المسترسل فى جدائل ، أو المعقوص على شكل ذيل الحصان ، قد أضحت — كما استدرجه جاد الله — جزءاً من حياته .

جزءاً .. فقط !!

إنه لم يحس باهتمام لمخلوق ، قدر ما أحس لها .

وهو يستحمق نفسه .. وقد يخجل أن يظهر هذا الاهتمام أمام أحد ممن حوله ، ومع ذلك ، فهو لا يستطيع أن يمنع نفسه منه .

وهو يسلم به لنفسه ، كنوع من أنواع الشذوذ ، الذى يحاول دائماً أن يلصقه بنفسه ، والذى يؤكد عنه من حوله .

إنه يعتبر شذوذاً من نفسة ، أن يمنح كل هذا الاهتمام ، وهو الإنسان المفروض فيه الترفع عن مشاعر الحب .. وغير هذا من السخافات — لإنسانة — أقرب وصف يمكن أن توصف به .. أنها غير كائنة .

إن أحداً .. من كل من حوله ، من معارف أو قريبات أو صديقات .. لم يستطع أن يستحوذ منه على مثل هذا الاهتمام .. أو التفكير

ولكن هذه المخلوقة قد استطاعت . وهى قد تسرّبت إلى نفسه .. لتكون جزءاً هاماً من حياته .. ومشاعره .. وتفكيره .

اعترف بهذا .. أم أنكر .. سلم بهذا أم خجل .

واهتمامه بها كان فى مظاهر ، إن أخفاها عن الناس ، فمن العبث أن يحاول إخفاءها عن نفسه ..

لهفته الشديدة على رسائلها .. وإحساسه الممتع بدعوتها واستغراقه معها فى كل ما تذهب إليه أو تعيش فيه ، ثم .. استمتاعه بالرد عليها وبدعوتها إلى كل ما يذهب .

بل أكثر من هذا ، يقينه بأنه قد بات يلبى دعوات السهرة والولائم من أجلها هى ، لكى يصفها لها .. ويمتعها ، ويسليها .

وهو يتصوّرها تصحبه فى كل ما يذهب إليه .

وأخيراً يتبلور كل هذا فى إحساسه بأنها باتت مخلوقة حية .. قريبة من نفسه ، وبأن لقاءها ، قد أضحى شيئاً محتما .. إن لم يحدث اليوم ، فسيحدث غداً ..

أو بعد الغد .

ومع ذلك ، فإن شيئاً من كل هذا لم يخرج عن دائرة تفكيره و لم يحاول أن يفصح لها عنه ، ولا حاول أن يبديه لأحد ممن حوله .

وجلس يكتب إليها ليلتذاك .. يصف لها مجلسه ، ويحمل إليها أريج البرتقال ، مع نسمات مايو الدافئة ، وينبئها بأنه قضى أول أمس يسير معها فى شوارع القاهرة .. محاولا شراء أسطوانتها المحببة ، « فالس الوداع » لشوبان .. والتى لا تفتأ تصف له دقاتها المنسابة .

ووصف لها شارع « عدلى » ودخولهما محل « بابازيان » وافتقاد الأسطوانة ، ثم المشوار الذى ساراه سوياً إلى شارع « سليمان » حيث دخلا ممر سينما « راديو » وكيف ابتاع لها « غزل البنات » من المحل القائم على اليسار أمام محل الأسطوانات .. وكيف خرجا من المحل بخفى حنين .. وذهابهما إلى المحل الكائن فى شارع « الأنتكخانة ».. بجوار « أفيرينو » .

وأخيراً حصولهما على الأسطوانة ، وسماعها معاً ، داخل « الكشك » الزجاجى الصغير .

إنها تدور الآن فى « البيك أب » الموجود فى حجرته . إنه يسمعها للمرة العاشرة فى يومه هذا ، فهو قد يترك « البيك أب » مغلقاً عليها ، وتعود الإبرة إلى الأسطوانة لتعيد إذاعتها بمجرد أن تنتهى .

إن موسيقاها المنسابة فى الأعماق .. لا تتوقف !

لم يكن يتصوّر قط أن مقطوعة من الموسيقى يمكن أن تصيب الإنسان بمثل هذا الأثر من النشوة .. والحزن .

لماذا يحس مع هذه المقطوعة ، كل هذا الإحساس ؟!

أمن فرط ما حدثته عنها ؟!

ألأنها تدفع بها فى نفسه ؟!

ألأنها تحمل إلى ذهنه صورتها ، وهى فى حجرتها الصغيرة أمام

المكتب ، تشرد ببصرها من النافذة ، إلى الأفق البعيد الذى بدت فيه القمم البيض .. وإلى السنديانة التى تحنو بيَدٍ على سقف المحطة المنحدر .. وترفع إلى السماء يداً أخرى .

من يدرى !!

قد تكون المقطوعة .. معجزة فى حد ذاتها ، أو تكون المعجزة .. فى أنها قد باتت قطعة منها .. من « نادية » العزيزة الغريبة .. الجالسة فى حجرتها تنظر إلى سد الجبال الذى يحجب عنها شمس الوطن المشرقة .

وظل « مدحت » مسترسلا فى الكتابة .. والأسطوانة لا تكف عن الدوران .. وموسيقاها ذات الدقات المتقطعة الهادئة .. المنسابة فى عمق .. لا تتوقف ، ولا تنى .

وأخيراً .. وعندما انتهى من الرسالة ، أحس أنه قد نسى شيئاً هاماً .. إنه لم يعلق على الصورة بعد .

وأمسك بالصورة فى يده ، وكتب « صورتك فى كفى أمام عينى . هل يجب أن أقول عنها شيئاً ؟ لو تركت لنفسى ، لما قلت شيئاً .. فأنت عندى .. أجل .. وأسمى من مجرد صورة .

«ورغم ذلك أحس ــ بعد طول إلحاحى فى طلبها ــ أنه يجب أن أقول رأيى فيها.

« الواقع أنك أجمل كثيراً ، مما كنت أتصوّر .

«إن صورتك ذات الضفائر لطيفة ، وهى تحمل فى مجموعها .. طابعك الهادىء ، اللطيف .

« أما صورتك الأخيرة .. فماذا أقول عنها ؟!

« إنى لست مغازلاً ممتازاً ، ولكنى مع ذلك أجرؤ فأقول إنها رائعة .. بأنفك ، وعينيك ، وشعرك المعقوص فى ذيل الحصان .. ورقبتك الفارعة .. و .. وماذا ؟ أظن هذا يكفى .

« فأنا لم أعتد أبداً .. هذا الغزل .

« أنت جميلة دائماً يا « نادية ».

« فى طفولتك .. وفى صباك .

« وأؤكد لك أنك ستكونين جميلة أيضاً عندما تصبحين عجوزاً .. شمطاء .. لك من الأحفاد ذرية ضخمة .

« إنى أشعر دائماً بالاعتزاز بك .. وبكل ما يصدر عنك .

« سأنهى الرسالة .. قبل أن أندفع لأقول أكثر من هذا .. فأنت تعلمين ما تفعله نسمات الصيف بنفوسنا .. تعلمين أثر زهور المشمش والخوخ .. وعبير زهور البرتقال .

« وقد تعلمين ما يمكن أن يفعل كل هذا .. إذا سرت فيه دقات الوداع .. لشوبان ».

ووصلت الرسالة إلى « نادية ».. بكل ما فيها من نسمات دافئات وأريج عطر .

وصلتها وهى هابطة من حجرتها بالمدرسة فى طريقها إلى البيت . وكانت تحس بالأمل ينبض فى كل ما حولها .. فى الأشجار والطيور .. والزهور .. والأطفال منطلقين فى فناء المدرسة .. وفى صوت عجلات القطار يغادر المحطة .. وفى نداء الباعة .. وفى هزّات ذيل كلب ناظر المحطة .. وفى غزل فتيان المدرسة ..و ..

وكانت هى التى أصرّت على أن تسلك الطريق الطويل المزدحم .. بعد أن كانت دائماً تفضل اختصاره بالسير بجوار سور سكة الحديد .

لم يكن بنفسها خوف من الناس .. ولم تفكر أبداً أن وراء الإيشارب الحريرى الذى تلف به رأسها وعنقها .. شيئاً يمكن أن تخبئه وتخشى أن يكشفه الناس .. وكانت تتوقف عند المحلات .. وكانت تعاكس المارة ، وتضحك بصوت مرتفع .. لقد نظرت إليها « منى » فى دهشة متسائلة :

ـــ نادية .. ماذا بك ؟! أجننت ؟!

ـــ لماذا !! لأنى أقلدك ..؟

— أكل هذا من أجل الرسالة التى تخفينها فى جيبك ؟!

— أبداً .. إنى أحس بسعادة عامة .. الربيع دائماً يدفع فى نفسى بهذا الإحساس .. كل شىء جميل يا « منى ».

— معك حق .. ما رأيك فى أن نتسلق الجبل غداً ..؟

— موافقة .

— على فكرة .. هل رددت على رسالة « جمال »..؟

— أجل .. إنه إنسان طيب جداً .. لقد رددت عليه ، وعلى عمى سليمان .. وعلى صبرى .. لقد كتبت بالأمس .ثلاث رسائل .

— ماهى أخبار صبرى !! أما زال منهمكا فى الدستور ؟!

— دستور إيه ..؟ لقد انتهى منه منذ مدة ، إنه الآن منهمك جداً ، فى بناء السد العالى .

وقهقهت « منى » قائلة :

— مرة واحدة .

— لقد قال لى إنه لا أمل لمصر بدونه .. وإنه لا رخاء لأجيالنا القادمة إلا به

— دعه أولا يحقق الرخاء .. لجيلنا الحالى .

وتوقفت « نادية » أمام محل لبيع آلات التصوير والأفلام وأخذت تنظر إلى « الفاترينة » فى تمعن .. وجذبتها « منى » قائلة :

— ياللا يا نادية .. حتى نتغدى ونلحق السينما .

واستمرت « نادية » فى مكانها تحدق فى « الفاترينة »، ثم هزت رأسها وبدت كأنها حزمت رأيها على أمر .. وقالت :

— اسمعى يا منى .. لقد قررت أن أشترى كاميرا .

— كاميرا !! ليه ..؟

— لأصورك بها .

— أنا ..؟

ـــ أجل : إنى معجبة بك جداً .

وابتسمت « منى » فى خبث وقالت :

ـــ تعنين معجبة بنفسك !؟

وضحكت « نادية » وردت قائلة :

ـــ أنا وأنت واحد .

ـــ ولكن .. ألا تنتظرين حتى ترى رأيه فىّ ! لماذا لا تفتحين الرسالة وتقرئينها !

ـــ الآن ..؟

ـــ و لم لا ؟!

ـــ لا :. هذه الرسالة لا تقرأ على عجل ، ونحن فى ضجة الطريق .. إنها تحتاج إلى خلوة ، وهدوء .

ـــ وموسيقى .. وزهور .. وسرحان .. و .. و .. أليس كذلك ..؟

ـــ طبعاً .. ليس هناك فارق بين السندوتش ، والديك الرومى . هل تستطيعين أن تأكلى الديك الرومى على قارعة الطريق ؟

ـــ طبعاً .. إذا وضعته فى ساندوتش .

ـــ لا .. لا .. أنا أحب أن آكله على المائدة ، وحدى .

ـــ الظاهر . أن بك اليوم لوثة !

ـــ يجوز .. هيا بنا نشترى « الكاميرا » . قبل أن أفيق .

ـــ والنقود ؟!

ـــ سأشتريها بثمن الراديو .

ـــ والراديو ..؟

ـــ يحلها ربنا بعدين .. إننا نستطيع أن نسمعه عند « جابى » .. لقد استطعت أن أسمع محطة مصر أول أمس .

ـــ حقيقة ؟!

ــ لقد سمعت محطة تذيع .. أسطوانة جبل التوباد .. أعتقد أنها محطة مصر .

ــ ولماذا لم تنصتى حتى النهاية .

ــ السخيف « تونى » أدار المؤشر .. هيا بنا نشترى الكاميرا .

وبعد دقائق .. خرجت نادية من المحل والكاميرا فى يدها وقد وضع فيها فيلم .

وقالت « نادية » فى لهجة منذرة :

ــ خذى بالك من نفسك جيداً .. أنت تعرفين .. من تمثلين بصورتك .. لا أريد .. مرقعة .

ــ والله سأفضحك .. لن أصوّر إلا بالمايوه .

وفى تلك الليلة جلست « نادية » تستعيد قراءة رسالة مدحت . كانت للمرة العاشرة .. تعوَد إلى قراءتها فى نفس اليوم .

ثمة شيء .. أو أشياء .. فى هذه الرسالة ، يدفع فى نفسها خليطاً مضطرباً من المشاعر .

لأول مرة .. تحس أن روابط الأوهام .. قد تجسدت وأضحت شيئاً صلباً .. يمكن أن يبرز فى حيز الحقائق .

لقد بدت لها أوهامها .. كأنها أبخرة تكثفت .. لتصبح قطرات .. والقطرات قد تجمدت لتصبح شيئاً صلباً ملموساً .

وكانت سعيدة بذلك .

سعيدة جداً .

فمجرد الإحساس ، بأن « مدحت ».. طيف الأوهام .. وفارس الأحلام .. قد أضحى مخلوقاً حياً .. تشدّها وإياه ، روابط كتلك التى تشد المخلوقات الحية .

مجرد هذا الإحساس ــ بصرف النظر عما يمكن أن يؤدى إليه من نتائج ــ يدفع فى نفسها فرحة البعث ، ونشوة الحياة .. وكأنها مخلوق ولد ، ليواجه النور .. والهواء .. والشمس ..

ومع هذا الإحساس بالبعث .. وبالأوهام ، التى أضحت حقائق .. يداخلها شعور بالحذر ، والقلق .. والخوف .

الخوف .. من أثر الخديعة ، فى هذا البعث .

أيمكن أن تكون الصورة .. المخادعة ، سبباً فى تحقيق كل هذا ؟! لا ..لا .

إن أحاسيسه واضحة جلية فى كل رسائله ، قبل أن يرى الصورة .

فى دعواته الحارة .. وفى خوفه عليها ، وفى رقته نحوها ، فى كل حرف من رسائله كانت تحس ، بخفقة .. ونبضة .

لم تكن المسألة ، أبداً .. مسألة صورة ، بدليل أنه قال لها « أنت عندى أجمل وأسمى من مجرد صورة ».

ولا تكاد تدفع بالطمأنينة فى نفسها حتى يعود إحساس القلق والحذر والخشية ليهاجمها فى عنف ويعيد على أسماعها قوله فى الرسالة :

« الواقع أنك أجمل كثيراً .. مما كنت أتصوّر .

« إنك رائعة ، بأنفك .. وعنقك وشعرك . »

ولم تحتمل هجوم الصوت الحذر القلق ، وهزت رأسها فى ضيق وعنف .. كأنها تحاول طرده .

إنه قال ذلك مجاملا .. وحتى لو لم يكن مجاملا .. وكان ذلك رأيه الحقيقى .. فأى خوف فى ذلك ؟.

أترى قوله سيختلف لو أنها أرسلت صورتها هى ؟ إن لها نفس الأنف ونفس العينين ونفس الشعر !!

ألم يقل المصوّر بنفسه ذلك .. وأنه يستطيع أن يصوّر إحداهما .. ويخرج من الصور كمية مضاعفة تصلح للاثنتين !

هل لو صوّرت هى .. كانت صورتها تختلف عن هذه ؟ وهل كان قوله .. سيختلف عما قال ؟

لماذا إذن لم تصوّر ؟

هل كانت تستطيع ؟

والإيشارب ، والعنق ، والحريق ..و ..أف .. لكل هذا !!

إن رأسها يوشك أن ينفجر .. ولكن ما قيمة الصورة ، وهو يقول لها « إنك أجمل وأسمى من الصورة » ؟

أحقاً .. يعنى ذلك !!

أحقاً .. قد باتت شيئاً هاماً فى نفسه ؟!

وهب أنها قد باتت كذلك .. فماذا تريد ؟!

إلى أى نتيجة تريد أن تصل ؟. هل تجسر على لقائه ؟!

بشكلها هذا ؟

بالإيشارب !. أم بالعنق المحروق ؟!

ولكن لماذا تفكر فى هذا ؟

لماذا لا تستمتع .. بما حققته من نجاح ؟

إنها قد باتت تعنى لديه شيئاً .. أو على وجه أدق .. وأصرح .. إنه يحبها

فلماذا لا تستمتع بذلك ؟

أجل .. أجل ..

إنه يحبها .. يحبها .

ودفنت رأسها فى الوسادة .. وتركت جسدها ينتفض فى الفراش ، ودموعها تغرق غطاء الوسادة .

(٣٣)

فك قيد ..!!

غربت شمس ١٨ يونية ١٩٥٦ لتبعث فى مغربها بأضواء باهرة .. تشع فى قلوب المصريين .. فقد أفلت مع شمس ذلك اليوم شمس الاستعمار التى اصطلى المصريون سعيرها سبعين عاماً ، وانزاح عن مصر كابوس المستعمر الذى أثقل كاهلها وأنقض ظهرها .. وبدت مصر فى تلك الليلة وهى أشرق ما تكون ضياء .. وأبهى نوراً ، وكأن قطرات الدم والعرق التى بذلتها الأجيال المكافحة فى سبيل الحرية والكرامة .. قد صيغت فى حبات من النور تكلل جبين مصر الحرة المكافحة الناهضة .

وبدا الازدحام فى شارع « الزمالك » وقتذاك على أشده ، وتكدست العربات فى الطريق .. حتى كادت حركة المرور تشل .. وبدا « نادى الضباط » وقد غمرته الأضواء الكاشفة ، واحتشد به المدعوون من جميع طبقات الشعب الذين دعاهم رئيس الجمهورية .. لحفل أقيم ابتهاجاً بعيد الجلاء .

وامتدت الحديقة المواجهة لبناء النادى بعد أن أزيل بناء الاتحاد المصرى الإنجليزى الذى كان يجاور النادى ، ورصت آلاف المقاعد أمام المسرح المكشوف القائم فى نهاية الحديقة والذى يحجب وراء أستاره فرق الموسيقى والغناء .. والمجموعات القائمة بالاحتفال .

اتخذ المدعوون أماكنهم فى الحديقة ، وفى ركن على اليسار جلس مدحت وجاد الله بين أساتذة الجامعة ومدرسيها ، ومد جاد الله ساقيه وفرك كفيه وتجشأ ، ثم ضرب بكفه على بطنه قائلا :

— عشوة دسمة .

وأجاب مدحت :

ـــ لقد كنت تأكل .. كأنك تأكل فى آخر زادك .

ـــ ولِمَ لا .. إن لم آكل فى يوم جلاء الإنجليز .. فمتى آكل ؟!

ـــ كأنك أنت الذى أجليتهم ؟!

ـــ وهل لديك شك فى ذلك . ألم أشترك فى مظاهرات ١٩٣٥ .

ـــ أبهذا أجليتهم ؟!

ـــ وأبى اشترك فى ثورة ١٩ .

ـــ معقول !

ـــ وجدى كان فى جيش عرابى .

ـــ أصيل .. مجاهد أباً عن جد .

ـــ أتسخر ؟. ألم تسمع « جمال عبد الناصر » وهو يقول اليوم فى الإذاعة « إن جيلنا لم يصنع ذلك وحده . وإن أجيال شعبنا كانت تكافح وتناضل ، وإن الشهداء كانوا يسقطون على الأرض وبجوارهم أعلامهم مضرجة بالدماء ولكنهم لا يستسلمون أبداً ، وأن قوى المقاومة فينا ظلت تخفق وتنبض » .

ونظر مدحت إلى جاد الله فى دهشة ، وتساءل :

ـــ جاد الله !! ماذا حلّ بك ؟!

ـــ لمه !

ـــ أحقاً بت تؤمن بما تقول ؟!

ـــ ولِمَ لا !!

ـــ إنه كلام « جمال عبد الناصر» ؟

ـــ أعرف هذا .

ـــ ولكنك كنت تسخر من اتفاقية الجلاء !

ـــ يجوز .

— وكنت تقول إنها إحدى مناورات الإنجليز التى تعوّدوا أن يخدرونا بها منذ سبعين عاماً .

— أنا قلت هذا ؟

— ألا تذكر ونحن فى حجرة النواب فى المستشفى !

— ربما .. قلت .

— وقلت إنهم ضحكوا على جمال !

وزغد جادالله مدحت فى فخذه ، وقال زاجرا :

— اخفض صوتك يا غبى .

وابتسم مدحت وأردف هامساً :

— وقلت إنهم لن يجلوا .

— وبعدين !!

— ماذا حدث الآن حتى بت تحفظ كلام « جمال عبد الناصر » ؟!

— ماذا حدث ؟!

— أجل .. ماذا حدث .. حتى غيرت رأيك فيه ؟!

— أيها الغبى .. وماذا تريد أن يحدث أكثر من هذا .. لقد حدث الشيء الذى كان يبدو لى أنه لا يحدث أبداً .. لقد جلوا .. انكشحوا .. لقد باتت كلمة الجلاء التى كنا نرددها بلا وعى حقيقة واقعة.. لقد اتضح لى أنه هو الذى ضحك عليهم.. لقد شيعهم اليوم فى بورسعيد وكاد «يخرج لهم لسانه» ساخراً.

وفى الناحية الأخرى كانت هناك تتمة للحديث بين اثنين آخرين .. عصام ، وقد جلس فى ركن الضباط وبجواره صبرى وقد أخذ ينصت إليه فى لهفة وشغف متسائلا :

— وبعدين .. ماذا حدث ؟! صف لى كل شىء .. كم وددت أن أكون هناك .

— كنا نقف فى السرادق الكبير الذى أقيم فى مبنى البحرية ، كانت نسمات البحر تهب علينا عليلة رطبة .. كان السرادق مزدحماً .. وكانت الفرحة تفعم قلوبنا جميعاً . كنا نضحك ملء صدورنا .. لم نكن فى احتفال رسمى ، وإنما كنا فى عرس .. كانت مدينة بورسعيد تبدو كالصبى فى يوم عيد .. يعدو بالزمارة والبالون ، ويرقص ويغنى .. كانت المدينة كلها تضحك وتمرح ، كأنما أزالت عن نفسها كابوساً .. أو رفعت غمة ، وكان الناس يتبادلون التهانى على غير معرفة .. كان بنفوسهم إحساس الأهل .. وقد تخلصوا من غريب ثقيل ، وانطلقوا يمرحون بلا كلفة ولا خشية .. وكانت القطع البحرية قد اصطفت أمام منصة « الرئيس » وقد بدت هى والسفن الراسية فى الميناء مزدانة بالأعلام الملونة مكللة بالزهور .. كأنها فى سامر أو فى « زفة » .

وتساءل صبرى فى لهفة :

— وأين كان جمال ؟! .

— كان يجلس فى المنصة .

— وكيف كان يبدو ؟!

— كان يبتسم .. ولكنى كنت أحس وراء ابتسامته شيئاً من الرهبة .. رهبة الإحساس بجلال الموقف وضخامة العمل .. رهبة الشاب الصغير الذى كان يعدو منذ خمسة وعشرين عاماً وسط الطلبة فى ميدان « المنشية » ليهتف وسط المظاهرات بالحرية والاستقلال ، وينادى بجلاء الإنجليز عن بلاده ، والذى كان يرى مواطنيه من حوله يسقطون صرعى برصاص المحتل وعلى شفاههم نداءات الحرية التى توارثها المصريون جيلا عن جيل .. مع إرث الاحتلال والذل والعبودية .. كنت أبصر فى ملامحه وراء الابتسامة المشرقة ، رهبة الشاب الصغير الذى أمضى عمره يحلم بحرية وطنه .. ويهتف مع مواطنيه با ستقلاله ، يرى نفسه ، وقد تحققت بواسطته أحلام مواطنيه ، وتجمعت فى يديه قوى الشهداء والمكافحين منذ سبعين عاماً .. لتدفع فلول المحتل الغريب وتفلت أعناق

الوطن من أيديه ، وتزيح عن صدره كابوسه . وبقدر ما كنت أحس بفرحة الناس .. كنت أحس برهبته ، وعندما نهض .. ليرفع العلم على السارية .. كنت أحس بمدى انفعاله الذى تخفيه ابتسامته المشرقة ، وخطواته الثابتة ، وهامته المرفوعة .

ـــ وكيف رفع العلم ؟!

ـــ حمله مطوياً بين كفيه .. وبخضرته نضرة وإيناع ، وبياض هلاله .. نور وإشراق .. وكأنه قطعة من الحياة الخضراء اليانعة .. والنور الأبيض الناصع ، وانحنى « جمال » على قطعة الحياة والسلام والنور وقبّلها .. وفى عينيه اغروراقة .. وفى قسماته اختلاج ورجفة .. ثم رفعه بيده ، ونظر إليه ، وهو يعلو ويرفرف .. وضج الناس بالهتاف . وأحسست أن الأرض تهتز تحت قدمى من فرط حماسهم .. وخيل إلىّ أن « جمال » لم يرفع علماً .. وإنما فك قيدا ، وحطم قضباناً ، وأطلق العنان لوطن حبيس .

وصمت عصام .. وبدا عليه كمن يغالب انفعالا .. وهز رأسه وبدا كأنما يحدث نفسه :

ـــ كانت لحظة عجيبة . .

وتساءل صبرى فى لهفة :

ـــ وماذا قال جمال ؟!

ـــ لم يتحدث كثيراً .. لقد قال : « إن هذه اللحظة هى لحظة العمر .. بل هى العمر كله .. لحظة كافح من أجلها الآباء والأجداد .. وراحوا قبل أن ينعموا برؤيتها » .

وصمت عصام وعاد صبرى يستحثه قائلا :

ـــ أهذا كل ما قال ؟!

ـــ لست أذكر أكثر من هذا .. لقد رفع عينيه إلى العلم المرفرف ، وقال ، وكأنه يبتهل إلى الله : عسى ألا يرفرف على هذا الوطن وعلى هذه الأرض ، سوى

هذا العلم .

وبدا التأثر على ملامح صبرى ومد يده يتشاغل بمسح منظاره السميك ، وهو يقول :

— وددت لو فقدت نصف عمرى لكى أشاهد تلك اللحظة .. لقد سبق أن ذهبت إلى بورسعيد .. ذات صيف . وكان الإنجليز ما زالوا هناك .

— أنا أيضاً ذهبت إليها .. بضع مرات ، ولكنى أحسست بها اليوم شيئاً آخر .. ربما لم يكن هناك شيء عادى قد تغير بها ، ولكن إحساس الحرية ونشوة الاستقلال .. قد خلع عليها رداء عجيباً .. أظهرها كأنها .. عروس تزف ، وملأ ربوعها .. بالفرحة والبهجة والحب والسلام .

— ليتك دعوتنى

— كيف أدعوك .. لقد كنت فى طابور .

وصمت صبرى وهز رأسه قائلا :

— على أية حال ، سأدعوك أنا إليها .. بعد اثنى عشر عاماً لنحتفل بعيد جديد .

— عيد جديد ؟!

— أجل .. ما زال هناك فى القنال .. مزيد من الأعياد .

— لا أفهم ما تعنى ؟!

— عندما ينتهى عقد امتياز القناة .. وتجلو عنها الشركة الفرنسية ، وتصبح القناة لنا .

ورفع عصام كتفيه قائلا فى غير مبالاة :

— إنها لنا الآن .

— أنت عبيط .. ليس لنا فيها غير حثالة كأس .. لقد قرأت عنها كتاباً فى الصيف الماضى .. فذهلت .

— لم ؟!

— لقد بدت لى كدولة داخل الدولة .. كضرع حلوب .. نلقى بها للغير .. ليَلْتهم خيره ، ويمن علينا ببضع قطرات ..

— على أية حال .. مصيرها لنا .. متى قلت لى إن الامتياز سينتهى ؟!

— بعد اثنى عشر عاماً .. سنة ١٩٦٨ .

— هانت .

— إذا لم يتلاعب المستعمرون .

— أى مستعمرين ؟ لقد انتهينا من الاستعمار . يا أستاذ .. أنسيت بماذا نحتفل الآن !!

— لقد انتهينا من عدة جولات ، ولكن هل تظن أننا انتهينا من الجولة الأخيرة !!

— أى جولات تعنى !! إنها معركة كبرى خضناها معه وقد كسبناها بعد صراع سبعين عاماً .

— اسمع يا عصام .. إنك ما زلت غشيما فى السياسة .. سأشرح لك الجولات التى خضناها مع المستعمر .. لقد كسبنا المعركة الأولى التى استمر الصراع فيها بيننا وبينه — كما قلت — سبعين عاماً ، وانتهت بتسليمه بالجلاء .. ولكنه لم يسلم به ، وهو يضمر الانسحاب فعلا ، وإنما كان يعد لجولة جديدة .

— ماذا تعنى ؟!

— أعنى جولة الأحلاف .. إنه لم يكد ينتهى من التسليم بالجلاء حتى رد إلينا الكرة .. فى صورة حلف بغداد .. فأعدناها إليه ، ورفضنا الحلف .

وضحك عصام وتساءل فى شىء من السخرية :

— وماذا فعل هو أيها السياسى المحنك ؟!

— أعادها إلينا مرة أخرى .. فى صورة الضغط .. ومنع السلاح .

وعاد عصام يضحك قائلا :

— الكرة الآن فى أقدامنا ؟!

ـ أجل .. الكرة مع جمال .

ـ جمال شاط ؟

ـ شوطة جامدة .. فى مؤتمر باندونج .. استقرت فى المرمى محققة هدف الحياد الإيجابى والتعايش السلمى .

وازدادت ضحكة عصام وقال :

ـ الكرة الآن مع المستعمر ؟

ـ باصاها لإسرائيل .. إسرائيل شاطت فى الصبحة .

ـ خسارة .

ـ ولا خسارة ولا حاجة .. « جمال » خد الكرة .. جمال طلع بيها .. جمال شاط .. حتت دين شوطة .. رجت الملعب كله بصفقة الأسلحة .

ـ وبعدين ؟!

ـ الكرة مع المستعمر .. المستعمر جرى بيها .. المستعمر شاط ، وحلف ما يشترى القطن منا .

ـ خسارة .

ـ بالعكس .. « جمال » خد الكرة وحدفها مع القطن للصين الشعبية ، ومعاها اعتراف بالصين الشعبية ، والبقية تأتى .

وقهقه عصام قائلا :

ـ خسارتك فى الطب .. كان يجب أن تكون مذيعاً فى الكرة .

ـ الكرة السياسية فقط .

ـ إذن خد بالك جيداً .. حتى تصف لى أولا بأول .. لأنه ليس لى جلد على متابعتها .

ـ يعطى الحلق للى بلا ودان .

ـ أى حلق تحسدنى عليه ؟

ـ وجودك فى الجيش .. وسط الدبابات ستالين .ومشاهدتك للجلاء

اليوم .

ــ أما زلت تحسدنى على حفلة اليوم ؟!

ــ طبعاً .. لو شاهدتها لا ستطعت على الأقل أن أصفها لنادية .

ــ ولماذا لا تصفها لها كما وصفتها لك أنا .

ــ سأحاول .. ولكنى أكره دائماً أن أكون مجرد ناقل .. إنى أحب أن أشارك فى شىء .. هل تصدق أن الشىء الوحيد الذى يضايقنى فى احتفال الجلاء اليوم .. هو إحساسى بأنهم جلوا فى سكوت .

ــ يا أخى احمد ربنا .

ــ الحمد لله .. ولكنى كنت أود أن أشاهد جلاءهم على الأقل لأضرب واحداً منهم « شلوتاً » .

ــ لكى يضربك رصاصة ؟!!

ــ سأضربه مثلها .. ماذا تظننى .. عاجزاً عن ضرب النار !! لقد ضربت فى التدريب العسكرى .

ــ مفهوم .. مفهوم .. على أية حال .. ربنا رحم الإنجليز منك .. لقد نجوا بجلدهم .

ونظر عصام فى ساعته فى قلق ثم تساءل :

ــ لقد بلغت التاسعة والنصف .. متى ينوون البدء .

وسمعت ضجة من الخلف والتفت صبرى ثم بدا عليه الحماس واللهفة ووقف قائلا :

ــ لقد أقبل جمال .. سأرقبه جيداً حتى أستطيع وصفه لنادية ، وأنا أتخيله يرفع العلم .

وضحك عصام وقال :

ــ أخشى من طول ما تكتب عنه فى رسائلك .. أن تحبه نادية ، وتتركك !!

وبدا الوجوم على وجه صبرى ثم انبطت أساريره .. وأجاب قائلا :

— إنها لن تتركنى من أجله . إنها تحبه كما أحبه . وعلى أية حال ، لا داعى لأن أخاف أن تتركنى .. لأنها لم تأخذنى بعد .

— ولن تأخذك أبداً .. ما دمت تأبى أن تفتح فمك بكلمة حب .

— كلمة حب .. إنها لا تعطينى الفرصة .. إن طريقتها فى الكتابة آلية، كطريقتها فى الحديث .. تكبل فمى ، وتقتل ألفاظ الحب على شفتى .

وعبر « جمال » ومرافقوه الممر وسط ضجيج التصفيق ، وحماس الهتاف . واستقر فى صف المقاعد المواجه للمسرح وسط السفراء والوزراء، وبعد لحظات اعتلى المسرح .. وبدأ فى تسليم الأوسمة لأعضاء مجلس قيادة الثورة ، وسط الهتاف المدوى .

وانتهى تسليم الأوسمة ، وعاد الرئيس مكانه . وأطفئت أنوار الحديقة ، وسلطت الأضواء على المسرح ، وبدأ النشيد الافتتاحى ، وتوالى على المسرح نجوم السينما يحملون الأعلام ، ووقف « عبد الوهاب » بين نجوم الموسيقى ينشدون : « قولوا لمصر تغنى معايا فى عيد تحريرها ، تم النصر وصبحت حرة بإيد أحرارها» .

وخلال النشيد والناس يرددون فقراته فى حماس وفرحة . التفت جادالله إلى جواره ليرى مدحت محنيا إلى الأمام وقد وضع يده على بطنه وبدت على وجهه علامات الألم . وبدت الدهشة والقلق على وجه جادالله وهمس به :

— إيه يا مدحت !! مالك !

وهز مدحت رأسه قائلا :

— لا شىء .

— ما بك حقيقة ؟

— أبداً .. مغص كالمعتاد .

— ولكنك لم تتناول العشاء !

— ربما من أثر الغداء .

ــ هل أكلت شيئاً غير عادى ؟!
ــ ربما .. لقد أكلت قطعة كنافة .
ــ لا بد أنها هى التى أتعبت معدتك .. كان يجب عليك أن تحاسب .
ــ أحاسب أكثر من هذا !! لقد ضقت بها ذرعاً . إنى أشك أن بها قرحة .
ــ لم أر أجهل منك بالطب .. لست أدرى كيف يسمحون لك بهذه العمليات التى تقوم بها . أكلما أصابك هذا المغص .. اتهمت معدتك بالقرحة؟!
ــ أنا أدرى بنفسى .
ــ بل أنت أجهل بنفسك .. أنت وسواس كبير .. أتذكر عندما قمت بعمل أشعة منذ عامين ، واتضح أن معدتك ليس بها شىء ؟!
ــ الأشعة كلام فارغ .
ــ أتذكر ما قاله لك الدكتور سليمان من أن معدتك ليس بها قرحة ؟!..
ــ الدكتور سليمان لم يكن على حق .
ــ إذا ماهى أعراض القرحة التى عندك ؟! هل نزفت من معدتك دماً ؟!
ــ يا غبى .. أتظن ذلك من ضرورات القرحة ؟!
ــ أعتقد أن ذلك من أول مظاهرها .
ــ أبداً .. كلام فارغ
ــ إذا كنت واثقاً أن عندك قرحة .. فلماذا ...
ــ أنا لست واثقاً .. إن عندى شكا فقط .
ــ وما العمل إذن ؟!
ــ إنى أفكر فى السفر إلى إنجلترا لأعرض نفسى على الدكتور « تنر » .
ــ تنر ؟!
ــ أجل .. لقد قابلته هنا فى العام الماضى ، وهو نفسه الذى اقترح علىّ زيارته .
ــ ولكنك لم تخبرنى وقتذاك ؟!

— لأنى لم آخذ دعوته على محل الجد .

— والآن ؟!

— أفكر فيها جدّياً .

— من أجل قطعة الكناقة التى أتعبتك ؟!

— من أجل معدتى أولا ، ومن أجل رغبتى فى أن أسافر إلى أوروبا هذا الصيف .. لأنى فى حاجة قصوى للراحة

— من هذه الناحية معك حق .. وإن كنت أعتقد أن إجازة فى الإسكندرية أو بورسعيد كافية جداً .. وإلا أول ما تشطح تنطح .

— الإجازة فى الإسكندرية كعدمها .. لأنهم يستطيعون إعادتى إلى المستشفى ، بتليفون أو تلغراف .

— إذن اذهب إلى مرسى مطروح أو بورسعيد .

— محصل بعضه .. سيعيدوننى بنفس السرعة .

وكانت فرقة « الريحانى » قد اعتلت المسرح .. ووقفت « مارى منيب » تمثل دور « الداية » التى تنتظر المولود .

ونظر مدحت إلى المسرح نظرة من لا يفهم شيئاً مما يجرى ونفخ فى ملل قائلا :

— اسمع يا جادالله .. ما رأيك فى الانصراف قبل أن يزدحم الطريق ويتعذر علينا العودة ؟!

— انتظر على الأقل حتى ينتهى فصل الريحانى .

وبعد لحظات كان الفصل قد انتهى .

وكان « مدحت » يتسلل بين الصفوف متخذاً طريقه إلى خارج النادى .. ووصل إلى عربته التى تركها فى شارع فرعى بجوار النادى .. ثم سار يشق طريقه بين المنادين والسائقين حتى وصل إلى شارع « الزمالك » .. وكان المفروض أن يتجه يسرة إلى كوبرى أبى العلاء .. ولكنه اتجه يمنة ثم دلف فى شارع شجرة الدر متجها إلى طريق النيل خلف نادى الجزيرة وقال جادالله :

ـــ لماذا لففت هذه اللفة ؟

ـــ لأنى أفضل هذا الطريق .

ـــ لمه ؟ .

ـــ لأنى أحب أشجاره المتعانقة .. المكللة بالزهور الحمر ، وأحب منظر النيل على حافته .

وضحك جادالله قائلا :

ـــ ما شاء الله .. لقد أصبحت شاعراً .. هذا شيء جد عليك . منذ بدأت تكتب الرسائل إلى « جاب »

ـــ لا تكن سخيفاً .

ـــ أشياء كثيرة .. تغيرت فيك .. لقد بت مخلوقاً مهذباً .. لو كنت أعلم هذا لسلطتها عليك منذ مدة.. على فكرة.. ما أخبارها؟!

ـــ بخير .

ـــ ألا تنوى المجيء إلى هنا ؟!

ـــ لا أظن .

ـــ أتنويان إذن الاستمرار على رسائلكما الولهى .. دون أن يفكر أحدكما فى رؤية الآخر ؟!

ـــ كف عن قولك رسائلنا الولهى ، وإلا ضربتك .

ـــ لا تزعل ، أقصد رسائلكما .. العلمية .. الاقتصادية .

ـــ لا تسخر .

ـــ ماذا أقول إذن .. المهم . أليس لديكما مشروع للقاء ؟

ـــ حتى الآن .. لا .

ـــ ومستقبلا ؟!

ـــ من يدرى .

ـــ ألاتدرى أنت ؟!

— ربما استطعت أن أراها وأنا فى طريقى .. إلى لندن.

وهنا انفجرِ جادالله مقهقهاً وصاح به :

— يا ابن الإيه . أتسرح بى كل هذه السرحة ، وأنا كالحمار لا أدرى شيئاً .

— تدرى شيئاً عن ماذا ؟

— تدعى أن بمعدتك قرحة ، وأن الدكتور « تنر » دعاك لزيارته ، وأنك تريد السفر إلى لندن .. وأنا أصدقك كالأبله !

— ولماذا لا تصدقنى ؟!

— لأن هناك شيئاً أهم من هذا كله يهيىء لك السفر .

— أولا أنا لم أجزم بعد بالسفر ، وثانياً .. إذا سافرت سأسافر من أجل معدتى .

— مفهوم .. مفهوم ، وبالصدفة .. ستمر فى طريقك « بجبال الألب » ولن يكون من الذوق أن تمر هناك دون أن تسأل عنها .. أليست هذه هى خطتك ؟!

— أنت سخيف .

— سخيف لأنى كشفت نواياك ؟

— قلت لك إنى سأسافر من أجل معدتى .

— ستسافر إلى لندن ؟

— أجلَ .

— بالطائِرة !

— ولِمَ بالطائرة ؟

— لأن الناس كلهم يسافرون الآن بالطائرة .

— قد أسافر بالطائرة ، وقد أسافر بالباخرة إذا كان لدىّ وقت .

— وسيكون بالطبع لديك وقت ، وستنزل فى مرسيليا ، ثم تمضى بعض الوقت فى فرنسا .. أليس كذلك ؟

— ربما .

ـــ بل مؤكد .. قل الحق !!

ولم يجب مدحت .. كان يشرد ببصره من خارج العربة ، وقد بدت الأرض تلمع أمامه ، وأخذت مصابيح الطريق تتواتر على وجهه ، وفروع البانسيانس المكللة بالأزهار الحمر تتكاثف فى مظلة تمتد طوال الطريق .

والسكون سائد ، ونسمات الليل تهب رطبة من نافذة العربة ، وأخذ يفكر فى كل ما قاله جادالله .

إن فكرة السفر قد أخذت تقوى فى ذهنه ، وأخذت معالمها تتضح ، وسماتها تتأكد .

وكانت معدته .. هى العذر الواضح للسفر .

العذر الذى يطوى فى باطنه كل العلل والاتهامات التى قالها صاحبه .

---

(٣٤)

تفكير فى زيارة !

فى صباح أحد الآحاد .. جلست « نادية » على مقعد فى الحديقة وقد أمسكت رسالة مدحت الأخيرة بين أصابعها وبدا عليها الشرود

وأقبلت « منى » من الباب الخارجى تصيح بنادية :

ــ نادية .. هيا بنا .. سنصعد الجبل الآن .. سيمر علينا « تونى وجابى » بعربتهما وسنتناول الغداء فوق الجبل مع بقية الشلة

وهزت نادية رأسها فى ضيق وقالت :

ــ لن أصعد معكم .. إنى متعبة.

ــ قلت لك سنصعد بالعربة .. أيتها الغبية .

وعندما ما اقتربت « منى » منها هتفت :

ــ ماذ بك ؟!

وأخفت « نادية » الرسالة قائلة :

ــ لا شىء .. صداع خفيف .

ــ صداع ؟

ــ أجل .

وهزت « منى » رأسها فى دهشة متسائلة :

ــ منذ متى كان الصداع يصاحب هذه الرسائل ؟!

ورفعت « نادية » حاجبيها مدعية أنها لم تفهم ، وتساءلت قائلة :

ــ ماذا تعنين ؟!

ــ أليست هذه رسالة مدحت ؟

-- أجل .

ـــ ماذا جدث إذن ؟

ـــ لا شيء .

ـــ هل تعوّدت أن تلقى رسائل مدحت بمثل هذا الشرود والقلق والانقباض ؟

ـــ قلت لك إن بى صداعاً .

ـــ كنت أعرف أن رسائل مدحت أنجع الوسائل فى شفاء الصداع .. إنها خير بكثير من « الأسبرو » .

ـــ أتمزحين !

ـــ بل أقول جادة .. إنى أعرف تماماً مدى تأثير رسائله عليك .. لقد بعثتك من جديد .. انتشلتك من هوة اليأس ، وأحاطتك بسياج من الأمل المشرق .. لقد كنت فى أول الأمر أهزأ بها وأكره لك أن تتشبثى بخيوط واهية من الأحلام .. ولكنى بعد أن رأيت ما فعلته بك .. بت أحبها ، وأشاركك السعادة التى تغمرك بها .. فماذا حدث حتى تبعث فيك هذا الشرود والقلق ! ..

وصمتت «نادية» .. واستغرقت فى شرودها .

وعادت « منى » تسأل :

ـــ نادية لماذا لا تجيبين ؟! أرينى الرسالة !

وسمع صوت « نفير » عربة توفى يتوالى على باب الحديقة وصاحت جابى منذرة :

ـــ دقيقتين ، ثم تتحرك العربة .. ليس لدينا وقت . وجذبت منى نادية من ذراعها قائلة :

ـــ هيا يا نادية .. لن أتركك وحدك .. لقد أخذنا الجراموفون معنا وسنرقص أمام البحيرة فى حديقة بيت مسيوريتو ، وسنشوى اللحم على سيخ فوق النار .. وإذا كانت المياه دافئة سأنزل فى البحيرة . لقد أخذت المايوه . و ..

ونظر « نادية » إلى « منى » فى دهشة وقاطعتها قائلة :

— تنزلين فى البحيرة ؟!

— ولم لا ؟ إن الشمس ساطعة والجو دافىء .

— إن مياه البحر مثلجة .. إياك ، وهذه الحماقة .

ورفعت « منى » كتفيها قائلة فى لهجة المنذر :

— سأنزل إذا لم تأتى معنا .

— أتهددينني ! إنها حياتك أنت يامغفلة وليست حياتى أنا .

وقالت « منى » فى إصرار :

— إذا لم تأتى سأستحم فى البحيرة .

— استحمى .. انفلقى .

— وسأعوم ، وأجرى .. حتى أجهد ويحدث لى ما تخشيان حدوثه أنت وأمك .

ولم تتحرك « نادية » وعادت « منى » تقول :

— سأنزف دماً من صدرى .. و ...

وقاطعتها « نادية » ناهرة ، وهى تحس بغصة فى حلقها :

— ما هذا السخف الذى تقولين ! أتظنين نفسك صغيرة !

ورفعت « منى » كتفيها ، وهى تسير متجهة إلى الباب :

— أنت وشأنك .. لقد أنذرتك .

ثم أردفت تقول ضاحكة :

— إنى أحس اليوم بلهفة إلى الانتحار .

ونهضت « نادية » وهى تتبعها قائلة :

— يا دمك !! أتظنين نفسك خفيفة !

وأمسكت « منى » بيدها ، وقالت وهما فى طريقهما إلى الباب :

— لم تقولى .. ماذا ضايقك .. فى رسالة .. المحروس ؟

— ليس هذا وقته .. سأخبرك فيما بعد .

— إذن أعطيني الرسالة أقرأها .

— الآن ؟!

— ولمَ لا !

— أمام هذا الحشد الذى ينتظرنا فى العربة ؟

— إنهم لا يفهمون العربية .. وسنقول لهم إنها رسالة من عمى .

— لا .. لا .. سأريها لك عند ما نعود .

— إذن أعطيني فكرة .. حتى لا ينتابنى قلق .. طوال هذه الفترة .

— فكرة عما ذا ؟!

— عما ضايقك فى رسالة مدحت . ماذا به ؟

— إنه مريض .

— مريض بماذا ؟

— بمعدته .

— وأى جديد فى ذلك .. ألم يقل فى رسائله من قبل . إنه يأكل طعاماً مخصوصاً لأن معدته متعبة ؟

— أجل ، ولكنها لم تكن متعبة إلى هذا الحد .

— أى حد !

— إلى حد الشك فى أن بها قرحة .

— من قال له هذا ؟

— هو نفسه .

— هو يشك فى أن لديه قرحة !

— أجل .

— وماذا قال له الأطباء ؟

— لم يقولوا شيئاً .

— لماذا ؟

ــ لأنه لا يريد أن يستشير أحدهم .. لأنه يعتقد أنهم جميعاً لا يفهمون .

ــ إذا كان الأمر كذلك .. لماذا لا يقطعها .. كما يقطع معدات بقية الخلق .. الذين يوقعهم القدر تحت رحمته ، ويريح نفسه .

وبدا الانزعاج على وجه « نادية » وقالت ناهرة :

ــ ما هذا السخف الذى تقولين ؟

وضحكت « منى » وردت قائلة :

ــ وبهذا القدر تخشين عليه ، وعلى معدته ؟!

وأجابت « نادية » فى غضب :

ــ أنت تافهة .. لا يأخذ المرء منك غير « التريقة » ، والسخرية .. الحق علىّ أن قلت لك .

وربتت « منى » ظهرها فى حنان وردت :

ــ أغضبت ! إنى أضحك يا نادية .. متأسفة .

وأقبلت التوءمتان على الباب الخشبى ، وبدت العربة لهما وقد اكتظت براكبيها الذين انطلقت منهم الصيحات الهاذرة والضحكات الماجنة

وردّت الفتاتان تحيات الشلة ، وقبل أن تتخذا مكانهما فى العربة تساءلت منى :

ــ وماذا ينوى أن يفعل ؟!

ــ إنه يفكر فى الذهاب إلى لندن .

وهزت « منى » رأسها وأجابت مازحة :

ــ معقول ، ويمر علينا فى طريقه ليقضى معنا أسبوعاً .

وتمتمت « نادية » فى صوت خفيض ، وقد أطرقت وبدا عليها الشرود والقلق :

ــ إن هذا هو ما يفكر فيه فعلا

وهتفت « منى » مأخوذة :

ــ إيه ؟

وفزعت الشلة المحيطة بها فى العربة من صيحتها المأخوذة ، وصاحوا بها :

ــ ما بالك !! ماذا حدث لك ؟

ولم تجب « منى » .. بل عادت تحملق فى نادية متسائلة :

ــ يفكر فى ماذا ؟!

ــ فى المرور علينا ، وهو فى طريقه إلى لندن

وهتفت « منى » صائحة :

ــ يا نهار أبوه أسود .

وصاحت جالى بالتوءمتين .. والشلة تنظر فى دهشة إلى انفعالهما فى المناقشة دون أن تفهم معنى ما يقولان :

ــ تحدثا بالفرنسية حتى نفهم .

وأردف تونى يحتج قائلا :

ــ تحدثا بلغة متحضرة

وزغدته « منى » فى خده بطرف أصابعها صائحة بالفرنسية :

ــ متحضرة يا غبى !! إن لغتنا هى أصل الحضارة .. عندما كنتم مغرقين فى بربرية القرون الوسطى وظلامها .. كنا نقول الشعر وندرس الطب والفلسفة بالعربية .. مفهوم أم تريد أن أفهمك أكثر ؟!

وصاح تونى :

ــ بلا زغد .. لم أر فتاة أطول منك يداً .

ــ فى المرة القادمة .. سأستعمل شيئا آخر غير يدى .. إياك والتحدث بسوء عن المصريين أو العرب .. ألاتعرف من أنا ؟!

وهز تونى رأسه وقال فى استسلام :

ــ كنت أحب ألا أعرف .

والتفتت « منى » إلى « نادية » وقد عاودت تساؤلها المأخوذ بالعربية :

ـــ قولى لى .. أحقاً ينوى هذا الحمار المجىء إلى هنا ؟!

ورفعت نادية كتفيها مجيبة فى شرودها القلق المنزعج :

ـــ إنه يفكر فى هذا .

ـــ إنه مجنون . يجب أن تمنعيه من التفكير فى هذا بتاتاً .

وقالت « نادية » كأنما تحدث نفسها :

ـــ لم يخطر ببالى قط .. أن هذا شىء يمكن أن يحدث .. أبداً .. أبداً .

ـــ لعله مجرد كلام .. إنه لا شك لا يعنى هذا .. غير معقول أن يذهب إلى لندن لمجرد أن معدته لا تهضم « الكنافة » و « الفتة بالثوم » .. إن المفروض ألا تهضم المعدات الآدمية ، هذه المفجرات ، وثلاثة أرباع المصريين معداتهم ليست خيراً من معدة .. « سى مدحت » .

وهزت « نادية » رأسها فى حزن وأجابت :

ـــ لا .. لا .. إنه دائماً يشكو من معدته .

ـــ صحيح أنه يشكو من معدته .. أهذا يدعو .. لأن يترك عمله وعيادته ومرضاه ويطير إلى لندن ؟

وصمتت « منى » برهة ثم أردفت قائلة كأنما تعدد فى مناحة :

ـــ وليته كان سيطير ! .. لهان الأمر وزال الخطر .. ولكنه بسلامته .. سيتسكع بمعدته المقروحة .. فى البحار وسكة الحديد ، ويصعد قمم الألب .. لمجرد المرور عليك .

ولم تجب « نادية » . كانت المشاعر والانفعالات تصطخب فى نفسها .. مشاعر متناقضة ، وانفعالات متضادة متباينة .

أيمكن أن يحس لها بما يدفعه إلى هذا ؟!

إنه يقول هذا فى رسالته .

ولكن ألا يمكن أن يكون مجرد كلام .. كما قالت منى !

ربما .. ولكنه أيضاً يمكن أن يكون حقيقة .

هل كانت تتصور فى يوم من الأيام .. أن يشعر لها « مدحت » بما يدفعه إلى زيارتها فى قمم الألب ؟!

ولكن هل يزورها .. هى ؟!

هل هى .. نادية .. بشخصها ، ودمها ، ولحمها .. التى يحس لها من المشاعر .. ما يدفعه إلى التفكير فى زيارتها ؟!

أم هى صاحبة الصور التى تعوّدت أن ترسلها له فى كل رسالة ؟

أهى نادية ــ صاحبة الرسائل ــ المقصودة بالزيارة ؟!

أم هى « منى » صاحبة الصور !

شىء يبعث على الحيرة والشك .

من هى المخلوقة التى يفكر « مدحت » فى زيارتها .. أهى هذه .. أم تلك .. أم خليط منهما معاً !!

على أية حال .. إنها قطعاً .. ليست « نادية » بكل تفاصيلها .. ليست « نادية » مائة فى المائة .

إنها جزء من « نادية » .. تضاف إليها أجزاء أخرى من صور « منى » ومن صنع أو هامه هو .

ومع ذلك ، ورغم أنها تعرف أن الصورة التى فى ذهنه ، والتى يحس لها ما يدفعه إلى التفكير فى زيارتها .. ليست صورتها هى .. فإن شيئاً ما فى باطنها .. قد يكون رغبتها فى الأمل والمقاومة والحياة .. يدفعها إلى الإحساس .. بأنها هى وحدها المخلوقة المستقرة فى ذهنه .. الراسبة فى نفسه .. والتى يتوق إلى رؤيتها ويفكر فى زيارتها !!

ولكن هب أنها كانت هى .. أم كان غيرها .

ما الفائدة ؟ ما دامت فى جميع الافتراضات .. عاجزة عن أن تلقاه ، لأنها لا تصلح للقاء ، كما وطدت نفسها من أول الأمر .

إنها تعجز عن لقائه .. بعنقها المشوّه .. الذى يحجبه إيشارب لا يفارق رأسها .

ثم إنها قد تكون هى صاحبة المشاعر التى يكنها لها .. وهما على البعد ، والصلة مقصورة على الرسائل والأحاسيس .

ولكن أتجسر على ادعاء ملكية هذه المشاعر .. عندما تواجهه ، وبجوارها أختها « منى » !

لا .. لا ..

إن اللقاء ، سيكون فجيعة . إن زيارته لها ، أمر مستحيل .

وأفاقت « نادية » من شرودها على صوت « منى » تقول وكأنما تتم تفكيرها من وجهة نظرها هى :

ـ غير معقول !! . غير معقول أن يجشم نفسه كل هذه المشقة .. لمجرد أن يراك !

وأحست نادية ـ رغم انزعاجها من تفكير مدحت فى زيارتها ـ بالضيق من قول منى وهمست متسائلة :

ـ ولمه ؟

ـ إنه لو فعل هذا يكون مجنوناً .. هل تتصورين أن مخلوقاً مريضاً بمعدته .. بدل أن يطير إلى لندن فى بضع ساعات .. يظل متسكعاً فى البحر أربعة أيام حتى يصل إلى مرسيليا .. ثم يظل يطوى القفار بسكة الحديد حتى « فين » ثم يترك طريقه ويصعد إلى « جاب » ثم يعود إلى « فين » مرة أخرى ، ويتجه إلى « جرينويل » .. ثم باريس .. ثم « كاليه » ويعبر المانش إلى لندن .. لماذا يركب كل هذه المصاعب .. أمن أجل أن يلقى فتاة كتبت له بضع رسائل وأرسلت له بضع صور .. أمعقول هذا ؟!

وتمتمت « نادية » فى خليط من الأسف ، والارتياح . الأسف .. لأنه ليس لديه من المشاعر ما يدفعه إلى ركوب الصعب ، من أجلها .. والارتياح .. لأنه

غير معقول أن يحضر إليها .

تمتمت « نادية » قائلة :

ــ طبعاً غير معقول .. إنه مجرد كلام .

وصمتت «منى» برهة ، ولكنها لم تلبث حتى لعب الفأر فى عبها .. وهزت رأسها قائلة :

ــ ولكن هبيه فعل ؟

نظرت إليها « نادية » متسائلة فى شرود :

ــ هه !

ــ أقول .. هبيه فعل .. إنه كما يبدو لى .. إنسان غير معقول ، فماذا يمنعه .. من أن يقدم على أشياء غير معقولة ؟

وزادت علامات الشرود فى وجه نادية .

وعادت « منى » تتساءل :

ــ ماذا نفعل .. إذا كان تفكير هذا « المجنون » جاداً ، وإذا نوى فعلا أن يزورك !

وردت « نادية » قولها كالمأخوذة :

ــ ماذا نفعل !

ــ أجل ماذا نفعل .. ديرينا .. أنت السبب فى كل هذا !

وصمتت «منى» برهة ثم أردفت قائلة بعد تفكير :

ــ لو أنك لم ترسلى له صورى .. لكان الأمر أسهل من هذا .

ــ كيف !!

ــ كان يمكنك أن تلقيه .

وبدا الخوف على « نادية » وأجابت :

ــ أهذا معقول !! كيف ألقاه ؟

ــ وأنت مرتدية الإيشارب .. إنه لن يمكث إلا يوماً ، أو يومين .. ثم

ينصرف إلى غير رجعة .

وتساءلت « نادية » بلا إرادة :

ـــ إلى غير رجعة ؟

ـــ طبعاً .. أم تظنينه .. ينوى أن يقيم معنا .. ليقطع أزوار ومَعِدات سكان « جاب » !

وهنا التفت « تونى » إلى « منى » وهز كتفيه قائلا :

ـــ ألا تنويان أن تكفا عن المناقشة بلغتكما المتحضرة ، ماذا تقولان عن « جاب » !

والتفتت إليه « منى » قائلة :

ـــ نقول إن نصف شبانها حمير .

ـــ ولماذا لا تقولانها بالفرنسية ؟! كلنا نعرف هذا .

وكانت العربة قد وصلت إلى أعلى الجبل ،وأخذت تشق طريقها بجوار البحيرة ، وقد تهدلت الأغصان على الطريق من الجانبين .. وبدا البيت المهجور وقد ازدادت مظاهر الخراب به ، وتساقطت ضلف أبوابه .. وبدت الهوّة من ورائه وقد تكاثف بها ضباب خفيف .

وقفز الفتية والفتيات من العربة ، وانتشروا فى الحديقة المقفرة ، بعضهم يعدون الطعام ، والبعض يستمع إلى الجراموفون .

ولفت « نادية » حول البيت ، واستقر بها المقام أمام الكوخ المنعزل القائم وراءه .. والمطل على الجرف الذى تبدو المقابر فى أسفله كأنها نقط بيض .

وجلست « نادية » على المقعد الحجرى بجوار الكوخ ، وأطلقت بصرها فى الفراغ العريض الذى بدت فى آخره الغمامة البيضاء التى تعلو هام الأفق .

ومدت يدها فأخرجت الرسالة من جيبها ، وعاودت قراءتها .

وقبل أن تصل إلى نهايتها سمعت وقع أقدام خلفها ..وأبصرت « منى » تهتف بها :

— لم يخب ذكائى .. لقد توقعت .. لا بد أن تكونى هربت بالرسالة إلى هنا .

ومدت يدها قائلة :

— دعينى أقراها .

وحاولت « نادية » أن تعيد الرسالة إلى جيبها قائلة :

— بعدين عندما نعود إلى البيت .

وخطفتها « منى » من يدها قائلة :

— هاتى .. لأرى كيف يفكر المجنون .. فى زيارتنا .

وجلست « منى » على المقعد الحجرى بجوار « نادية » التى انهمكت فى قراءتها ، وأخذت « نادية » تنقل البصر بين « منى » وبين الوادى الممتد أسفل الجرف ، وأصوات الجراموفون وضجيج الشلة يأتى إليهما من وراء الدار .

وعندما انتهت من القراءة بدا عليها الشرود .. وسألتها « نادية » فى قلق قائلة :

— ما رأيك ؟!

— شىء محير .. ليس بمستبعد على هذا الأحمق .. أن يزورنا فعلا .

— وما العمل ؟!

— امنعيه .

— كيف ؟!

— اكتبى إليه ألا يحضر .

— أهذا معقول ؟!

— ولِمَ لا .. قولى له .. إنك ستسافرين فى هذا الوقت .

— إلى أين ؟!

— إلى أى مكان .. إلى جرينوبل .. إلى جنيف . اكذبى أى أكذوبة .

وصمتت « نادية » برهة مطرقة ثم قالت :

— معقول .

ثم أطلقت من صدرها تنهيدة حزينة ، ونظرت إليها « منى » بطرف عينيها ثم هزت رأسها قائلة :

ـــ عجيبة !

ـــ من ؟

ـــ الدنيا !! من كان يصدق أنك تحاولين الفرار عندما يفكر فى زيارتك !

ـــ على أية حال .. لا أظننى سأحتاج إلى الفرار .. لأنه لن يخرج تفكيره إلى حيز التنفيذ .. إنه مجرد كلام كما تقولين .

ـــ أرجو هذا .

وسمعتا من ورائهما صوتاً ينادى :

ـــ أيتها المصريتان .. مؤامرة ؟

والتفتت الفتاتان فإذا « بتونى » قد أقبل عليهما ومعه بعض الرفاق .

وأجابت « منى » قائلة :

ـــ أجل .. مؤامرة .

ـــ لأجل ؟

ـــ طردك من جاب .

ـــ معقول .. ألم تطردوا ملككم عن عرشه ؟

ـــ أجل طردناه ، لأنه كان فاسداً منحلا .

ـــ طرده ديكتاتوركم ناصر .

وتدخلت نادية قائلة فى غضب :

ـــ عبد الناصر ليس ديكتاتوراً .. أيها الغبى لقد حقق لنا كل أمانينا .. لقد منحنا العزة والحرية والكرامة .. وقد أعلن الدستور باسم الشعب ، وأجرى عليه استفتاء .. وانتخب « عبد الناصر » بأغلبية تزيد على ٩٩٪

وهمست « منى » لنادية متسائلة :

ـــ من قال لك كل هذا ؟!

وأجابتها « نادية » هامسة :

ـــ صبرى فى رسالته التى وصلتنى بالأمس .

ـــ لقد أضحت رسائله نشرات سياسية .. ألم يقل لك بعد إنه يحبك ؟!

ولم تجب « نادية » على سؤالها ، فقد شغلها عنه صياح تونى ساخراً :

ـــ كلام فارغ .. إنى أصر على أنه ديكتاتور .

وقبل أن ترد « نادية » مدت « منى » يدها وخلعت حذاءها من قدمها ورفعته منذرة تونى بقولها :

ـــ الظاهر أنى سأضطر لإسكاتك بسلاح جديد . ثم صاحت به :

ـــ تونى .. اسحب كلامك .

وأجاب تونى ضاحكا :

ـــ سحبته .. إنك تستعملين معى طريقة الديكتاتوريين العتاة .

ـــ لا ينفع معك غير هذا .

ـــ انتهينا .. لن أحدثك فى السياسة بعد ذلك .. أنت مخيفة ..

وتدخلت « جابى » قائلة :

ـــ هيا بنا .. لقد أعد الطعام .

ونهض الجميع متجهين إلى حديقة البيت على شاطىء البحيرة ، وطوت « نادية » الرسالة فى جيبها ، وذهنها ما زال شارداً فى صاحبها .. وهى تحس بحنين إليه .. إلى لقائه .. ورعايته .

وفى المساء .. عندما أوت إلى حجرتها جلست فى فراشها ممسكة بالكراسة الزرقاء لتكتب الرد لمدحت .. واختتمت ردها بالترحيب بزيارته .. وأنها لا تتمنى شيئاً قدر لقياه .. ولكنها تخشى أن يخونها الحظ لأن هناك احتمالا لسفرها مع أمها وأختها لقضاء الشهرين القادمين عند خالتهما فى « جرينوبل » .

وأحست وهى تطوى الرسالة بنوع من الأمن والطمأنينة . إنه بلا شك .. بعد هذا الاعتذار .. لن يكون هناك احتمال لأن يفكر مرة أخرى فى الزيارة .

(٣٥)

حق يسترد .. !!

مر أسبوع بعد أن أرسلت « نادية » ردها . وفى مساء ٢٦ يوليو كانت الشلة قد اجتمعت فى شرفة النادى الزجاجية حول مائدة الشاى .. بعد أن انتهوا من « التنس » .

وبدا مسيو « بيتر » كاتب المدرسة العجوز مقبلا على الشلة ، ولم يكد يبصر « منى »حتى مد يده فى جيبه هاتفاً :

ــ رسالة لك يا مدموازيل « منى » .. لقد مررت عليكم فى المنزل فقالوا لى إنك هنا .. فقلت لنفسى أشرب فنجاناً من الشاى .. وأعطيها الرسالة .

ومدت «منى » يدها تتناول الرسالة قائلة :

ــ شكراً يا مسيو « بيتر » .. لم يكن هناك داع لأن تتعب نفسك أبداً .إن رسائلى تستطيع الانتظار .

الواقع أنى لم أتعب نفسى .. فقد كان علىّ أن أمر على بيتكم لأحمل رسالة من المسيو « رينو » إلى والدتكم .. فلما أخبرتنى أنك فى النادى .. فضلت أن أمر عليك لأسلمها إليك .

ــ شكراً لمجرد التفكير فى حملها إلىّ .

ــ إنى أعرف قيمة رسائل الغريب .

وقالت جانى :

إنها لم تعد غريبة يا مسيو « بيتر » .. إنها تقيم بيننا .

وضحك « بيتر » وأجاب :

ــ مهما أقامت بيننا فإن وطنها .. هناك .. هناك .. فى بلاد الشمس الساطعة

والنهر العريض .. والأهرام الشامخة ، وأبى الهول العظيم .. إن وطنها هناك .. هناك .. فى بلد « ناصر » .

ورفع العجوز يده بالتحية وانصرف .

وأمسكت « منى » بالرسالة وقرأت الخط على الظرف ، وقالت « لنادية » التى نظرت إليها نظرة مستفسرة :

ـــ من عصام .

وفضت « منى » الظرف وأخرجت الرسالة .. وأخذت تقرءها وهى ترشف فنجان الشاى وتلتهم قطعة من الكيك .

وكانت تبدو عليها شتى الانفعالات وهى تقرأ الرسالة .. كانت تبتسم تارة .. وتتجهم أخرى ، وكانت «جانى » ترقب ملامحها فى شىء من الدهشة ، بينما أخذت « نادية » تنقل بصرها بين « منى » وهى منهمكة فى القراءة وتنظر إلى الأفق وقد أخذت الشمس تقترب منه ملقية ذيولها الحمر على أسقف الدور المنحدرة وقد بدا بناء المحطة من بعيد بشجرته الضخمة التى تكاثفت أوراقها حتى كادت تخفيه بفروعها التى تحنو عليه .

وكان « تونى » قد انحنى على الراديو الضخم الموضوع فى ركن النادى .. ينقل المؤشر من محطة إلى محطة وقد أخذ يصدر منه صفير وذبذبات منفصلة وكلمات متقطعة بشتى اللغات ، حتى استقر على محطة تصدر موسيقى صاخبة معربدة .

وصاح « تونى » فرحاً :

ـــ روك آندرول .. من أمريكا بلد العجائب .

ثم رفع ذراعيه مفتوحتين هاتفاً :

ـــ من يشاركنى الرقصة قبل أن تنتهى ؟! هيا يا منى .

وكانت «منى » قد انتهت من قراءة الرسالة وبدا عليها التجهم وهى تطويها وأجابته فى غيظ :

ـــ أوقف هذه الموسيقى الهمجية التى تصدع بها آذاننا .

وصاح « تونى » فى لهجته المرتفعة التى حاول بها أن يغلب صوت الموسيقى الصاخبة :

ــ همجية .. يا همجية ؟ .. إنها من أمريكا .

ــ ليكن .. أرحنا من سماعها .. إنى لا أريد أن أسمع شيئاً من أمريكا !

والتفتت إليها « جابى » فى دهشة وتساءلت :

ــ عجباً ! لماذا ؟

ــ لأنها سحبت قرض السد العالى .

ــ وما هو السد العالى ؟

ــ الذى نبنى آمالنا عليه .. الذى سيحفظ لنا مياه نيلنا الضائعة البحر ، ويصلح منها بضعة ملايين من الأفدنة تزرعها ونجنى ثمارها .. لكى نهيىء لأنفسنا ولأبنائنا حياة أفضل .. حياة كالتى يحيونها .. ويحياها فلاحوهم ، وعمالهم .

وأردفت « نادية » قائلة :

ــ أجل .. إنه أملنا فى أن يحيا أربعة وعشرون مليوناً كما يحيا الآدميون .. يأكلون لقمة طيبة ويشربون ماء نقياً ، ويقطنون فى مسكن نظيف .. حقيقة .. إننا نرى فيه وسيلتنا إلى حياة كريمة .

وسألت جابى :

ــ ولماذا لا تقيمونه ؟

ــ لأننا فى حاجة إلى نقود .

ــ ولِمَ لا تقترضون ؟

ــ لقد عرضت علينا أمريكا وإنجلترا قرضاً لإقامته .

ــ ولماذا لا تأخذونه ؟

وصاحت « منى » وهى تهز الرسالة فى يدها :

ــ لقد عادوا وسحبوا عرضهم .

وأجاب « تونى » وهو يحرك ساقيه على نغمة دقات الرقصة الصاخبة :

ــ هم أحرار فى نقودهم .

وأجابته « منى » صائحة :

ــ ولكنهم ليسوا أحراراً فى إهانتنا .

وتساءلت جابى :

ــ وكيف أهانوكم ؟

ــ قالوا إنهم لن يعطونا قرضاً .. لأننا فقراء .. ومفلسون .. واقتصادنا منهار .

ومدت «نادية » يدها وهى تأخذ الرسالة من « منى » وتساءلت فى دهشة :

ــ من قال لك هذا ؟

وأجابت منى :

ــ عصام .

ــ عصام كتب لك هذا ؟ لقد أصابته عدوى صبرى .

ــ لقد أصابت العدوى .. أربعة وعشرين مليوناً .. إن رسالته مليئة بالسخط على أمريكا .

وأجاب « تونى » وقد كف عن الرقص وأقبل يجلس على مقعد بجوار نادية :

ــ لأنكم شيوعيون .

وتساءلت « نادية » فى دهشة :

ــ من قال إننا شيوعيون !؟

ــ لأنكم اشتريتم أسلحتكم من روسيا .

ــ أكان علينا أن ننتظر حتى تعتدى إسرائيل بأسلحتكم ، التى أبيتموها علينا .. ولا نمد يدنا إلى الأسلحة المعروضة علينا .. لكيلا نتهم بالشيوعية ؟

ــ بل أخذتم السلاح لتقيموا إمبراطورية عربية موالية للشرق .

ــ الإمبراطورية العربية .. لن تقام أبداً بالسلاح .. ولكنها ستقام بالمشاعر الموحدة .. والمصالح المشتركة .. ولن يقيمها فرد .. ولكن ستقيمها شعوب ..

ترى بقاءها فى كيانها الموحد .. ونحن لن تكون موالين لشرق أو لغرب . إننا نحاول أن نكون كتلة محايدة .. تعمل للمحافظة على التوازن من أجل السلام .

ـــ هذه خدعة شيوعية .

ـــ بل تلك هى أغراض مؤتمر باندونج .. أغراض سليمة واضحة لا يمكن أن تشوبها الخديعة .. هل هناك خدبعة .. فى أن تكون العلاقات بين الدول قائمة على احترام حقوق الإنسان ؟

وهزت « جابى » رأسها بالنفى ، فعادت « نادية » تتساءل فى انفعال :

ـــ وهل هناك خديعة فى أن تقوم هذه العلاقات على احترام سيادة الأمم وسلامة أراضيها ؟

وعادت « جابى » تهز رأسها بالنفى ، واستمرت « نادية » فى تساؤلها :

ـــ وهل هناك خديعة فى الاعتراف بالمساواة بين جميع الأجناس وبين جميع الأمم ؟

وهزت « جابى » رأسها مرة ثالثة .. وقبل أن تعاود أسئلتها صاح بها « تونى » محاولاً إسكاتها وهو ينهض متجهاً إلى الراديو :

ـــ انتهينا .. لا تصدعى رءوسنا .. بمبادئك .. إننا لم نأت إلى هنا لسماع دروس فى السياسة والمبادىء .. من يريد أن يرقص ؟!

وقبل أن يصل إلى الراديو قفزت « منى » من مقعدها ولحقت به وهى تهتف :

ـــ دع الراديو .

ـــ لمه ؟

ـــ لأنى سأسمع القاهرة .

ـــ وماذا من المغريات يمكن أن تأتينا به القاهرة ؟!

ـــ خطبة الرئيس « جمال عبد الناصر » .

ثم التفتت إلى « نادية » متسائلة :

ـــ ألا تريدين سماعها يا نادية ؟! إن اليوم ٢٦ يوليو .. وقال لى عصام إنه

سيذهب إلى الإسكندرية هو وصبرى .. لسماعها فى ميدان المنشية .

وبدا على « نادية » الشرود .. ترى هل ينوى مدحت سماعها ؟!

إنه لم يبد قط اهتماماً بالشئون السياسية .

ـــ لم يحدثها أبداً إلا عن عملياته ومرضاه ، وطلبته ، ورياضته .

إنه يبدو كأنه يعيش فى معزل عن الأحداث التى تحيط به .

ولكنه مع ذلك قد يسمع الخطبة .

ـــ أجل .. قد يكون جالساً الآن مع صاحبه « جادلله » فى مكتبه فى المستشفى .. أو فى حجرته بالبيت .. قد انحنى على الراديو يدير مفتاحه .. إنه قد يشاركها فى الاستماع إلى نفس الصوت .. تحت نفس السماء وعلى نفس الأرض !

ولكن هل يستطيع الجهاز أن ينقل الصوت إلى هنا ؟ ولِمَ لا !!

لقد جرّبته بضع مرات .. فسمعت محطة القاهرة تارة .. وسمعت صوت العرب تارة أخرى .. ولكنها كانت فى المرات القلائل التى استطاعت أن تحصل على المحطة ، كان الصوت متقطعاً .. وكانت محطات أخرى تشوش عليه وتعلق فوقه .

على أية حال .. لِمَ لا تجرب هى و « منى » .. ليس لديهما ما يمنعهما عن الاستماع مهما طالت مدته .

ونهضت « نادية » تتبع « منى » إلى الراديو .

وكان « تونى » يصيح « بمنى » وهى تحرّك المؤشر يمنة ويسرة :

ـــ ما هذا السخف ؟!

وأدارت « منى » رأسها وهى تنحنى على الراديو .. وصاحت به فى غيظ مكبوت :

ـــ كف أنت عن هذا السخف .. وإلا جررت على نفسك الأذى .. أنت تعرف ما يمكن أن أصنع بك .

ـــ ولكنى أريد أن استمع إلى الموسيقى .

ـــ لديك « البيك آب » .. أو جهاز الأسطوانات . خذ بضعة فرنكات هبة منى .. واذهب لتسمع ما تشاء .. فقط اغرب عنا الآن .

وهز « تونى » كتفيه فى غيظ :

ـــ ولكن ما ذنب كل هؤلاء حتى تسمعيهم خطاب جمال عبد الناصر ؟!

ـــ إن أحداً منهم لم يشتك .

وهنا صاحت « جابى » تنهر « تونى » :

ـــ تونى .. دعها تسمع وكف عن مشاغبتها .. لو كنت بعيداً عن وطنك لقدرت لهفتها على سماع أى صوت من وطنها .

ـــ لو كنت بعيداً عن وطنى .. لما اشتقت أبداً إلى سماع .. بينو .. أو موليه .

وأجابت نادية ضاحكة :

ـــ لأنك لا تؤمن بهما .. أما نحن فتؤمن تماماً بجمال عبد الناصر

وهز « تونى » كتفيه ، ثم صاح فى الشلة :

ـــ من منكم يريد الرقص ؟!

ونهضت بعض « الشلة » وراءه إلى حجرة « البيك آب » ، وجلس البعض يتشاغلون بلعب الشطرنج والمناقشة .

وجرت « نادية » مقعداً بجوار الراديو ، وجلست بجوار « منى » التى انهمكت فى تحريك المؤشر ، وبعد لحظات اقتربت « جابى » بمقعدها وجلست بجوارهما .

وأخذ المؤشر يتحرك يمنة ويسرة ، « والوش » يتعالى .. « والطقطقة » تزداد .. واللغات المختلفة تتشابك ، والنغمات المتناقضة تتقاطع وتتضارب .

وهزت « منى » رأسها ، وهى منهمكة فى إدارة المؤشر وتساءلت موجهة الحديث إلى جابى ونادية :

ـــ حقيقة لست أدرى لماذا يكرهنــا الأمريكان .. ويناصبوننا كل هـذا العداء ؟!

وأجابت « نادية » ببساطة :

ـــ لأن هناك عداء بيننا وبين إسرائيل .. ولأن ثلاثة أرباع إدارات الدعاية والإذاعة والنشر فى يد اليهود .. ولما كان يتحتم على الأمريكان أن يساعدوا أحد الطرفين .. فهم يفضلون دائما مساعدة إسرائيل .

وهزت « منى » رأسها وأجابت :

ـــ ولكن عصام يقول إن السبب فى رفض تمويل السد العالى بمثل هذه الطريقة الوقحة هو مؤتمر بريونى .

ـــ طبعاً .. لأنهم يعتبرون أن من لم يسر فى فلكهم ، فليس منهم .. لقد قال لى صبرى .. إن العالم فى نظر الأمريكان ينقسم إلى قسمين لا ثالث لهما : قسم أمريكى ، وقسم شيوعى ، والذى ليس أمريكياً ، لا بد أن يكون شيوعياً .

ونظرت « منى » بطرف عينها إلى « جابى » ، ثم قالت بالعربية :

ـــ وهل نحن شيوعيون حقيقة ؟

وأجابت « نادية » ،وهى تضحك من تشكك « منى » الـدال على جهلها .. وأجابت بالفرنسية :

ـــ طبعاً لا .. نحن غير شيوعيين مطلقاً

ـــ إذن لماذا يحبنا الشيوعيون ولماذا يعطوننا الأسلحة ؟

ـــ لأنهم يؤيدون موقف الحياد الذى نقفه .

ـــ ولماذا يؤيدونه .. ولا تؤَيده أمريكا ؟!

ـــ لأن أمريكا تحاول أن تكتل الدول فى حزام يحيط بالدول الشيوعية .. كأنه درع يمنع تسرّب الشيوعية إليها ، أو واق يتُلقى عنها الصدمة .

ـــ من أنبأك هذا ؟!

ـــ أنبأتنى إياه معلوماتى العامة ، يا جاهلة .. إن الحزام الذى أعنيه يتكوّن من

ثلاث قطع أو ثلاث حلقات .. الحلقة الأولى حلف الأطلنطى فى أوروبا .

ـــ والثانية ؟!

ـــ حلف بغداد فى الشرق الأوسط .

ـــ والثالثة ؟

ـــ حلف ما نيلا فى جنوب شرق آسيا .

ـــ قلت لى .. وماذا تريد منا أمريكا ما دامت قد كوّنت هذا الحزام ؟!

ـــ تريد أن نتخذ مكاننا فى الحزام .. لا تريد أن نسقط فنحدث به ثغرة ينفذ منها النفوذ الشيوعى .

ـــ وهل يريد النفوذ الشيوعي حقاً أن يتسرّب من هذه الثغرة ؟

ـــ حتى الآن .. يكفيه جداً .. ألا يلتئم حوله الحزام فى حلقات محكمة من دول معادية له أو تسير فى ركاب إحدى الدول .. يكفيه جداً أن تكون هناك ثغرات .. من دول لا تعادية .. بل تقف معه موقف المحايد .. الذى لا يشارك فى مهاجمته ويرحب بصداقته والتعاون معه ، كما يرحب بصداقة الطرف الآخر والتعاون معه .

ـــ وهل ستكتفى الشيوعية بهذا الموقف من الدول ؟ ألن تحاول أن تتسرب إليها .. كما يتسرّب الماء فى الورق النشاف .. ببطء وبساطة ؟

ـــ جائز أن تحاول هذا .. فتلك طبيعة الأمور .. وأظن مهمة الدول المحايدة .. مثلنا ومثل الهند .. أن تقاوم محاولات التسرّب وأن تحتفظ بحيادها حقيقة .. وإلا ذابت كتل الحياد .. وانهارت مبادىء التعايش السلمى .. والحياد الإيجابى .. وعاد العالم مرة أخرى إلى كتلتين متنافرتين لا وسط بينهما ، وأصبحنا « كأننا يا بدر لا رحنا ولا جينا » .

ـــ ويصبح إحساس الأمريكان بالحذر من تصرفاتنا .. ومقاومتهم لا تجاه الحياد الذى نتجه .. إحساساً فى موضعه .

ـــ على أية حال كان يجب ألا يبدءونا .. بالشك .. والعداء .. وأن يفرقوا بين

اتجاهات القومية واتجاهات الشيوعية .. إنهم يتوهمون كل محاولة للتحرر من نفوذهم ، ارتماء فى أحضان الجانب الآخر .

وكانت أصابع « منى » ما زالت تدير المفتاح والأصوات المتنافرة .. و « الطقطقة » و « الخرفشة » ما زالت تتوالى من الجهاز .

وفجأة سمع صوت يأتى متقطعاً من بعيد وميزت أذن « نادية » فيه بعض كلمات عربية فهتفت بمنى :

ـــ سمعت ؟!

واقتربت « نادية » من الراديو وتناولت من « منى » مفتاح الراديو قائلة :

ـــ دعيه لى .

وقرّبت « نادية » .. أذنها من الجهاز ، وأخذت تحرك المؤشر ببطء شديد حول المحطة التى صدر منها الصوت العربى .

وسمعت نبرات الصوت خافتة متقطعة .. وما لبثت حتى اتصلت .. وأدارت « نادية » المفتاح على آخره فعلا الصوت وازدادت النبرات وضوحاً .

ـــ واستطاعت أذن « نادية » أن تميز الصوت يهتف قائلا :

« أيها الموطنون .. حينما نتجه اليوم إلى المستقبل ، بعد سنوات أربع من الثورة . نتجه بقوة وإيمان .. نعتمد على الله ، ونعتمد على أنفسنا .. من أجل تحقيق الأهداف التى قامت من أجلها هذه الثورة ، والتى كافح من أجلها الآباء والأجداد ، من أجل إقامة دولة مستقلة استقلالا حقيقياً .. لا استقلالا زائفاً ، استقلالا سياسياً واستقلالا اقتصادياً . »

ـ وهنا غطى صوت على الراديو فقد اندفع « تونى » يصيح بجانى :

ـــ جانى .. تصوّرى .. لقد أحضروا هنا أسطوانة « الفيس بريسلى » الأخيرة . أتتصورين هذا ! أترقصينها معى يا « منى » ؟

وصرخت فيه « منى » فى حدة :

ـــ هس ..

وانحنى تونى ساخراً وأجاب :

ـــ متأسف .. لم أكن أظن أن الوحى قد هبط .. عن إذنكم . إنى أفضل « الفيس بريسلى » و ..

وعادت « منى » تصيح به :

ـــ قلت لك صمتاً .

وعاد « تونى » من حيث أتى .

وحاولت « منى و نادية » معاودة الإنصات إلى الراديو ولكن الموجة .. كانت قد اختلطت بموجات أخر .. وعادت الطقطقة ، والأصوات المتقاطعة تتعالى من الراديو ، وعادت أصابع « نادية » تدير المفتاح فى بطء وحرص .. ومضت فترة والموجة ضائعة بين غيرها من الموجات .. وغادرت « جالى » مقعدها ، وأخذت ترقب لاعبى الشطرنج ، وبدا الملل على وجه « منى » .. وأخذ سمعها ينصرف إلى أصوات الجاز المتصاعدة من الغرفة الأخرى .

وقبل أن تهم بالنهوض ، عاد الصوت يهتف مرة أخرى فى حماس : « قناة السويس التى ضحينا فيها .. قناة مصرية .. هذه القناة ملك لمصر .. فهى شركة مصرية مساهمة ، حفرت بواسطة المصريين ، ١٢٠ ألف مصرى ماتوا أثناء حفرها .. وكان المفروض أن نأخذ ١٥٪ من الأرباح فوق ٤٤٪ من الأسهم ، ولكن مصر أدينت واضطرت إلى بيعها بمبلغ ٤ مليون جنيه ، وتنازل إسماعيل عن الأرباح ، فحصلت إنجلترا مجاناً على ٤٤٪ من الأسهم .

« إن دخل القناة ٣٥ مليون جنيه لا تأخذ مصر منها سوى مليون جنيه ، اليوم ستعاد حقوقنا فى قناة السويس .. ولن نلجأ إلى الاقتراض من تجار الحروب لكى نقيم السد العلى ونبنى بلدنا بل سنبنيه بسواعدنا ، ومن قطرات عرقنا ودمائنا نحن أغنياء .. ولكننا كنا متهاونين فى حقوقنا .

« أما اليوم فسنسترد هذه الحقوق خطوة خطوة .. و .. » .

ووصل أحد الجرسونات ومال على « منى » وهمّ أن يقول لها شيئاً

فصاحت :

ـــ ابعد الآن .. لا أريد أن أسمع شيئاً .

وهز الجرسون كتفيه وانصرف فى دهشة .

وعادت « منى » إلى الإنصات ، وتعالى من الراديو هتاف كأنه بحر يجيش أو سماء ترعد .. وبعد برهة صمت الضجيج وعاد الصوت يهتف فى صوته الواثق :

« قرار من رئيس الجمهورية بتأميم الشركة العالمية لقناة السويس :

باسم الأمة ـــ رئيس الجمهورية :

مادة ١ ـــ تؤمم الشركة العالمية لقناة السويس البحرية إلى شركة مساهمة مصرية .. وينتقل إلى الدولة جميع مالها من أموال وحقوق وما عليها من التزامات ، وتحل جميع الهيئات واللجان القائمة حالياً على إدارتها ويعوّض المساهمون وحملة حصص التأسيس عما يملكون من أسهم وحصص بقيمتها المقدرة عند صدور هذا القانون ويتم هذا التعويض بعد استلام الدولة لجميع مهمات الشركة المؤممة .

مادة ٢ ـــ يتولى إدارة ...

ومرة أخرى ضاعت الموجة .. وغلبت عليها صيحات بلغة غير مفهومة .. ثم دقات موسيقى وحاولت « نادية » عبثاً أن تضبط الموجة .

وأقبلت « جابى » عليهما بعد أن انتهى دور الشطرنج وهتفت بهما قائلة :

ـــ ما هذا الاهتمام العجيب ؟! كأنى بكما تستمعان إلى إعلان الحرب ؟!

وأجابت « منى » ضاحكة :

ـــ إلى إعلان التأميم وأنت الصادقة .

ـــ أى تأميم ؟

ـــ تأميم قناة السويس

ـــ لست أفهم .

وأجابت « نادية » ، وهى تحاول ضبط مفتاح الراديو :

وسألت « جابى » فى دهشة :

ــ ولكن قناة السويس ملككم .

ــ أبداً .. لقد كانت ملكنا اسماً ، ولكنها ملك الناس كلهم عدانا فعلا .. لقد كانت دولة داخل الدولة .

وقالت « منى » :

ــ لقد جعلها « عبد الناصر » ملكاً للدولة المصرية بعد أن كانت ملكا للدول الأخرى .

وعادت « نادية » تدير المفتاح بأصابعها يمنة ويسرة حتى علا الصوت يهتف من جديد :

« اليوم ، وقد عادت الحقوق إلى أصحابها بعد مائة سنة إنما تحقق التحرير الحقيقى .. لقد بنيت القناة من أجل مصر ، ولكنها كانت منبعاً للاستغلال .. وليس عيباً أن أكون فقيراً ، ولكن العيب هو امتصاص الدماء .

وأقبل « تونى » ووراءه « الشلة » وهم يتصايحون ويتضاحكون .

ثم هتف فى ارتياع .. كأنما يسمع عن جريمة ارتكبت :

ــ أمم قناة السويس !؟

ونظرت إليه « نادية » وتركت مفتاح الراديو من يدها وأجابت ببساطة وسخرية :

ــ أجل أمم قناة السويس .. القناة المصرية .. التى تجرى فى أرض مصر .. أتراه قد ارتكب منكراً ؟

وصاح تونى :

ــ هذه سرقة .. هذه همجية .

وهنا ارتفعت كف « نادية » بلا وعى .. وهبطت عليه فى صفعة مدوية ، وهتفت وهى تضغط على نواجذها :

ــ السرقة هى ما تفعلونه منذ مائة عام .. والهمجية هى ما تفعلونه فى

الجزائر .

ومد تونى أصابعه يتحسس فى ذهول أثر الصفعة المفاجئة على وجهه ، وقد جحظت عيناه وفغر فاه وصاح مشدوهاً :

ــ متوحشة .. سأعرف كيف أؤدبك .

وهتفت « منى » بالعربية ، وهى تضحك ساخرة :

ــ اتنّيل .

ومدت « جابى » يدها فجرت « تونى » للخارج لتضع حداً للمعركة قائلة :

ــ أنت الذى بدأت بإهانتها ياتونى .

وسار « تونى » وراءها ، وهو يتحسس أثر الصفعة ويتلفت إلى نادية مذهولا ، وهو يتمتم :

ــ سوفاج .

وعادت « نادية » تضبط الموجة وعلا الصوت الهاتف يقول :

« والآن أيها المواطنون ، يتجه إخوة لكم من أبناء مصر لإدارة القناة ، والآن فى هذه اللحظة ، يتسلمون شركة القناة المصرية ويديرون ملاحتها ، وهى جزء من مصر ، نقوم بهذا العمل لنسترد حقنا المغتصب ، ونقيم السد العالى ونشيد صرح العزة والكرامة » .

(٣٦)

لا يمانع ...

لم تستطع رسالة « نادية » التى أشارت فيها لمدحت إلى احتمال رحيلها من « جاب » ، والتى حاولت أن تصده عن التفكير فى زيارتها .. أن توقف تيار هذا التفكير ، وأخذت الفكرة تنمو وتتضخم فى ذهنه ، وأخذ يهيىء لها نفسه ويدفع إليها بالمبررات والعلل .. وازداد إحساسه بتلف معدته .. وبإرهاق أعصابه ، وبضرورة السفر إلى لندن .. لفحص معدته وعلاجها .. وبقضاء فترة استجمام يستريح فيها من الجهد المستمر المتواصل .

وكثرت أشعاته التى أجراها على معدته ، وزادت تحاليله ، ورغم سلبيتها فقد أقنع نفسه أن شيئاً ما .. موجود بباطنه يستحق العلاج والسفر .

وهكذا استطاع أن يقيم لسفره حجة قوية مقنعة .. لنفسه ولمن حوله .. وأن يبدو إزاء نفسه ، وإزاء الناس جاداً صارماً كما تعوّد أن يكون ، وأن يكبت تماماً ذلك الميل الخفى المتوارى الذى يكمن فى قرارة نفسه .. كما تكمن البذرة التى أنبتت النبت وأظهرت فروعه وأوراقه .. وبقيت هى متوارية .. بجذورها المندفعة فى باطن الأرض ، والتى تبعث الحياة فى كل برعم فى النبت ، وإن ظلت خفية مجهولة لا يحس لها وجود..

وهكذا انتشرت فى نفسه فكرة السفر كما ينتشر النبت بفروعه وأوراقه ، وكأن ساق النبت ومحوره ودعامته الظاهرة هى فحص معدته وعلاجها .. يقويه ويؤيده ما تسببه له من منغصات ومتاعب .. وإرهاقها الدائم فى بضع السنوات الأخيرة .

أما البذرة الخفية .. التى لم يحاول هو نفسه النبش حولها ، فكانت

« نادية » .

« نادية » .. المجهولة .. النائية .. التى تسرّبت إلى أعماقه ، والتى بات يحس بأنها أشد الناس قرباً إليه وارتباطاً به ، والتى أصبح يعرف كل تفاصيلها ودقائقها .. كأنها لم تفارقه لحظة .

« نادية » .. التى يعرف كيف تحس وكيف تعيش ، وهو الذى لم يأبه لحظة أن يشغل نفسه بإنسان على وجه الأرض .. سوى نفسه .

« نادية » التى يعرف شكل حجرتها .. الفراش الخشبى العتيق .. الذى كانت تنام عليه أمها وهى فتاة .. بنقوشه وزخارفه ، والتسريحة العالية المستقرة فى ركن الغرفة .. المحفورة بالزهور « الأويما » ، والمقعد الكبير طراز « لوبكانز » والباب الزجاجى المؤدى إلى الشرفة الخشبية المطلة على حقول الكرنب والبنجر ، وحظيرة المواشى ، وقمم الجبال تبدو فى الأفق بيضاء مختلطة بالسحب ، والأشجار المتكاثفة على سفح الجبل .

« نادية » التى يكاد يعرف كل حركة من حركاتها ، وكل سكنة ، والتى يراها كل يوم تنحدر بحقيبتها فى المنحدر المؤدى من « روميت » إلى مدخل البلدة ، وتسير بجوار سور سكة الحديد حتى تصل إلى المدرسة المطلة على المحطة .

إنه يكاد يعرف منظر المحطة .. بكل ما فيه من تفاصيل . حتى هذا الحمال الذى تعوّد أن يرتدى المعطف الكاكي و « يكبس » القبعة حتى أذنيه ويدفع أمامه عربة الأحمال الحديدية الصغيرة .

« نادية » التى يعرف عنها .. أكثر مما يعرف عن أصدق أصدقائه .. وأقرب أقربائه ، والتى يحس بوجودها معه أكثر مما يحس بأمه التى تعيش معه تحت سقف واحد ولا يفصل حجرتيهما سوى جدار رقيق .

كانت بنفسه لهفة إلى رؤيتها ولقائها والحديث معها .. وإلى تحقيق الدعوات الوهمية التى دعته إليها .

كانت بنفسه لهفة إلى أن يصعد معها الجبل ، ليجلسا على شاطئ البحيرة ،

يوقدان النار ويطهوان الطعام .

كانت بنفسه لهفة إلى أن يذهب معها إلى النادى ، ليلعب التنس ويشرب الشاى .

كانت بنفسه لهفة إلى أن يجلس معها أمام المدفأة يناقش حديثها ، ويحدث أمها .. ويتلقى مشاكسات أختها .

ومع كل هذه اللهفات .. لم يحاول قط أن يبرز لنفسه أو لمن حوله .. فكرة زيارتها كعلة للسفر .. بل طواها .. كأنها شيء لا وجود له .. وكأن سفره .. لم يكن أبداً إلا للعلاج والاستجمام .

وبدأ يتخذ خطوات إيجابية للسفر .. على الأساس الواضح .. فاتصل بالدكتور « تنر » فى لندن ، وكتب إليه بضع مرات .. وأخذ يعد جواز السفر ، ويسأله عن ترتيباته ووسائله .. وحصل من شركة السياحة على بضع خرائط لجنوب أوروبا وإنجلترا .

وخلا إلى نفسه ذات عصر فى مكتبه بالمستشفى ، وأخرج إحدى الخرائط وأخذ ينظر إليها نظرة فاحصة .

وركز عينيه على المنطقة الجبلية فى جنوب فرنسا وشمال إيطاليا وبدأ يبحث عن منقطة بذاتها .

واستطاع أن يقرأ بالحروف الإفرنجية الكبيرة Hautes Alpes وأخذ يتتبع الحدود الرأسية التى تخترق الجبال فاصلة بين فرنسا فى جانب ، وسويسرا وإيطاليا فى جانب آخر .. وأخذ يتتبع الحدود من الجنوب إلى الشمال حتى وجدها تلتقى ببحيرة « ليمان » .. وهبط ببصره مرة أخرى يفحص الجزء الفرنسى من الجبال .. وبرزت أمامه مدينة « جرينوبل » .

لا بد أن تكون « جاب » قريبة من هذه المنطقة .. فقد حدثته عنها « نادية » فى عدة مناسبات ، ليهبط إذن مع خط سكة الحديد .

هذا تقاطع سكة الحديد جنوب « جرينوبل »

هذه بلدة « فين » . وهذه بلدة ..
وفجأة بدت له « جاب » بحروف صغيرة .
وتملكه إحساس بالسعادة ، وهو يرقب الحروف الثلاثة الصغيرة ، وأخذ ينظر إلى النقطة السوداء .. وانطلق خياله يجسد ما وعته ذاكرته من مناظرها .. قمم الجبال ، والأسقف المنحدرات ، والمداخن .. و .. و ..
وإنها ليست بعيدة عن طريقه .
أجل .. لو أنه سافر بالباخرة .. فسيهبط إلى مرسيليا .. لكى يذهب إلى جنيف أو باريس !
وهو لا بد أن يذهب إلى إحداهما أو كليهما .. لأنه يحب ألا يترك الفرصة تمر دون أن يرى هاتين العاصمتين الكبيرتين .
أجل .. إن المفروض عليه أنه ذاهب للعلاج ، والاستجمام .
وهو ليس مصاباً بمرض ملحّ عاجل يستدعى الطيران فوراً إلى لندن .. فلا شيء إذن يدعوه إلى الاستعجال ، بل إن مرضه قد يكون خير علاج له ، مجرد الاستجمام والراحة ، والتجوال فى هذه المناطق الجبلية الرائعة ، قد يغنيه عن العلاج نفسه .
والمدينة الصغيرة .. لا تبعد كثيراً عن طريقه من مرسيليا إلى جنيف أو إلى باريس .. فهو يستطيع أن يهبط فى « فين » ثم يذهب إليها يوماً أو بعض يوم .. ثم يعود مرة أخرى إلى طريقه الأصلى .. دون أن يبدو عمله .. غير طبيعى .
غير طبيعى ؟
لمن ؟!
أهو مسئول أمام أحد ؟!
أهناك من يحاسبه .. ويحدد له الطريق الطبيعى ، وغير الطبيعى ؟! إنه حر فى أن يذهب حيثما شاء ، وقتما شاء .
وفى أن يذهب ليستجم فى أى مكان.. فبشى.. أو جنيف أو زيورخ.. أو...

أجل . أجل . كل هذا معقول . معقول . ولكن ليس فى « جاب » .

إن « جاب » هذه لم يسمع أحد بها من قبل ، ولا عرف عنها أنها مكان للاستجمام أو الاستشفاء .

فأى علة يعلل بها سفره إليها !

ولكن من الذى يطلب التعليل ؟!

نفسه !

والناس من حوله !

بل « نادية » نفسها .. وأهلها !

إن المعقول أن يمر بها .. وهو فى طريقه إلى مكان ما .. أما أن يذهب خصيصاً إليها .. فشىء يبعث على الريبة .. والشك .

إن شخصيته ، وكبرياءه .. واستخفافه بالميول الحادة .. لا تقبل منه مثل هذا العمل .

لو أن « جاد الله » مثلا .. قد أقدم عليها .. لما لامه أحد ! بل لبدا .. ذلك منه .. حماقة طبيعية .. لا تستبعد من صاحب حماقات .

وكما يقول المثل .. « العيب من أهل العيب مش عيب » . فالحماقة من أهل الحمق ليست حماقة ، أما منه فهى حماقة كبرى .

ومع ذلك فهو سيسافر .

وسيسافر بالسفينة .

وسيهبط فى مرسيليا .

ويأخذ سكة الحديد المتجهة شمالا .

وسيهبط فى « فين » .

لأى سبب !! ولأية علة !!

وسيأخذ القطار إلى « جاب » ، وسيلقاها .

سيلقى « نادية » .. وسيسلم عليها ، ويضحك معها .. ويذكرها

برسائلها .

وأحس بسعادة غامرة ونشوة لذيذة .

إنها لا شك ستحس بنفس السعادة وبنفس النشوة .

ولكنها تقول إنها قد تسافر فى ذلك الوقت .

ما أغباها !.. ما الذى يضطرها إلى السفر فى هذه الفترة ! لماذا لا تؤجله ؟ ربما لأنها لا تملك التأجيل .

لا بد أن أمها ، وخالتها وجدتها .. دبرن أمر السفر فى هذا الموعد . فلماذا لا ترفض هى ؟

ولكن هل تستطيع ؟!

ولِمَ لا تتمارض مثلا .. أو تتذرع بأى عذر ؟!

مثل ماذا !

هل تجسر أن تقول إنها تنتظر زيارته ؟!

طبعاً لا ..

من يكون هو .. بالنسبة إليها .. حتى تؤجل سفرهم من أجله ؟

إنه فى نظرهم إنسان مجهول .

مجهول .. بقدر ما هى مجهولة .. ممن حوله .

والتعارف الباطنى الذى حدث بينهما .. لا يحس به أحد سواهما .

ولكنها تقول .. قد ..

أى أنها قد تسافر أو لا تسافر .

فلماذا يزعج نفسه .. بتأكيد الاحتمال الأول .. احتمال السفر !.

لماذا لا يتصرف على أساس الاحتمال الثانى ، وهو بقاؤها ؟

ولكن هب أنها سافرت !!

لتفعل ما تريد ...

لقد عرض عليها هو فرص اللقاء .. فإذا كانت قد رفضتها .. فلتنفلق .

وتملكه إحساس بالشفقة عليها .

وود لو كانت بجواره ليربت على ظهرها ويضمها إليه فى عطف .

ما ذنبها حتى تنفلق ؟!

على أية حال إن خير ما يفعله هو أن يسافر ، وليحدث ما يشاء .. إنها لا شك ستبذل كل ما تستطيع للبقاء .. إذا رأت منه تصميما على السفر .. وإذا لم تفلح فى البقاء .. فلن يمنعه ذلك من السفر .

إنه لن يخسر كثيراً إذا هبط فى « فين » ، وذهب ليقضى بضع ساعات فى « جاب » .

ليشاهد فيها جبالها ، وبحيرتها وشوارعها .. ويرى بيت « نادية » ومكتبها المطل على المحطة .

أجل .. إنها متعة .. أن يشاهد كل تلك الأماكن التى صوّرتها له ، ويطوف بها ويتنسم هواءها .. سيكون أقدر على تصوّرها .. إذا ما دعته إليها بعد ذلك ، وستدهش هى عندما يكتب إليها بعد ذلك عن بلدتها .. كتابة العارف الواثق .

وستضايق عندما تعرف .. أن الفرصة سنحت للقائها ثم ضاعت .

ولكنه سيطمئنها .. بأنه لا بد أن يلقاها ثانية .

أجل .. إن لقاءهما فى رأيه قد بات أمراً محتما .

إن ما بينهما من رباط وتفاهم ، وود وصداقة .. و .. و ..

ولماذا لا يقول حباً ؟

لماذا يحس بالخجل من هذه الكلمة !

لقد سبق أن اعترف فيما بينه وبين نفسه أنه يحبها ، فلماذا يحاول أن ينحى الكلمة عن شفتيه ؟

إن هذه المشاعر الجياشة العميقة التى رسبت فى نفسيهما لا يمكن أن تبدد فى الهواء .

لا يمكن أن تنتهى إلى لا شىء .

إلامَ يمكن إذن أن تنتهى ؟!
إلى .. إلى ..
هو نفسه .. لا يمانع .
لا يمانع أبداً .. من أن يشد نفسه إليها .. مدى العمر .
لا يمانع أبداً .. من أن يضعها ذلك الموضع الذى أبى أن يضع فيه أحداً ..
موضع المكبل لحريته .. المسيطر على أوقاته .
إنه يحس أنها أكثر المخلوقات فى هذا العالم ملاءمة لهذا الوضع .
إنها لطيفة ذكية .. حساسة رحيمة .
إنه يحب كل ما بها .
كل كلمة ، وكل تصرف ، وكل تفكير .
يحب كل لمحة فى صورها .. وكل لفتة .
وهو من أجل هذا لا يمانع أبداً فى أن يرتبط معها بوثاق دائم ، ورباط أبدى مقدس .
إنه لا يخشى منها على نفسه أبداً
بل هو يتوق إليها .
إلى هذه الصبية الشقراء .. التى لازمته فى أفكاره وغدواته وروحاته طوال الأشهر الماضية .
ولكن هل هى ترحب بهذا ؟!
ولِمَ لا ؟!
إنها لم تطرق قط هذا الموضوع من قريب أو بعيد .
والمفروض أنها لا تطرقه .. ما دام هو لم يطرقه .
ولكنها أيضاً لا تطرق أى موضوع عملى .. كل حديثها أوهاوم فى أوهام .
أيمكن أن تكون هى نفسها وهماً !!
وأحس بمرارة أليمة .. كأنما يوشك أن يفقد أعز ما عنده .

ما هذا السخف !!

أبعد كل هذه العلاقة .. يعود إلى التشكك فى حقيقتها ؟!

لماذا إذن لم تقل له فى خطاباتها ما يؤدى إلى شىء ؟!

مثل ماذا ؟

إنه لا يعرف ماذا تقول الفتيات فى هذا الموضوع !!

ولكن لا بد أنهن يقلن شيئاً .. يدفع الرجل .. إلى أن يخطو خطوة عملية .

أما هى .. فتتحدث دائماً .. فى الهواء .

على أية حال .. عندما يلتقيان .. لا شك سيكون المجال أكثر ملاءمة ، والنفوس أكثر شجاعة ، وإقداما .

إنه لن يترك هذه الفرصة تمر .. دون أن يفعل شيئاً .

وهو لا شك سيراها عن كثب ، ويرى أسرتها .. وهو واثق .. أنه لن يخذله شىء .. لأنها أطلعته على كل دقائق حياتها

هذا إذا كانت لن تسافر .. وإذا كان سيلتقى بها .

فإذا حدث العكس .. فماذا تراه صانعاً ؟

أسينتظر إلى أن تحين فرصة للسفر فى الصيف القادم !

أسينتظر عاماً آخر ؟!

لا ..لا !!

سيكتب إليها بطريقة عملية أكثر من هذا .

وسيطلب منها زيارة القاهرة .

ومع ذلك فهو يحس أنه سيلقاها ، عند سفره إلى « جاب » .

إنه واثق أنها لن تخذله .

ليست هى النوع الذى يخذل أبداً .

ستبقى لتنتظره .. ولو أدى ذلك إلى أن تفعل المستحيل .

وإنها تحبه كما يحبها .

لم تقل هذا مرة واحدة .. ولكنه يستشف من كل كلمة تكتبها ، ومن كل سطر تضمه رسائلها .

لم تقل له مرة واحدة أنها تحبه .

ولكنه يعتبر حبها مسألة بدهية مسلماً بها .. لا تحتاج إلى قول .. أو تدليل .

إنه يحس من رسائلها .. أنه الإنسان الوحيد الذى يعنيها أمره .. والذى ربطت به حياتها .

إنها قد باتت تسأله .. أتذهب إلى هذه الحفلة أم لا تذهب ؟ وهل ترتدى هذه البلوزة أم تلك ؟! وهل هى محقة فى خصامها مع أختها .. أم مخطئة ؟

أبعد هذا يشك فى أنها تحبه .. وأنها تحس له نفس الإحساس وتكن له نفس الرغبة ؟!

سيسافر إليها .. لن يمنعه شىء من السفر .

وأمسك القلم ورسم دائرة حول البلدة وأخذ يجرى بالقلم على الطريق الموصل إليها حتى وصل إلى مرسيليا .

ولم يكد القلم يقف على نقطة مرسيليا حتى سمع صوتاً يهتف من ورائه ضاحكا : — ما شاء الله .. أقد انتهيت من رحلتك وعدت ثانية إلى مرسيليا ؟.

ونظر مدحت ليجد « جاد الله » يقف وراءه مطلا على الخريطة مشيراً إلى الخط الأسود الذى رسمه بين مرسيليا وجاب ..

وعاد جاد الله يقول ساخراً :

— ومعدتك .. هل أجريت عملية القرحة بواسطة أحد حلاق الصحة بجاب ؟

والتفت إليه مدحت وقطب ما بين عينيه حتى التقى حاجباه الكثيفان وصاح به :

— ما هذا السخف !! أى عملية هذه التى سيجريها حلاق الصحة ؟

— هل تظن أن هناك فى هذه القرية المرتفعة فى أعلى قمم الألب أكثر من خلاق

صحة ؟

— من قال إنها قرية .. يا حيوان .. هل ظننتها « منية السيرج » التى نشأ بها أهلك ؟!

— ماذا ستكون أكثر من ذلك ؟!

— إنها بلدة محترمة .. بها دور سينما ، ونوادى .

— مفهوم .. مفهوم .. وبها مستشفى من أكبر المستشفيات ، وبها أطباء عالميون سيفحصون معدتك .

— ومن قال إنى سأفحص معدتى هناك ؟!

— إذن لماذا ستذهب إلى هناك ؟!

— سأمر عليها فى طريقى .

— آه .. فهمت .

— سأنزل فى « فين » ثم أستقل القطار الذاهب شرقاً . هل تراه ؟!

— لا أرى شيئاً .. وماذا ستفعل ؟

— سأبقى يوماً .. أو بضع ساعات .. حسب الجو .

— ثم ؟!

— أعود إلى « فين » ، وأستقل القطار إلى جنيف .. أو إلى باريس .. ثم أذهب بعد ذلك إلى لندن .

— ومتى تنوى أن تقوم برحلتك البلهاء ؟!

— لماذا تقول عنها بلهاء ؟!

— لأنى لا أرى لها مبرراً أبداً ولا سيما فى مثل هذه الظروف .

— أى ظروف ؟!

— الظروف السيئة التى نمر بها .

— ومالى أنا ولهذه الظروف ؟!

— ألا تعرف أن إنجلترا دعت الدول المنتفعة بالقناة لإصدار قرار فى مسألة

التأميم ، وأن المؤتمر منعقد الآن فى لندن ؟!

ـــ لينعقد أو ينفض .. مالى أنا به .

ـــ هل تظن أن الوقت سيكون ملائماً لكى تذهب للعلاج فى لندن وسط هذه العواصف ؟!

ـــ ما دام الدكتور « تنر » لن يشترك فى المؤتمر ، وأغلب ظنى أنه لن يعرف أن هناك مؤتمراً سينعقد من أجل القناة ، فإنى أستطيع أن أذهب إليه كى يفحصنى فى أى وقت .

ـــ إن الجو السياسى ملبد بالغيوم ، والصحف تقول إن إنجلترا قررت أن تدعو الاحتياط ، وأن سفن إنزال الجنود وناقلات الدبابات تتحرك إلى جهة مجهولة .

ـــ وإيه يعنى .

ـــ وإن فرقة مشاة كاملة نقلت بالطائرات إلى قبرص .

ـــ لماذا كل ذلك ؟ أمن أجل .. أن شركة قناة السويس المصرية التى كان مفروضاً أن تكون ملكنا بعد بضعة سنوات .. قد أممناها !

ـــ وسندفع تعويضات لأصحاب أسهمها .

ـــ ما الذى يزعجهم إذن ؟

ـــ يزعجهم المبدأ نفسه .. يزعجهم أن يتقوّض نفوذ إنجلترا إلى الحد الذى لن تستطيع بعده أن تستولى على إدارة القناة .. التى ظلت إنجلترا ترفع عقيرتها وسط العالم .. بأنها شريانها الحيوى .

ـــ ولماذا يحركون كل هذه الأساطيل ، وينقلون كل هؤلاء الجنود ؟!

ـــ لأجل أن يستعيدوا القناة بالقوة .. إنهم لا شك يضربون أنفسهم بالنعال .. لأنهم جلوا عنها .

ـــ وهل تظنهم يجرءون على مهاجمتها فعلا ؟!

ـــ ولِمَ لا .

ـــ كلام فارغ .

— إن أى هجوم منهم سيغلق القناة .

— وسيضع كل بترولهم فى أيدينا .. لأن العرب يستطيعون تحطيم كل أنابيبه .

— كل هذا وتقول إنهم سيهاجمون القناة !

— أنا لم أقل إنهم سيهاجمونها، وإنما قررت واقعاً وهو أن هناك حركات حشد.

— تهويش .

— ليكن .. المهم .. أنه ليس من المناسب أن تسافر فى هذا الجو الملبد بالغيوم ، والذى تجرى فيه على أقل تقدير .. حركات تهويش .

— ليس لى دخل بكل هذا .. إنها زوبعة فى فنجان .. وستنتهى إلى لا شىء .

— إلى هذا الحد قد أصررت على السفر .

— أجل .

— أحقاً من أجل معدتك ؟! قل الحق .

وتردد مدحت قبل أن يجيب وهو يعبث بقلمه فوق الخريطة :

— إلى حد ما .

ورفع جاد الله كتفيه مسلماً وقال :

— سافر .. ما دمت تحس بالرغبة فى السفر ، وإن شاء الله سينتهى كل شىء على خير .. لن تكون المسألة أكثر من زوبعة فى فنجان كما قلت .. إن إنجلترا تحاول أن تلعب بسلاح التهويش الذى كانت تلعب به فيما مضى .. هل تذكر بضعة الدبابات التى حركها « كيلرن » إلى القصر .. ليفرض بها الوزارة التى يريدها ..

— أجل .

— إن عقليتهم لن تتغير ، ولكنهم فقط يعتبرون أن الحاكم الآن أقوى .. فهم يحركون له .. قوات كبيرة .

— بالضبط .. هذا ما يفعلونه ، وستنتهى تحركاتهم إلى لا شىء .

— ومتى نويت السفر ؟

— عندما ينتهى جواز السفر ، وأعرف مواعيد البواخر ، وأجهز بعض لوازم السفر .

— ماذا تنوى أن تحضر لى معك ؟.

— من جاب ؟

— من لندن وباريس وجنيف يا غبى .. فأنا لا أريد عيش و « سلاطين لبن » .. إنى أستطيع أن أحضره من « منية السيرج » التى لا تعجبك .

— ماذا تريد أن أحضر لك .

— ساعة من جنيف ، وامرأة من باريس ، وإذا لقيت المستر إيدن .. فاسأله أين تعلم الردح والشرشحة .. إن خطبه التى شتم فيها « جمال عبد الناصر » تدل على أنه نشأ فى « حوش بردق » لندن .. لقد فقد سمعته كجنتلمان بعد هذه الشلقنة .

وانصرف الصديقان ، وفى الليل جلس مدحت يكتب لنادية ، ويؤكد لها قرب مجيئه .. سواء أكانت فى « جاب » أم لم تكن .

وفى الصباح أسقط مدحت رسالته فى صندوق البريد ، وبعد نصف ساعة .. سقطت رسالتان أخريان فى صندوق بريد مختلفين تحملان نفس العنوان .

إحداهما وضعها صبرى .. ينبىء فيها « نادية » أن التعبئة العامة قد أعلنت فى مصر ، وأن جيش التحرير قد أنشىء وأنه قد انضم إليه .. وهو يتدرّب يومياً على ضرب النار ، ويخبرها أن مصر كلها تقف لتشد أزر « جمال عبد الناصر » ، وتحافظ على أضخم ربح حصلت عليه مصر وهو قناة السويس .

أما الرسالة الثانية فقد كتبها « عصام » إلى « منى » ينبئها بأنه سيرحل غداً إلى القسيمة مع كتيبة السيارات .. بعد أن استكملوا معداتها ، وأنهم متخذون كل أهبة لصد أى محاولة لإسرائيل للصيد فى الماء العكر .

(٣٧)

تدبير لقاء !!

جلست « نادية » فى حجرتها تقرأ رسالة مدحت ، وقد وقفت وراءها « منى » .. ولم تكد تنتهى من قراءتها حتى سقطت الرسالة من يدها واستغرقت فى شرود شديد .. وهبطت « منى » فى استرخاء على المقعد الكبير ، ومدت ساقيها ، وتركت رأسها يسترخى على صدرها ، وقالت كأنما تحدث نفسها :

ـــ جالك الموت يا تارك الصلاة .

وطوت « نادية » الرسالة ، وهى تتساءل فى يأس :

ـــ وما العمل ؟!

وصمتت « منى » برهة وبدا عليها الاستغراق فى التفكير وأخيراً تساءلت قائلة :

ـــ اسمعى يا نادية .. هل تحبينه حقيقة ؟!

ورفعت « نادية » حاجبيها فى دهشة وتساءلت :

ـــ وماذا يجدى هذا الآن ؟!

وعادت « منى » تتساءل فى إلحاح :

ـــ أجيبى علىّ أولا .. هل تحبينه حقيقة ؟ أعنى هل تريدينه هو أم تريدين عملية الحب التى نسجتها أوهامك .. وخلقتها خيالاتك وأحلامك ؟!.. هل تتمنين أن تعيشى معه أم تفضلين أن تهيمى فى قصة حبه ؟!

ونظرت إليها « نادية » حانقة وأجابت فى امتعاض :

ـــ لست أدرى معنى لهذه الأسئلة السخيفة التى تسألينها .

ـــ إنها ليست أسئلة سخيفة .. إنها ستحدد طريقة تصرفنا معه .

— كيف ؟!

— إذا كنت تريدينه حقيقة .. فقابليه .. وضحى له كل شيء .. واعتذرى عن خدعة الصورة التى أرسلتها إليه .

وبدا الارتياع على وجه « نادية » وهتفت فى فزع :

— أقابله ؟

— أجل تقابلينه .. لِمَ لا ؟!

ونظرت « نادية » إلى المرآة المواجهة لها وجذبت عن رأسها الإيشارب بحدة وأخذت تتحسس آثار الحريق فى عنقها وقد اختلجت شفتاها وبدت فى ملامحها تقلصات بكاء وأجابت هامسة وهى تغالب دمعها :

— كيف أقابله ؟!

— إذا كنت تريدينه حقاً .. فيجب أن تقابليه .. يجب أن تعرضى نفسك للتجربة .

ودفنت « نادية » رأسها بين كفيها وهى تحاول أن تكبت رجفات بكاء توشك أن تهز جسدها ..

واستمرت « منى » تقول :

— إنها على أية حال .. خير من ذلك اليأس اللانهائى الذى تهيمين فيه.إن التجربة .. ستوصلك إلى شيء .. قد يكون فى صالحك .. ألا يحتمل أن يظل على حبك كما أنت ، فتربحين سعادتك وهناءك وحياتك .

وهزت « نادية » رأسها وأردفت فى نبراتها اليائسة :

— ويحتمل أن يفجع فىّ .. فأفقد كل شيء وأهدم كل ما شيدته من الأمانى وأبدد كل ما عشته من أحلام .

— وإلى متى ستظلين هائمة فى قصور أمانيك ؟!

— إلى ما لا نهاية .

— ليس هناك شيء بلا نهاية حتى أمانينا وأحلامنا .

وصمتت « منى » برهة ثم هزت رأسها وتساءلت فى عجب :

ـــ أنت عاقلة يا نادية .. أعقل منى ومن كل البنات اللاتى نعرفهن .. فلماذا يقف عقلك خارج حدود أحلامك ! لماذا تسوقين النصح إلىّ وإلى كل من حولك .. وتأبين أن تسوقى النصح إلى نفسك ؟

وأجابت « نادية » متسائلة فى مرارة :

ـــ وبم تريدين أن أنصح نفسى ؟.

ـــ أن تكفى عن هذه الأوهام التى تعيشين فيها ، وتضعى نفسك فى الأمر الواقع .

وعادت « نادية » تتساءل فى نفس المرارة :

ـــ وأفقد أعز ما ملكت فى حياتى .. أفقد أمتع إحساساتى .. وأجمل مشاعرى !؟

وضمت « منى » ركبتها إلى صدرها وهزت رأسها فى حيرة وقالت متسائلة :

ـــ إذن ما العمل ؟! ألا تستطيعين إيقاف مجيئه ؟!

ـــ لقد حاولت فى رسالتى السابقة .. ولكنه يصر كما ترين على المجىء .. حتى ولو لم أكن موجودة .

ـــ إذن نسافر .

ـــ إلى أين ؟!

ـــ إلى أى ناحية .. إلى « جرينوبل » إلى « بزيانسون » .

ـــ هل تظنين السفر بمثل هذه السهولة ؟. هل نستطيع أن نقنع « ماما » به ؟ وماذا نقول لها ؟ أنقول لها إننا نخشى مجىء مسافر من مصر ؟ ثم متى نسافر .. ومتى نعود ؟! وهو كما ترين لم يحدد موعداً معيناً ، لو أننا نعرف بالضبط موعده لاستطعنا أن ندبر الأمر .

ـــ إنه قد يرسل تلغرافاً .

ـــ هبيه لم يرسل !

وساد الوجوم الفتاتين .. وبعد لحظة رفعت « نادية » رأسها وقالت فى صوت خافت ولهجة تنم عن الخطورة :

ـــ اسمعى يا منى .. إن لدىّ حلا .. لست أدرى ما رأيك فيه !

ـــ ما هو ؟

ولم تجب « نادية » .. وبدا عليها الشرود ، وقالت « منى » تستحثها :

ـــ لم تقولى ما هو ؟!

وتركت « نادية » مقعدها ، واقتربت من « منى » وجلست على حرف المقعد الكبير وقالت متسائلة فى نبراتها الشاردة :

ـــ لماذا لا تقابلينه أنت ؟

وقفزت « منى » وهتفت « بنادية » متسائلة :

ـــ أنا ؟

وجذبتها « نادية » من ذراعها وأجلستها على المقعد وعادت تقول فى هدوء :

ـــ أجل أنت .. لماذا لا تقابلينه ؟

ـــ أجننت يا نادية !!

ـــ لماذا يا منى يا حبيبتى .. ألست أنت نادية التى يعرفها من صورها ؟

ووقفت « منى » أمامها وأشارت بإصبعها محذرة وأجابت :

ـــ اسمعى يا نادية .. إلى هنا وكفى .. لقد وافقتك على مسألة الصور . وقلت إنها لا تقدم ولا تؤخر ، وإن صورتك وصورتى لا تفترقان كثيراً .. وإن المسألة كلها مجرد لعبة تملئين بها فراغك .. ومصيرها ينتهى . أما أن أنتحل شخصيتك وأمثل دورك .. فلا .

ـــ من قال إنك ستنتحلين شخصيتى .. ليست المسألة بمثل هذه الشناعة التى تصورينها .

ـــ ماذا تكون إذن ؟!

ـــ إنك ستنوبين عنى فى لقائه .

ـــ وأين تكونين أنت ؟!

ـــ معك .. باعتبارى منى .

ـــ ما شاء الله .. أتظنين الحيلة ستنطلى عليه ؟

ـــ أية حيلة .. إننا لن نجهد أنفسنا فى شىء .. وأؤكد له أنه .. إذا حضر حقاً .. ولقينا نحن الاثنين .. فإنه ببساطة سيحدثك على أنك نادية .. لأنك أنت التى انطبعت صورتك فى ذهنه .

ـــ وماذا ستفعلين أنت ؟!

ـــ سأعرفه بنفسى على أنى « منى » .. وسأحاول أن أتصرف كما تتصرفين أنت .

والتفتت إليها « منى » رافعة أحد حاجبيها متسائلة فى خبث :

ـــ وكيف أتصرف أنا ؟

ـــ بخفة وطيش .. وشقاوة .

ـــ أنا .. أنا التى أتصرف بخفة وطيش .. بعد كل هذا العبث الذى فعلته .. والطيش الذى تنوين فعله .. تتهميننى بالخفة والطيش ؟!

ـــ إنه مأزق انزلقنا إليه ، ولا بد لنا من علاجه بطريقة ما .

وصمتت « منى » برهة وأخذت تقلب الأمر فى ذهنها .. وما لبثت حتى هتفت فى عناد :

ـــ لا ياستى .. أنا لست مجنونة .. من يدرينى ماذا يفعل بى هذا الجزار المتجهم ؟!

ـــ لا تكونى مجنونة .. ماذا يستطيع أن يفعل بك ؟!

ـــ يقطع لى زوراً أو معدة

ـــ يقطع لك زوراً أو معدة ؟. هل تظنينه يمسك « سكيناً » فى يده .. ويطوح به فى خلق الله .. إنه جرّاح وليس جزاراً .

ـــ من يدرى .. ربما اكتشف بى سرطاناً وأصرّ على قطع أحد أعضائى .

ـــ بعد الشر عنك .. كفى عن هذا المزاح السخيف .. إننا نتكلم حقيقة .

ـــ إذا كنا نتكلم حقيقة .. فهى أنه حاول أن يمارس معى بعض مظاهر الحب .

ـــ حب ؟..

ـــ أجل حب ؟.. لماذا تنطقينها بمثل هذا الاستغراب والدهشة .. أليس المفروض أنه يحبك ؟!

ـــ من قال هذا ؟

واستدارت « منى » لتواجه « نادية » وقبضت على ناصية شعرها وقالت منذرة :

ـــ اسمعى يا « نادية » .. ماذا تظنينه قد دفعه إلى أن يصر على زيارة « جاب » ! ليرى الآثار الرائعة .. أم ليحضر المؤتمرات العالمية ؟! ماذا عندنا فى « جاب » يدفعه إلى أن يجشم نفسه لزيارتنا ؟!

ـــ إنه لن يأتى إلينا خصيصاً .. إننا فى طريقه إلى لندن .

ـــ كذاب .. كذاب .. إننا ليس فى طريقه إلى لندن أبداً .

ـــ إنه يتنزه ويستجم .

ـــ هناك أماكن للاستجمام والتنزه.. كثيرة.. غير « جاب ».. لماذا لم يذهب إلى « فيينا » ؟.

ـــ ربما سيذهب .

ـــ اسمعى .. إذا كنت ستصرين على هذا البلف .. والاستعباط .. فتفضلى قابليه وحدك .. تحمليه وحدك .. ودعينى فى حالى .

واقتربت « نادية » منها وضمتها إلى صدرها وقبلت رأسها وقالت تهدئها :

ـــ لا تغضبى يا منى .. حقك علىّ ، قولى .. ماذا تريدين ؟

وصمتت « منى » برهة تفكر ، وقالت ، وهى تهز رأسها فى حيرة :

ــ نسّيتينى ماذا كنت أقول ؟

ــ كنت تقولين .. هبى أنه حاول أن يمارس معك بعض مظاهر الحب .

وهتفت « منى » بلهجة المتذكرة :

ــ أجل .. هبيه قد فعل .

وهزت « نادية » رأسها مستفسرة وتساءلت :

ــ مظاهر الحب .. مثل ؟.

ــ مثل ؟! ألا تعرفين مظاهر الحب حتى الآن .. يا غبية تقبيل مثلا .. هبى أنه حاول تقبيلى .. ماذا أفعل ؟!

وأحست « نادية » بشىء يعتصر فى باطنها .

ماذا تفعل ؟!

إن مظاهر الحب ليست هى المشكلة وإنما جوهره هو المشكلة .

ماذا تفعل .. إذا أحب « منى » فعلا .. وهو لا شك فاعل ؟

ماذا تفعل إذا تعلق بها .. كصورة مجسدة ، للوهم الذى أحبه .. « لنادية » التى كتبت إليه .. ودعته .. وطافت به سفح الجبل ، وشاطىء البحيرة .. ومرحت وإياه فى دفء الشمس ، وناجته أمام المدفأة فى سكون الليل !

ألم يكفها أنها منحته صورة غير صورتها حتى تمنحه كائنة غيرها ؟!

ولكن .. هل كانت تملك غير ذلك ؟!

هل كانت تملك أن تمنحه صورتها هى .. وهل تجسر الآن على أن تلقاه ؟!

لقد سبق أن سلمت أن المسألة بوضعها المادى .. قد باتت مستحيلة بعد أن شوّه الحريق عنقها .. ولم تجد لها عزاء عن يأسها المطبق سوى الصلة الروحية .. واللقاء الوهمى الذى أضحت تمارسه فى رسائلها .

وكانت « منى » فى العملية كلها مجرد أداة معاونة .. بصورتها .. فى الرسائل السابقة .. وبكيانها فى اللقاء .. المتوقع .

فما الذى يدفعها بعد ذلك .. إلى الضيق .. والقلق .. والخوف .. و ..

والغيرة ؟

أحقاً .. باتت تغار من « منى » !

أبداً .

لا كانت .. ولا كانت حياتها .. ولا كان حبها .. لو أنها غارت من أختها الحبيبة الطيبة .

ومع ذلك ، كل التحليلات التى حللتها للموقف .. لم تستطع أن تمنع شعور القلق والخوف .. من الحل الذى توشك أن تقدم عليه .

ولكن .. هل هناك ، من حل سواه ؟!

إن التهديد بالرحيل .. لم يجد فى منعه من الحضور .

والرحيل نفسه ، عسير مستعص ، ثم إنها فوق هذا كله وفى أعماق نفسها ، فى أعماق الأعماق .. التى لا يسبر لها غور ولا يدزك لها قرار ، تتوق إلى لقياه ، بأى وضع وعلى أية حال .. حتى ولو كانت على هامش اللقيا .

حتى ولو لم تكن « نادية » ، وكان غيرها يحتل مكانها ، فى رؤيته واستقباله وسماع حديثه .

إنها على الأقل ستراه عن قرب .. وستسمع حديثه ...

وأكثر من هذا .. سترى كيف يتصرف حيالها ، وماذا يحس لها .

ليس لها هى .. ولكن « لنادية » .. التى تمثلها « منى » .

أجل .. ستمتعها ، لهفته عليها ، فى صورة « منى » .. فهى لن تعتبر « منى » ، غير صورة تمثلها ، لأنها لا تستطيع هى أن تحتل ذلك الموضع الذى تود أن تحتله .

لن تغار من « منى » أبداً .

لأنها ستعتبر كل لهفة على « منى » ، لهفة عليها .. وكل كلمة موجهة « لمنى » ، موجهة لها ، وكل ضحكة وكل ابتسامة وكل لفتة ، ستتلقاها هى .. وستستمتع بها هى

ولكن هل تستطيع « منى » ، أن ترد بالطريقة التى تحب أن ترد بها هى ؟

إن « منى » خفيفة عابثة وقد تصدمه بتصرفاتها الماجنة الضاحكة ، وهو لا شك قد كوّن لها فى نفسه صورة ، لا تلائم أبداً .. هذه الصورة التى ستبدو بها « منى » .

إن عليها أن تعلمها كيف تتصرف ، وكيف تتحدث .

أجل .. يجب ألا تخذله .

يجب أن تتصرف تماماً .. كما تتصرف « نادية » .

ولكن هل تستطيع ؟!

ولِمَ لا ؟! إن « منى » قد قرأت كل رسائلها ورسائله ، ولا شك أنها ستعرف ما يمكن أن تقول « نادية » ، وكيف يمكن أن تتصرف .

ولكن هل تستطيع أن تعرف كيف يمكن أن تحس ؟!

على أية حال .. تعرف .. أو لا تعرف ، ليس هناك مفر من هذا الحل .. إن المسألة كلها لن تعدو ، يوماً ، أو بعض يوم .. سيرحل هو بعده .

وإذا لم يرحل .. فليس هناك أسهل عليها من ادعاء السفر .

وكانت « منى » ترقب « نادية » فى شرودها .

وعندما انتهت « نادية » من سلسلة تفكيرها بتنهيدة راحة تساءلت « منى » ضاحكة :

ـــ ها .. لم تجيبى علىّ ؟!

وهزت « نادية » رأسها متسائلة ، فقد نسيت أن ترد على سؤال « منى » الذى دفع بها إلى هذا الشرود .

وعادت « منى » تردد سؤالها فى لهجة مرحة عابثة :

ـــ ماذا أفعل إن قبّلنى ؟!

وهزت نادية رأسها وأجابت مؤكدة :

ـــ لا تخافى .. لن يقبلك .

ـــ ولِمَ لا ؟!

ـــ أولا لأن العلاقة التى بيننا .. لا تسمح له بهذا .

ـــ وثانياً ؟!

ـــ لأن طبيعته لا تدفعه إلى مثل هذا النزق .

ـــ نزق .. يا مغفلة ؟! التقبيل نزق .. ها .. ما علينا .

وصمتت برهة ، ثم أردفت متسائلة :

ـــ وثالثاً ؟!

ـــ وثالثاً .. إن التصرف الذى ستتصرفينه .. باعتبارك أنا .. لا يمكن أن يدفعه إلى مثل هذا .

وقلبت « منى » شفتيها وقالت :

ـــ جائز .. جائز جداً .. لو أنى تصرفت فعلا .. كما يجب أن تتصرفى أنت .

ورفعت « نادية » إصبعها محذرة :

ـــ وبالطبع ستتصرفين كما يجب أن أتصرف أنا ؟!

ـــ طبعاً .. طبعاً .

وقفزت « منى » من مقعدها ، واختطفت إحدى زهرات القرنفل .. ثم قربتها من أنفها فى حركة تمثيلية ، وقالت ، وهى تسبل هدبها وتمد يدها بالزهرة :

ـــ وامدحتاه ؟! واحر قلباه ؟!

ولم تتمالك « نادية » نفسها من الضحك وصاحت بمنى :

ـــ أنا أفعل هكذا .. يا مهرّجة ؟!

ولم تجب « منى » .. واستمرت فى حركاتها التمثيلية صائحة وهى تركع فى وضع كليوبطرة :

هلمى الآن منقذتى هلمى   وأهلا بالخلاص وقد سعى لى

على نابيك من زرق المنايا   شفاء النفس من سود الليالى

ومدت « نادية » يدها فرفعتها من شعرها ناهرة :

ـــ انهضى وكفى استهزاء .. دعينا نتحدث بجد

ونهضت « منى » ، وهى تقول ضاحكة :

ـــ ألا تريدين أن أتصرف كما تتصرفين ؟!

وجذبتها « نادية » وأجلستها على المقعد قائلة :

ـــ اجلسى هنا .. يجب أن نتدبر الأمر جيداً .. ونضع خطة محكمة .. حتى لا ننكشف .

ـــ لا تخشى شيئاً دعى الأمر لى .

ـــ ماذا ستفعلين ؟!

ـــ عندما يحضر .. إما أن يرسل إنذاراً بحضوره .. تلغرافاً مثلا .. وفى هذه الحالة سأذهب وإياك لنلقاه على المحطة .. وسنراه بالطبع يقف فى النافذة ، برأسه المنحول ، وأنفه الطويل . وحاجبيه الثقيلين .

ـــ منى .. كفى عن الاستهزاء به .

ـــ هل قلت شيئاً من عندى ؟!

ـــ إنه ليس بمثل هذه الصورة القبيحة التى تصورينه بها .

ـــ متأسفة .. سنراه يقف فى النافذة .. بشعره الذهبى ، وحاجبيه الرفيعين .. وأنفه الدقيق .

ـــ منى .. كفى سخفاً .

ـــ حيرتنى .. لا يعجبك هذا ، ولا ذاك !! كيف أصفه إذن ؟!

ـــ لا تصفيه .. إنى أعرفه جيداً ، فلا ضرورة لوصفه ، ادخلى فى الموضوع .

ـــ دخلنا فى الموضوع .. سنراه يقف خلف النافذة ، بعينيه .. هل أصف عينيه ؟

ـــ لا ضرورة .. أكملى حديثك ، ماذا ستفعلين عندما ترينه يقف فى النافذة ؟!

ـــ سأرفع يدى وألوّح له .. بتؤدة .

— ولماذا التؤدة ؟

— هل أندفع إليه وأقفز لأحتضنه من النافذة ؟!

— لا هذا ولا ذاك .

— ماذا أفعل إذن ؟!

— ابتسمى ابتسامة من قلبك .

— أبتسم .. أجل .. ولكن من قلبى .. شيء لا يستطيع أحد أن يطلبه منى

— ابتسمى وكفى .

— ثم ؟!

— هرولى إليه .

— كيف أهرول ؟!

— أعنى لا تجرى كالمجنونة .. ولا تتباطئى فى بلادة .. أعنى تقدمى ، وفى وجهك لهفة .. وفى ملامحك فرحة .

— مفهوم .. مفهوم .. شيء طبيعى .

— مدى يدك للسلام عليه .

— هل أحتضنه ؟!

— أمجنونة أنت ؟ مدى يدك فقط ولا بأس من أن تضغطى عليها .

— وأبقيها فى كفه ؟!

— قليلا .

— وإذا حاول هو أن يبقيها أكثر ؟

— دعيها .

— وماذا بعد !. أين نذهب به ؟!

— نذهب به إلى فندق الميدان .. بعد أن يرفض دعوتنا إلى النزول فى المنزل .

— هبى أنه قبل !

— لا .. لا .. لن يرضى .

ــ افرضى !؟

ــ تبقى مصيبة .

ــ ولا مصيبة ولا حاجة ، نخبر « ماما » بالحقيقة .. وننزله فى إحدى الحجرات الخالية ، ونخبر أهل المنزل جميعاً بأن ينادوك باسم « منى » وينادونى باسم « نادية » .

ــ أعتقد أنه لن يقبل النزول فى المنزل .

ــ وبعد أن ينزل فى الفندق ؟!

ــ نطوف به فى البلد .. نريه كل الأماكن التى دعوته إليها .. ثم ندعوه إلى الغذاء فى النادى ثم نصعد به الجبل .. و ... ونفعل أشياء كثيرة .

ــ وماذا تفعلين أنت ؟!

ــ سأتصرف كأننى « منى » .

ــ هل تعرفين ؟!

ــ أتظنينها مسألة عسيرة ؟

ــ بالنسبة إليك .. أعتقد ذلك .

ــ أبداً .. سأقفز وأتواثب ، وأضحك وأمرح ، وأقول كلاماً كثيراً فارغاً .

ــ أما مجرمة .. أهذا كل ما ترينه فىّ ؟

وضحكت نادية :

ــ وأبدو طيبة القلب ، صافية النفس .. أحب الناس والحياة .. ولا أضمر ضغينة لأحد .. ولا أعادى أحداً .. بشوشة ، رقيقة . أتريدين أكثر من ذلك ؟!

وضحكت « منى » وضمت إليها « نادية » وهى تتساءل :

ــ أحقاً هذا رأيك فىّ ؟

ــ رأيى أنا فقط ؟. إنه رأى كل الناس .

وسمعتا صوت الأم يناديهما من أسفل :

ــ نادية .. منى .. ألا تنويان النزول للغداء ؟!

وأجابت « منى » :

ــ حالا يا ماما ..

وبدت نادية وقد غيمت على وجهها سحابة همّ فسألتها « منى » :

ــ ما بك يا نادية ؟!

ــ أبداً .. أفكر فقط فى الزيارة المتوقعة :

ــ ماذا تخشين منها .. ألم نحل مشكلة لقائه ؟!

ــ أجل .

ــ وسيمكث معنا بضع ساعات ثم يرحل .. وتعاودين الكتابة إليه كما تعوّدت ؟!

ــ أحقاً سيرحل ببساطة وبلا عواقب ؟! وهل يمكن أن أعاود الكتابة إليه كما كنت أفعل ؟!

ــ ولِم لا !! ما دمت أنت تريدين الكتابة إليه .. فإذا لم تريدى . فليس أسهل من أن تقولى له إنك ستسافرين . وإن عنوانك سيتغير وإنك سترسلين إليه بعنوانك الجديد .. ثم تتوقفين عن الكتابة إليه . وسيرسل لك بضع رسائل ، وعندما لا يجد رداً .. سييئس ويتوقف الأمر . معقول ؟

وهزت « نادية » رأسها وأجابت فى لهجة بائسة :

ــ معقول .

وقبل أن تغادر « منى » الحجرة قالت « نادية » وهى تفتح درجاً صغيراً فى دولابها :

ــ اسمعى يا « منى » .. إن رسائله كلها فى هذا الدرج .. وأعتقد أن من الأفضل أن تقرئيها كلها مرة ثانية حتى لا تخطئى فى المناقشة معه .

ونظرت « منى » إلى كومة الرسائل وبدا عليها الفزع وأجابت قائلة :

ــ يا نهار أسود .. أنا أقرأ كل هذه .. لا يا ست نادية .. يفتح الله .

ــ إنها لن تستغرق منك وقتاً طويلا .. إن خطه كبير .

ــ ولماذا أقرؤها ؟!

ــ لأنه قد يفيد لك بعض ما قاله فيها .

ــ ليعيد أو ينفلق .. أتظنينني سأسمعها له كالمحفوظات !

ــ أبداً .. تكون لديك فكرة عنها .

ــ إن لدىّ فكرة جيدة .. عن كل ما بها من سخافات ، أعرف « عصير القصب » الذى اشتراه لك .. و « البطاطا » ، التى بخل عليك بها .. وأعرف « الستين قرشاً » التى لهف بها القشدة هو وصاحبه الحلوف « جاد الله » .. هل تظنين معدته تعبت من قليل .. من « البطاطا .. والعصير .. والكميك قطايف » .. ماذا تريدين أن أعرف عنه أكثر من ذلك ؟!

ــ هل تعرفين أنه ترك ميرفت ؟!

ــ وأنا مالى .

ــ تركها من أجلك .

ــ أجلى أنا ؟!

ــ أعنى من أجلى أنا .

ــ حلال عليك »

وتريثت « منى » برهة ثم رفعت حاجبيها واتسعت حدقتاها وهتفت فى شبه ارتياع :

ــ اسمعى . هل تعنين أنه .. يجوز .. أن .. أقصد أنه يمكن .. أن يخطبنى ؟

وهزت « نادية » رأسها فى نفى بات وقالت :

ــ لا . لا . غير معقول . إن ما بيننا لا يمكن أن يدعوه إلى ذلك . إنه لم يشر مرة واحدة إلى شىء من هذا . غير معقول مطلقاً .

وهزت « منى » رأسها وتمتمت :

ــ والله يعملها .. مجنون .. مجنون .. لا يستبعد عليه أن يكون قد عمل كل هذه الرحلة لكى يخطب .. المجهولة التى تراسله من قمم الألب

وعادت « نادية » تهز رأسها نافية :

ــ غير معقول يا منى .. لا تكونى سخيفة .

ــ أنا السخيفة ؟ أنا التى أقوم بكل هذه الرحلة لمجرد أن فتاة كتبت إلىّ ؟.

وعاد صوت الأم ينادى الفتاتين :

ــ منى .. نادية .. الطعام برد .

وصاحت نادية :

ــ حالا يا ماما .

والتفت « منى » متسائلة :

ــ اسمعى .. هبيه قد فعلها ، وخطبنى .

وأحست « نادية » بنشوة من وقع الكلمة .. ولكنها ما لبثت أن طردتها من نفسها وأجابت بطريقتها النافية المؤكدة :

ــ يا منى يا حبيبتى غير معقول أن يفعلها .

ــ لنفرض أنه فعل .. ماذا أفعل أنا ؟!

وصمتت « نادية » برهة .. وبدا عليها شرود ، وعادت « منى » تستحثها متسائلة :

ــ ماذا أفعل .. لو فعلها ؟.

وأجابت « نادية » فى صوت خافت يائس :

ــ اعتذرى . قولى أى شىء .. قولى إنك لا تستطيعين . تصرفى .

ومرة أخرى عاد صوت الأم ينادى فى غضب :

ــ هل ستنزلان .. أم أرفع الطعام ؟

وأجابت الفتاتان وهما تهبطان الدرج : « سننزل »

(٣٨)

محاولة هروب ...

جلست « نادية ومنى » على مائدة الطعام ومعهما الأم وجانيت ، وكانت الجدة قد زحفت بمقعدها حتى استقرت بجوار المنضدة ، وبدا الشرود على وجه « نادية » ، وهى تزدرد طعامها .. ولم تكن « منى » أقل منها شروداً .. فقد استبد بذهنيهما هذا الحديث الذى دار بينهما فى حجرة « نادية » حول زيارة مدحت المتوقعة .. وكيفية مواجهتها .

ورأت الأم الصمت الذى ساد ابنتيها والوجوم الذى علا وجهيهما وقلبت البصر بينهما قائلة فى تساؤل :

ــ ماذا بكما ؟

وهزت « منى » رأسها وهى تمضغ قائلة :

ــ لا شىء .

وعادت الأم تتساءل غير مصدقة :

ــ أتعاركتما ؟..

وتضاحكت « نادية » قائلة :

ــ ليس بعد .

ــ إذن مالكما صامتتين ؟!

ورفعت « منى » كتفيها وأجابت :

ــ أنا شخصياً أفكر .

وتساءلت جانيت ضاحكة بالتعبير الإنجليزى :

ــ بنس لأفكارك .

وأجابت « منى » بالرد المألوف :

ـــ لا تستحق .

ـــ إذن قوليها مجاناً .

ونظرت « منى » لنادية وتساءلت :

ـــ أقول يا نادية ؟

ورفعت نادية حاجبيها متسائلة فى دهشة :

ـــ تقولين ماذا ؟.

ـــ ما أفكر فيه !

ونظرت إليها « نادية » محذرة .. ثم قالت وهى ترفع كتفيها فى غير اكتراث :

ـــ أنت حرة .. قولى ما تشائين .

ومدت « منى » يدها إلى طبق الفاكهة فأمسكت بتفاحة غرست فيها أسنانها ونهرتها أمها قائلة :

ـــ قشريها .

وأجابت « منى » :

ـــ لا ضرورة .. إن القشر ملىء بالفيتامينات .

وأحست « نادية » بشىء من الارتياح وهى ترى الحديث يتجه اتجاهاً آخر .. غير أفكار منى .

ولكن « منى » ما لبثت حتى عادت تقول وهى مستمرة فى قضم التفاحة بقشرها :

ـــ كنت أفكر أنا ونادية فى ..

وعادت تقضم التفاحة ، وتوترت أعصاب « نادية » وحملقت فى وجه « منى » واستمرت « منى » تقول :

ـــ كنا نفكر فى أن نقوم برحلة .

وتساءلت الأم :

ـــ إلى أين ؟!

وفكرت « منى » برهة ثم قالت :

ـــ إلى « بريانسون ، مثلا .. أو إلى « جرينوبل » .. أليس لك أقربـاء يستضيفوننا ؟! لقد مللنا « جاب » .

وهزت جانيت رأسها وقالت متسائلة :

ـــ كيف لا يكون لدينا أقرباء فى بريانسون وجرينوبل . إن لدينا أقرباء ومعارف فى كل بلدة فى فرنسا . إن أسرة ...

وقاطعتها « منى » قائلة :

ـــ لا نريد شرحاً لتاريخ الأسرة .. إننا باختصار نريد أن نغير مناظر .

وأجابت جانيت .

ـــ إن عمى ريمون وزوجته « سارة » يتمنيان أن تزوراهما فى أى وقت .

وتساءلت منى :

ـــ عمك ريمون من ؟ لم نسمع به من قبل .

ـــ إنه زوج عمتى .

ـــ هل سارة عمتك ؟

ـــ لا .. عمتى ماتت .. وقد تزوج بعدها سيدة من شابرى ثم ماتت .. وتزوج بعدها السيدة « سارت » وهى ..

وهزت « منى » رأسها فى يأس وقالت :

ـــ هل تظنين عمك ريمون .. بعد زيجاته الثلاث ما زال يذكر المرحومة عمتك .. حتى يتفضل بدعوتنا إلى منزله ؟.

وردت جانيت مستنكرة :

ـــ يذكرها !! إنه لم ينسها قط .. لقد قال فى آخر خطاب كتبه إلىّ ..

وضحكت « منى » وتساءلت فى خبث :

ـــ هل عمك ريمون هذا .. هو الذى يرسل إليك الرسائل الزرقاء ؟!

— أجل ..

ونظرت « منى » إلى أمها وتساءلت :

— ماما .. هل يجوز لزوج العمة أن يتزوج ابنة أخ زوجته ؟!

ورمقتها الأم بنظرة ناهرة وقالت :

— كفى عن هذا المزاح السخيف .

وضحكت « منى » وأجابت :

— إنى لا أمزح والله .. إنى فقط أتصور أن العم ريمون يعمل حساب عمتى جانيت .. فى مشروعاته المستقبلة .. بعد أن يأخذ الله السيدة سارة إلى جواره .

واحمر وجه جانيت وتصاعد الدم إلى أذنيها حتى أضحت « كالجزرة » وقالت لمنى » ناهرة :

— يا خبيثة .. ألا تكفى عن تفكيرك الخبيث ؟!

وردت « منى » قائلة :

— المهم .. هل عمك هذا .. على استعداد أن يستضيفنا ؟

وأجابت جانيت فى حماس :

— طبعاً .. إنه يعرفكم جيداً .. إنى أكتب إليه عنكم فى كل رسائلى .. وهو دائماً يبلغكم السلام وآخر رسالة سألنى متى ننوى أن نزوره .

وتساءلت « منى » فى خبث :

— نزوره ؟! أو تزورينه ؟!

— بل نزوره كلنا .

— هل لديه استعداد لأن يستضيفنا ، وأن يحتمل متاعبنا لمدة أسبوع ؟

وكانت « نادية » قد لزمت الصمت طوال المناقشة فقد كانت تعتبرها مجرد ثرثرة من « منى » .. فلما وجدتها تتساءل فى جد ، رفعت وجهها عن التفاحة التى انهمكت فى تقشيرها وتساءلت فى دهشة :

— أسبوع ؟..

وأجابت جانيت :

ــ طبعاً إنه يحتمل .. لقد سبق أن دعانا عدة مرات ، وقد قلت لأمكما .. ألم أخبرك يا لورا ؟

وهزت « لورا » رأسها فى ملل ، وقالت « لمنى » ناهرة :

ــ منى .. كفى عن هذا السخف .

ــ لماذا لا نذهب ؟!

ــ إلى أين ؟

ــ إلى بريانسون .. لنتنزه .. إنهم يقولون إنها مدهشة .

ــ لن ترى فيها أكثر مما ترين هنا .

ــ المهم أننا نغير المناظر التى حولنا . إن جابى وتونى ..

وقاطعتها الأم فى ضيق :

ــ ليس لنا بأحد شأن

ــ لماذا يا ماما ..

ــ لأننى لا أكاد أتحرك .. من حجرة إلى حجرة . ماذا يدعونى إلى الشحططة والمرمطة ؟!

ــ إذن ابقى أنت ، وسنسافر مع عمتى جانيت .

وقالت جانيت فى حماس :

ــ أجل .. إنى على استعداد لمصاحبتهما .. لا بد أن يريا المنطقة كلها .. فغير معقول أن تظلا مرابطتين فى « جاب » . لا بد أن تتنزها .. إن بيت العم ريمون يقع على شاطىء البحيرة ، والمنظر هناك عجيب ، والجبل جميل .

وقفزت « منى » من مقعدها واتجهت إلى الأم تحتضنها وتقبلها مستعملة معها وسيلتها المعتادة فى الإقناع .. وأخذت ترجوها متوسلة كأنها طفلة صغيرة :

ــ والنبى يا ماما .

وكانت « نادية » مطرقة ، متشاغلة بالتفاحة فى يدها ، وقد بدا الوجوم على

قسماتها .

ونظرت إليها « منى » ودهشت من إطراقها ووجومها .. فقد كان مفروضاً أن كل هذه المحاولات فى سبيل الرحيل عن « جاب » من أجلها هى .

لقد بدأت « منى » المحاولة بمجرد مناقشة يائسة لا طائل تحتها ، ولكن ها هى توشك أن تثمر عن رحلة حقيقية تبعدها عن « جاب » ، وتوفر عليها عملية الخداع والتمثيل التى فكرتا فيها .. إذا ما وقعت الواقعة وأتى مــدحت إلى « جاب » .. فلماذا تبدو « نادية » واجمة ؟. ولماذا لا تحاول أن تسهم فى عملية إقناع أمها ؟

ونظرت « منى » إلى « نادية » .. وهى منهمكة فى تقشير التفاحة ، وهتفت بها :

ـــ نادية .. مالك ساكتة .. ألا تريدين الذهاب إلى بريانسون ؟!

ورفعت « نادية » رأسها كأنها أفاقت من شرود بعيد .. وأجابت متسائلة :

ـــ بريانسون ؟!

ـــ أجل .

ـــ ألا تريدين أن نرحل عن « جاب » ؟

وأحست « نادية » أن خافقاً يدق فى حناياها ويكاد يهتف لا .. لا أريد أن أرحل عن « جاب » .. إن مدحت .. سيأتى .. سأراه .

إنه قد لا يميزنى ، ولكنى سأراه .

قد لا يعرف أنى أنا نادية .. نادية الحقيقية .. التى أحبته والتى كتبت إليه ، والتى تتلهف على رؤيته .

ولكن ماذا يهم إذا كان لا يعرفنى .. ما دمت سأعرفه ، وسأجلس إليه وأصحبه إلى الجبل .. وسأسير معه على الشاطئ البحيرة .. وأطل وإياه على الوادى الأخضر .. وأتطلع وإياه إلى القمم البيض !!

كيف أتركه وأفر ؟!

لأنه لن يعرفنى !

ومنذ متى قد عرفنى ؟!

لا .. لا .. إنى لا أريد الرحيل عن « جاب » سأبقى .. سأبقى حتى أراه ولو من بعيد .. يهبط من القطار وحده .. ويسير فى البلدة وحده .

وسأرقبه أيضاً ، وهو يرحل وحده .

سأجلس بعيداً لأودعه فى صمت .. كما ودعته فى النادى عندما رحلت عن مصر .. من بعيد ، ودون أن يحس بى .

لن يكون لوداعى .. معالم .. تماماً كما لم يكن لوداعى الأول معالم .

سأبقى .. سأبقى .

وعادت « منى » تكرر سؤالها فى لهجة مغيظة :

ــ نادية !! لماذا لا تجيبين ؟! أيعجبك البقاء فى « جاب » ؟!

ألا تودين الرحيل إلى بريانسون ؟!

وأجابت نادية فى صوت خافت ، وهى ترفع رأسها ببطء :

ــ ولِمَ لا !

و لم يعجب « منى » لهجتها الباردة فعادت تردد فى غيظ :

ــ ولِمَ لا !؟ أنت لا يهمك الأمر كثيراً ؟!

وهزت كتفيها فى استخفاف وأردفت قائلة :

ــ طبعاً ما دام العبء سيقع علىّ . ما دمت أنا التى سأ ..

وانتفضت « نادية » ونظرت إلى « منى » نظرة زاجرة وقاطعتها قائلة :

ــ قلت لك إنى أحب الرحيل إلى بريانسون .. أقول لك أكثر من هذا ؟!

وهزت الأم رأسها وقالت ، وهى تحيط « منى » بذراعها :

ــ يا منى يا حبيبتى .. ألا تخشعين ؟! ألا تهدئين فى مكان واحد ؟! كل هذه النزهات تقومين بها فى « جاب » .. ولا تكتفين !

ــ أى نزهات ! لقد مللت الصعود إلى الجبل والذهاب إلى النادى .

— إنى أخاف عليك يا منى .

— ممن ..

— من كل هذا الجهد الذى تقومين به

— « تانى » .. ألم نتفق على ألا نعود إلى هذا الخوف . لقد أثبت لك أنى أشد مائة مرة من ابنتك هذه التى لا تخشين عليها .. بالأمس تفوقت عليها فى « التنس » ، ومنذ يومين سبقتها فى الصعود فى الجبل .. وأنا على استعداد الآن لأن أدخل معها فى مصارعة أو ملاكمة .

ثم اتخذت موقف الملاكم وأردفت قائلة :

— ها .. إنى مستعدة .

ثم أقبلت على أمها تضمها إليها مرة أخرى قائلة فى توسل الأطفال :

— انتهينا يا ماما .. سنذهب إلى بريانسون ؟!

— بشرط .

— إنى أقبل كل شروطك .

— أن تأخذى بالك من نفسك .

— وألا أعرق وأجلس فى الهواء .. وألا أنهج .. وألا أعدو .. وألا أركب دراجة ، وألا .. وألا .. هل لديك شروط أخرى ؟!

ومالت على أمها تقبلها فى حنان وقالت متسائلة :

— أتدرين يا ماما لو نفذت شروطك لانتهى بى الأمر إلى أى شىء .

وهزت الأم رأسها متسائلة .. فأجابت منى :

— إلى أن يحملونى على نقالة فى كل حركة .

وأجابت الأم وهى تضمها فى حنان :

— بعد الشر .. إنى فقط أريدك ألا تجهدى نفسك .

— مفهوم ..

وقالت جانيت :

ـــ لا تخشى عليها .. سأكون أنا المسئولة عنها .. لن أتركها لحظة ..

ونظرت « منى » إلى جانيت وتساءلت فى خبث :

ـــ والعم ريمون ؟!

وضربتها جانيت على ظهرها بخفة وقالت زاجرة :

ـــ يا خبيثة .

واتجهت « منى » إلى « نادية » التى كانت لا تزال فى جلستها المطرقة الواجمة وقالت كأنما تحاول أن توقظها من شرودها :

ـــ هاى .. إلى أين وصلت ؟!

ولم تجب « نادية » .. فعادت « منى » تتساءل :

ـــ إلى منشية البكرى ؟!

ثم جذبتها من ذراعها واتجهت بها إلى الباب الخارجى وقالت متسائلة :

ـــ مالك يا نادية ؟!

ـــ أبداً .. لا شىء .

ـــ ألم تعجبك هذه المحاولة للزوغان ؟! أليس هذا ما كنت تتوقين إليه ؟

وأجابت « نادية » فى غير حماس :

ـــ أجل .

وعادت « منى » تقول وهى تهز رأسها فى دهشة :

ـــ أنت عجيبة يا نادية !! إنى لا أستطيع فهمك .

وانحنت « نادية » بطريقة غير إرادية لتقطف إحدى زهرات القرنفل التى تملأ الحوض القائم على مدخل الباب .

ونظرت إليها « منى » متسائلة :

ـــ ألم تكونى أنت الراغبة فى الهروب ؟

ـــ أجل .

ـــ إذن ما بالك لا تتحمسين له عندما نجحت فيه ؟

— لست أدرى ماذا سنعمل فى بريانسون ؟

— هبى أننا لن نفعل شيئاً .. ألا يعجبك أنه مجرد فرار من صاحبك المصر على المجىء ؟

وأجابت « نادية » وهى مستمرة فى شرودها :

— أجل .

وضغطت « منى » على ضروسها فى غيظ :

— اسمعى يا نادية .. أنا أريد أن أعرف بالضبط .. هل ترغبين فى لقاء مدحت ؟.

ونظرت إليها « نادية » نظرة شاردة ، وأجابت وهى تطلق تنهيدة طويلة :

— كيف أرغب فى لقائه ؟ كيف أجسر ؟

— وأنا أيضاً .. لا يهمنى لقاؤه .. فماذا يضايقك من الرحيل ؟

— أنا لم أتضايق .

— بل تضايقت .. أو على الأقل لم تتحمسى له .. هل أنت راغبة أن تدفعى بى إلى المأزق ؟

— أى مأزق ؟!

— أن أقوم . بدورك وأقابله ، وأطوف به .. وأحدثه حديث الهائمة .

وأجابت « نادية » فى غضب وقد احمر وجهها :

— إذا كنت لا تريدين هذا فأنا لم أكرهك عليه .

— يا نادية يا حبيبتى .. أنا لا أكره أن أقوم بأى شىء من أجلك .. حتى الموت من أجلك لا أكرهه ، ولكن .. نستطيع أن نجنب أنفسنا هذه الخديعة التى نوشك أن نقوم بها ، وما دمت أنت كنت تتمنين فرصة للرحلة ، فلماذا لا تتحمسين لها بعد أن أتحتها لك ؟

ومدت « نادية » يدها فأمسكت بيد « منى » وضغطت عليه قائلة فى حنان :

ـــ لا تتضايقي مني يا « منى » .. إني لا أفهم نفسي .. إني حقاً حائرة .

ـــ لا داعي أبداً للحيرة .. سنقوم بالرحلة إلى « بريانسون » مع عمتي جانيت .. فإذا أتى ونحن في السفر .. فبها ونعمت ، وإذا لم يأت فسنستقبله كما اتفقنا ، وسأفعل لك كل ما تودين .

وضمتها إليها وقبلتها في عطف ثم تساءلت :

ـــ اتفقنا ؟!

وأشارت « نادية » برأسها موافقة ، وعادت « منى » تقول :

ـــ اضحكي إذن .

وقبل أن تضحك « نادية » سمعت صوتاً يتساءل من ورائهما :

ـــ علام تضحكين ؟

ونظرت « منى » فإذا بجابي وتوني يقفان وراءها فأجابت « منى » :

ـــ لأننا سنذهب إلى بريانسون .

وصاحت جابي في فرحة ودهشة :

ـــ حقيقة ؟!

ـــ أجل لقد دعانا أحد أقرباء عمتي جانيت .. وسنذهب لقضاء بضعة أيام .

وصاح توني :

ـــ هائلة .

ونظرت « منى » متسائلة :

ـــ ما هي ؟!

ـــ سنسافر سوياً .. لقد اقترح أبي علينا أن نذهب معه . فلم نتحمس كثيراً لاقتراحه .. فإذا كنتما مسافرتين حقاً .. فسنصر على الذهاب معه .

وقالت « جابي » في فرح :

ـــ ستكون رحلة مدهشة .. هل سبق لك الذهاب إلى هناك يا نادية ؟!

وهزت « نادية » رأسها بالنفي ، وعادت « جابي » تقول في حماس :

ـــ إنها مكان مدهش .. إنها أعلى قمة فى هذه المنطقة كلها والطريق إليها فى منتهى الجمال .

وتساءل تونى :

ـــ هل تسافران معنا ؟!

وأجابت « منى » :

ـــ إذا كان لديكم مكان لعمتى جانيت .. فسنسافر طبعاً .

وسألت جابى :

ـــ وماما ؟..

ـــ ستبقى مع جدتى .

وهز تونى رأسه .. وقال :

ـــ سنسافر كلنا معاً .. سنأخذ عربة « رالى » .. إنها لا شك سترحب بالمجىء معنا .

وفى صبيحة اليوم التالى ، وقبل أن ترسل الشمس أشعتها من وراء الأفق .. كانت العربتان تتحركان من « جاب » فى الطريق الصاعد إلى « بريانسون » ، وكان الكبار قد تجمعوا فى عربة ، وضمت العربة الأخرى نادية ، ومنى ، وتونى ، وجابى ، وبقية الشلة وقد تعالى ضجيجهم وغناؤهم .

وكانت الفرحة تبدو فى وجوه الجميع .. والمرح يتواثب فى قسماتهم .. وكانت المناظر الرائعة تترامى على جانبى الطريق .. وندى الصباح يتلألأ على صفحات الأوراق الخضر الناضرة المتهدلة على جوانبه .. وكانت مساقط المياه تتدفق منحدرة فى صخب عنيف أحياناً .. وفى خرير ناعم أحياناً أخرى .

وفى الوديان البعيدة تبدو الغدران وقد تجمعت فيها مياه المساقط .. وأخذت تتدفق بين الصخور والأعشاب .. تلتقى حيناً فى أنهر عريضة وتفترق حيناً فى جداول ضحلة كالشرايين الرفيعة .. والكبارى تبدو معلقة بين أطراف الجبال كأنها الأرجوحات تهتز فى مهب النسيم .

وأشعة الشمس تتسلل حمراء قانية لتصبغ كل هذا .. بلون الأرجوان ، وتبدى الكون فى روعة مذهلة .

و « نادية » .. تشارك فى الضحك ، وأسنانها البيض المنظمة تلمع بين آونة وأخرى فى انفراجة شفتيها .

وهى تحس بالجمال الرائع من حولها .

وتحس بالنشوة والفرحة التى تغمر الرفاق الضاحكين من حولها .

ولكنها مع كل هذا الضوء المحيط بها تحس بشىء قاتم فى باطنها .

ولم يكن هذا الشىء القاتم الكامن فى باطنها .. بالشىء الجديد عليها .. فقد كان يرسب دائماً فى أعماقها .. ولكن إحساسها به قد زاد وهى تحس بالعربة تحملها بعيداً عن « جاب » . عن البلدة التى طافت بكل قمة من قممها وذراعها فى ذراعه .. والتى جلست وإياه على شاطىء بحيرتها .. واصطلت وإياه بنار مدفئتها .. والتى تحس بعد كل هذا .. أنه سيحل بها ، ويطوف بربوعها .

وكانت بنفسها حيرة وقلق .

لماذا تطمع فى لقائه .. وهى قد وطنت نفسها على عدم اللقاء !! على البعد .. والأوهام والأحلام !

أليس من الخير أن تجنب نفسها هذه التجربة التى قد تطيح بكل أحلامها وأوهامها ؟

وهمت بأن تستمر فى دورة تفكيرها وحيرتها وتساؤلها عندما أحست بأصبعى « منى » تجذبانها من أرنبة أنفها وتصيح بها ضاحكة :

ـــ هاى .. نحن هنا .. فى الطريق إلى بريانسون .. فى الطريق إلى أعلى قمم الألب .. فى الطريق .. إلى الله .

ورفعت « منى » ذراعيها إلى أعلى فى طريقة تمثيلية وهتفت :

ـــ إنى صاعدة إلى الله .

وأحست « نادية » بانقباض من قول منى وهتفت بها :

ـــ لماذا تقولين هذا الكلام السخيف ؟! تفى من بقك .

وتساءلت « منى » ضاحكة :

ـــ سبع تفات ؟

ـــ أجل .

ـــ على وجهك ؟

ـــ على وجهى .. على وجهى .. تفى قلت لك .

وأصدرت « منى » من شفتيها أصوات تف سبع مرات .

ثم هزت رأسها ضاحكة :

ـــ لن تتقدمى أبداً .. ستظلين هكذا كالولايا .. أفى قمم الألب تقولين لى تفى من بقك ؟!

ـــ لا تعودى إلى السخافات التى تقولينها .

ـــ أتظنين السبع تفات ستقينى من الموت ، وتمنعنى من الصعود إلى الله ؟!

ـــ قلت لك لا تكررى هذه السخافات إنى أتشاءم منها .

ـــ انتهينا .. اضحكى .. إياك أن تسرحى .. وإلا عاودت الصعود إلى الله .

وصاح تونى بالأختين وقد ملّ حديثهما بالعربية :

ـــ أيتها البربريتان .. كفا عن الرطانة بهذه اللغة .. وخبرانى ماذا تقولان .. أتتآمران علينا ؟.. ماذا تريدان بعد أن أخذتما قناة السويس .. وصفعتنى إحداكما قلماً .. كأنما نحن الذين لطشنا القناة .

وصاحت به « منى » :

ـــ يبدو أنك تريد قلماً منى هذه المرة .. أحذرك من أن تعود إلى تسمية التأميم باللطش .

ـــ تأميم .. لطش .. لن أعود إلى ذكر القناة بعد هذا . على ألا تتكلما بالعربية .

واندمجت الأختان فى الحديث والغناء مع « الشلة » .. حتى وصلت العربتان

أخيراً إلى مدخل بريانسون .

وأخذت جانيت تقودهم فى طريقها حتى وصلوا إلى بيت العم ريمون .. وبدا المسكن أقرب إلى الكوخ منه إلى المنزل .. بجدرانه الخشبية القديمة .. وسقفه المائل .. وشرفته العريضة المطلة على البحيرة .

ولم يكد العجوز صاحب البيت يتحقق من زوّاره حتى هتف فى حماس :

— أخيراً جئت بقريباتك المصريات ؟

واندفع إلى الجمع مرحباً .. وهبطت نادية ومنى وجانيت من العربة .. ولحقت عربة تونى بالعربة الأخرى متجهين إلى فندق قريب من البيت بعد أن اتفقوا على موعد اللقاء .

ووقفت « منى » ترقب المنظر من حولها مأخوذة بروعته ، ولمحت قارباً على شاطىء البحيرة فهتفت فى سعادة :

— مدهش .. كل شىء كما أحب .. سأجدف .. وأعوم ، وأتسلق الجبل ... وهذه دراجة .. بجوار البيت .. سأركبها أياً كان صاحبها .. ماذا بقى بعد ذلك ؟!

ونظرت إليها « نادية » وهزت رأسها وأجابت فى سخرية :

— بقى أن ترقدى صريعة ، بعد أن تفعلى كل هذا الجنون .

وقلبت « منى » شفتها السفلى وقالت مقلدة نادية :

— ما هذا الكلام السخيف .. تفى من بقلك سبع تفات .

وأسرعت « نادية » تنفذ الأوامر وقد بدا عليها الندم على ما قالته .. وأمسكت بذراع « منى » وقالت محذرة :

— اسمعى .. إياك أن تفقدى عقلك وتدورى كالمطيورة . لتفعلى كل هذه السخافات التى قلتها ؟!

— ماذا أفعل إذن ؟!

— افعلى كما سأفعل .

ـــ أجلس لأسرح فى جزّار الدمرداش ؟!

ـــ أنا لا أسرح فى أحد .

ـــ لا تغضبى .. أنا التى أسرح .. هل تريدينني أن أجلس أمام البيانو لأعزف .. القطعة الجنائزية التى لا تكفين عن عزفها ؟!

ـــ اسمعى يا منى يا حبيبتى .. أنا لا أطلب منك سوى أن تكونى عاقلة .. لا تنطلقى كالمطيورة .. حتى تخرى من فرط التعب .

ـــ لك علىّ هذا .

وكان العجوز ريمون قد انهمك فى الحديث مع جانيت ونظرت إليهما « منى » وقالت فى صوت خافت :

ـــ أقسم لك .. أن جانيت ستكون الزوجة الرابعة للعم ريمون بعد وفاة العمة سارة .

وقبل أن تدخل الأختان الكوخ .. وثبت « منى » على الدراجة واندفعت تعدو بها على شاطىء البحيرة .

(٣٩)

لو ينسانا ...

عادت «منى» إلى الكوخ بعد جولتها بالدراجة .. وأخذ تقفز درجاته الخشبية .. فى خفة ومرح ، وانطلقت تتجوّل فى حجراته ، وهى تصفر بفمها ، وهتف العجوز ريمون ضاحكا :

ــ لعل كوخنا المتواضع قد أعجبك أيتها المصرية الجميلة ؟

ــ أعجبنى فقط ؟ إنه رائع .

وكان الكوخ رائعاً حقاً .. بقاعته الرحبة ذات المدفأة الضخمة التى علق فى صدرها رأس حيوان بقرونه الملتفة ، وعلق على جدرانها صور زيتية لرجال بأزياء رسمية .. وشوارب مبرومة ، ونساء كشيفات الحواجب واسعات الأفواه قد فرقن شعورهن من منتصف الرأس وتدلت ضفائرهن على الأكتاف ، وصور أخرى لمناظر صيد ومناظر طبيعية للجبال والبحيرات .. ومجموعة من السيوف والبنادق احتلت بقية الأماكن الخالية من الجدران .

كانت حجرات الكوخ تحيط بالقاعة ، وكانت « نادية » قد استقرت فى إحداها تمارس عمليتها المعتادة فى نقل الملابس من الحقائب إلى الدولاب .

ونظرت إليها « منى » وهتفت :

ــ إن المكان مدهش .. لقد قمت بجولة سريعة بالدراجة ، على شاطىء البحيرة ، وفى الشوارع المحيطة بنا .. ألا تنوين الخروج ؟!

ونظرت إليها « نادية » فى غيظ وتساءلت :

ــ وهذه الملابس المكدسة فى الحقائب .. من الذى سيعلقها ؟ .. خدامين أبونا !

ــ يا ستى .. عندما نعود يحلها ربنا .

وانحنت فوق حقيبتها وأخذت تبحث بين الملابس المطبقة حتى أخرجت شورتاً كحلياً سرعان ما دست فيه ساقيها ووقفت تتلفت حولها متسائلة :

ــ ألا توجد هنا مرآة ؟!

ثم وقع بصرها من فتحة الباب على العجوز ريمون وقد بدا وجهه كواد ملىء بالأخاديد ، وقد جلس على مقعد أمام المدفأة يملأ غليونه بالتبغ ، وأردفت « منى » تقول :

ــ من مصلحة سكان البيت ألا يكون به مرايا .. حتى لا يروا أنفسهم .

ومدت « نادية » يدها وفتحت ضلفة الدولاب فبدت مرآة فى داخله ، وقالت لمنى :

ــ إنهم يرون أنفسهم سراً ..

ووقفت « منى » تصلح « الشورت » والقميص أمام المرآة..

ومدت إحدى ساقيها متخذة وضعاً استعراضياً وأطلقت بفمها صفير إعجاب ، وقالت مازحة :

ــ يا سلام عليك يا منى .. زى اللوز .

وهمت بالخروج ، وهى تتحرك على أطراف أصابعها كما تتحرك راقصات الباليه ، وتساءلت « نادية » ، وهى تعلق أحد الفساتين على الشماعة :

ــ إلى أين !؟

وفتحت « منى » ذراعيها ، وأخذت زفيراً طويلا ، وقالت فى لهجة ملؤها الجذل والابتهاج :

ــ إلى الدنيا .. إلى الحياة الحلوة .

وأجابت « نادية » ، وهى تهز رأسها فى استخفاف :

ــ ألا تعقلين ؟ ..

ــ ألا تعقلين أنت ! .. إنك تضيعين نصف عمرك فى تطبيق الملابس

وتعليقها ، والنصف الآخر .. فى نزهات على الورق .. وجولات فى الرسائل .

ولم تجب « نادية » بل استمرت فى تنظيف الدولاب وتعليق الملابس به ..

وعادت « منى » تتساءل قبل أن تغادر الحجرة :

ــ ألا تأتين معى للتجديف فى البحيرة ؟!

والتفتت إليها « نادية » وقالت مستنكرة :

ــ أتنوين التجديف ؟!

وهزت « منى » رأسها قائلة :

ــ أجل . مالك تقولينها باستنكار كأنى سأرتكب منكراً !

ــ ألم تقل لك ماما ألا تجهدى نفسك ؟!

ــ ومن قال إنى سأجهد نفسى .. إنى سأجدف .. بلا أى إجهاد .

ــ هكذا !؟

ــ أجل هكذا .. سأضرب بالمجدافين بمنتهى الخفة .. وبلا أى جهد .

وأطلقت « نادية » زفرة غيظ ، وقالت راجية :

ــ يا منى يا حبيبتى .. اعقلى ودعى الرحلة تمر على خير .

وهتفت « منى » محذرة :

ــ اسمعى يا نادية .. أرجوك أن تكفى عن اتخاذ موضع الأم منى .. إنك لست أكبر منى ، وأنا أعرف كيف ...

وقاطعتها « نادية » فى ضيق :

ــ انفلقى .. افعلى ما تشائين .. أنت لست صغيرة .

وانطلقت « منى » من الحجرة .. وعند عبورها القاعة .. سألتها جانيت :

ــ إلى أين ؟!

ــ إلى البحيرة .

ــ ألا تنتظرين حتى تأتى مدام ريمون ؟!

ــ وأين هى ؟!

وأجاب العجوز ريمون :

— ذهبت إلى السوق .. إنها ستسر جداً بقدومك .. لقد ضقنا بالوحدة ذرعاً .

— سأعود بسرعة . إنى سأخرج بالقارب فى جولة قصيرة .

وتساءل العجوز :

— هل تستطيعين استعماله ؟

— وهل استعماله مشكلة ؟

— أبداً .. إنه خفيف جداً . وليس عليك إلا أن تفكى الوثاق الذى يشده إلى الشاطئ .. وتضربى بالمجدافين .

ولوّحت « منى » بيدها .. ثم انطلقت تعدو إلى الخارج .

وكان القارب قد ربط فى جذع إحدى الشجيرات المتكاثفة على الشاطىء ، ولم يصعب على « منى » فك الوثاق .. وقفزت إلى القارب فى خفة .. واتخذت مكانها على العارضة وأمسكت بالمجدافين ، ولم تكد تضرب بهما أول ضربة على سطح البحيرة حتى سمعت هتافاً يصيح بها :

— منى .

والتفتت لتجد جابى وتونى ينحدران من ربوة تشرف على البحيرة بجوار الكوخ .. وقد أخذا يلوّحان لها .

وانتظرت « منى » حتى وصلا إلى شاطىء البحيرة .. وهتفت بها جابى متسائلة :

— إلى أين ؟!

— جولة بالبحيرة .

— وحدك .. يا خائنة !

— وحدى لأنى لم أجد من يأتى معى .. إن « نادية » منهمكة فى ترتيب الملابس وتنظيف الدواليب .

ــــ لماذا لم تنتظرينا ؟!

ــــ ظننتكما ستتأخران .

واقتربت « منى » بالقارب من الشاطىء وأردفت قائلة :

ــــ هيا بنا .. اهبطا .

وقفز الاثنان إلى القارب .. وكاد توازنه يختل ، ومضت برهة ، وهو يتأرجح ويهتز حتى عاد إلى ثباته .. وقبل أن ترفع « منى » المجدافين لتضرب بهما الماء سمع صوت آخر يهتف ، وظهرت « سالى » تهبط من نفس الربوة وتشير إليهم بالانتظار . وقالت منى :

ــــ إن القارب لن يسع أكثر من هذا .. قل لها يا تونى أن تنتظر حتى نعود .. ونستطيع أن نخرج بها فى جولة أخرى .

ووضع تونى كفيه حول شفتيه كالبوق وصاح بسالى :

ــــ سنعود حالا .. القارب لا يتسع لأكثر من هذا .. سآخذك أنت ونادية فى جولة أخرى .

وضربت « منى » سطح الماء بالمجدافين فتطاير الرذاذ .. وأصاب بعضه تونى فصاح بمنى ، وهو يقف نصف وقفة :

ــــ ناولينى المجدافين سأجدف أنا :

وصاحت به « منى » آمرة :

ــــ اجلس مكانك .. أنا التى سأجدف .. ماذا تظننى ؟ غشيمة !.

وعادت « منى » تضرب سطح الماء بالمجدافين ، وفى كل مرة يتعالى الرذاذ فيصيب الراكبين ، ويحاول تونى أن يأخذ المجدافين فتهدده قائلة :

ــــ اجلس مكانك والا قلبت بك القارب .

واستمر القارب .. يجرى على سطح البحيرة ، واستمرت ذراعا « منى » فى حركتهما الدائرية بالمجدافين .. وأخذ صدرها يعلو ويهبط وبدأت أنفاسها

تتلاحق .

وقالت لها جانى متسائلة :

ـــ هل تعبت يا منى ؟!

وأجابت « منى » بين أنفاسها المتلاحقة فى إصرار وعناد :

ـــ ليس بعد .

وبعد فترة نظرت جانى إلى الساعة ، وقالت لمنى :

ـــ أظن الوقت قد حان لنعود .

وكانت « منى » قد أحست بالتعب فعلا .. فقد أخذت عضلات ذراعيها فى التصلب وازداد تلاحق أنفاسها

واقترب القارب مرة أخرى من الشاطىء حتى توقف عند مرسى بجوار الشجرة ، وتركت « منى » المجدافين وأخذت شهيقاً طويلا ثم أطلقت زفرة أطول .. ومدت ذراعيها تحركهما حتى تزيل عنهما تصلب عضلاتهما ثم قفزت من القارب فى خفة وتبعتها جانى ، ووقف تونى فى القارب ينفض عن ثيابه الرذاذ الذى علاها من ضربات المجداف .

وقالت « منى » فى تفاخر :

ـــ ما رأيك فى تجديفى ؟!

وأجاب تونى ساخراً :

ـــ ممتاز .. ممتاز .. جعلنى أستحم وأنا فى القارب . ونظرت إليه « منى » وتساءلت :

ـــ هكذا !

وبسرعة مدت قدميها ثم ضغطت بها على حرف القارب .. واهتز القارب ، وأحس تونى بأن توازنه قد اختل فجأة .. وحاول أن يميل ليحفظ توازنه .. ولكن الدفعة كانت مفاجئة .. ولم يجد هناك ما يتعلق به .. ووجد نفسه مضطراً إلى أن يقفز فى الماء .

وصاحت « منى » ضاحكة وهى تفر هاربة :

ـــ تستطيع الآن أن تستحم فى البحيرة .. ما دام الاستحمام فى القارب لا يعجبك

وخرج تونى من البحيرة وقد أغرق بنطلونه بالماء .. وانطلق يعدو فى أثر « منى » .. وجرت جابى تتبعهما ضاحكة .

واندفعت « منى » تتسلق الربوة .. وانطلقت تعدو بين الدروب الملتوية التى تتخلل الشجيرات والأحراش .

وطال بها العدو حتى أحست بأنفاسها تتلاحق فى شدة وقلبها يدق فى عنف .. وفجأة أحست بأن شيئاً يخز صدرها وأصابها دوار جعل الأرض تميد بها .. والمرئيات تختلط فى ناظريها .

وتوقفت « منى » مكانها .. ومدت يدها تتلمس شيئاً تستند إليه وقد أحست أن ساقيها لم تعودا تقويان على حملها .

ومرة أخرى عاد الشىء يخزها فى صدرها وأحست بصدرها يتمزق .. و « بأكلان » يدفعها إلى السعال .. وسعلت بضع سعلات قصيرة جافة .

ووصل إليها تونى ومد يده فأمسك ذراعها وبدأ يلويها ولكنه لم يكد يشد عليها حتى وجدها تتهاوى بين يديه .. ونظر إلى وجهها فإذا به قد علته صفرة شديدة .. فخر بجوارها وهتف فى جزع :

ـــ منى !! مالك ؟!

وكانت « جابى » قد وصلت إلى مكانهما وخيل إليها أن تونى قد أوقع « منى » على الأرض فصاحت به ناهرة :

ـــ اتركها ياتونى . إياك أن تفعل بها شيئاً .

ونظر تونى إلى أخته وقد فغرفاه وملأ الجزع ملامحه .. وهتف فى ذعر :

ـــ أنا لم أقربها .. أنا لم أفعل بها أى شىء ، إنها هى التى وقفت مكانها .. واستندت إلى الشجرة .. و لم أكد أمسك يدها حتى تهاوت على الأرض .

ونظرت « جابى » إلى « منى » فوجدتها قد أسندت كتفها اليمنى إلى جذع الشجرة ومالت برأسها عليه وقد أغمضت عينيها وبدا على ملامحها إعياء شديد .. ووضعت يدها اليسرى بالمنديل على فمها .. وقد أخذ جسدها يهتز من السعلات القصار التى يكبتها المنديل الملصق بكفها على شفتيها .

وركعت « جابى » بجوارها ومدت كفيها تتحسس جبينها وهمست بها فى رفق :

ــ ما لك يا منى ؟!

وهزت « منى » رأسها هزات خفيفة .. كأنما تحاول أن تنفى أن بها ألماً .

وعاد الشيء الذى يمزق صدرها .

وازدادت السعلات شدة .

ولم تقو يدها بالمنديل على كبت السعلات .. فانطلقت إحداها .. لتغرق المنديل دما .

وبدا الروع على وجه « جابى » .. وهتفت بمنى :

ــ منى .. لا بد أن نعود إلى البيت .. لقد جرح زورك .

وفتحت « منى » عينيها فى إعياء ونظرت إلى المنديل وأحست كأن قواها تتسرب منها كما يتسرب الماء من بين الأصابع وقالت فى لهجة ملؤها الاستسلام :

ــ إنه ليس زورى .. إنه صدرى . إنى أحس به يتمزق .

وهزت « جابى » رأسها وهى تنفى فى جزع :

ــ لا .. لا .. لا تقولى هذا .. لقد أجهدك العدو .. وجرح الصياح زورك .

والتفتت إلى « تونى » الذى بدا عليه الذهول وقالت :

ــ هيا يا تونى .. لا بد أن نعود بها إلى البيت .. إنها تحتاج لبضع ساعات راحة .

وأمن « تونى » على قولها :

ــ أجل .. إنها لم تسترح منذ أن غادرنا « جاب » .

ومد « تونى » يديه محاولا رفع « منى » ولكنها هزت رأسها قائلة :

ــ إنى سأسير بينكما ، وأتكىء على كتفيكما .. إنى أحس بأنى قد تمالكت قواى .

ومد «تونى وجابى» ذراعيهما وساعداها على النهوض.. واتكأت بذراعيها على كتفيهما وهى تحاول التماسك .. وسارا بها برهة حتى اقتربا من الكوخ .

ومرة أخرى .. أحست بالدّوار يعاودها .. وبقواها تتسرّب منها .. وكأن شيئاً يجذبها إلى أسفل .. وعادت السعلات المتقطعة تمزق صدرها .. وأخذ جسدها يتراخى ، وكادت تتهاوى إلى الأرض .. فأسرع « تونى » إلى رفعها بين ذراعيه .. وحث الخطا تجاه الكوخ .

وعدت « جابى » أمامه تفتح له الباب وتفسح له الطريق .

وكانت « نادية » قد وقفت فى القاعة تتلقى ترحيب العجوز البدينة زوجة ريمون بعد أن عادت من السوق .. وتجيب على سؤالها عن « منى » بأنها قد خرجت للتجديف فى البحيرة .. وأنها لا بد أن تكون فى طريقها إلى البيت .

ولم تكد « نادية » تنتهى من قولها حتى فوجئت باندفاع جابى .. وقد بدا على وجهها أمارات الجزع .

وقبل أن تستفسر « نادية » عما بها .. فوجئت بتونى يجتاز الباب حاملا « منى » بين يديه وقد تدلى رأسها وبدا وجهها فى اصفراره المروع .

وصرخت « نادية » واندفعت إلى أختها صائحة :

ــ منى !! حبيبتى منى .. مالك يامنى ؟!

وسار تونى فى خطاه المتثاقلة حتى وضع حمله على أقرب فراش .

وأجابت « جابى » محاولة أن تطمئن نادية :

ــ لا تخافى يا نادية .. لقد أجهدها العدو .. إنه مجرد إجهاد .. لا تجزعى هكذا .. إنها ..

وقبل أن تكمل « جانيت » كلامها .. لمحت « نادية » .. بقعة دم على صدر « منى » فانطلقت منها صرخة حادة ، واندفعت تضمها إلى صدرها .. وتقبلها فى لهفة وجزع وتبلل وجهها بالدموع المنهمرة من مقلتيها ، وهتفت فى صوت متشنج باك :

ـــ يا حبيبتى يا منى .

وفتحت « منى » عينيها وحاولت جهدها أن تتماسك .. ورسمت ابتسامة باهتة على شفتيها وأجابت :

ـــ لا تخافى يا نادية .. ليس بى شىء .. إنه مجرد إجهاد . لقد عدوت كثيراً .

وخرت « نادية » على ركبتيها بجوار الفراش ، واستمرت تضم « منى » إليها وتقبلها ، ودموعها لا تكف عن الانهمار ، وهى تتساءل فى صوتها الباكى الأليم :

ـــ يا منى لِمَ فعلت هذا ؟! لماذا لم تسمعى كلامى يا حبيبتى !

ثم وضعت رأسها فى كفيها وازداد نحيبها .. وقالت وهى تهز رأسها فى يأس :

ـــ أنا السبب فى كل هذا .. كان يجب ألا أتركك تخرجين .. بل كان يجب ألا أوافقك على المجىء إلى هنا .

وكانت « منى » قد بدأت تستعيد قواها فمدت يدها تتحسس رأس « نادية » وتقول لها :

ـــ لِمَ كل هذا يا نادية !؟ قلت لك إنى بخير .. وبعد أن أستريح برهة .. سأعود كما كنت .

ونظرت « نادية » إلى بقعة الدم على صدرها ثم عضت شفتيها حتى كادت تدميهما ، واندفعت فى بكائها .

واقتربت جانيت من نادية ، ومدت يدها ترفعها وتقول لها فى لهجة ناهرة :

ـــ نادية .. ما هذا الذى تفعلين ؟! إن أختك بخير .. كفى عن هذا البكاء الأحمق .. يجب أن تكونى أكثر تجلداً . ما هكذا يفعل العقلاء ؟

وحاولت « نادية » أن تكبت بكاءها .. ورفعت يدها تكفكف دمعها وتمسح عينيها ، وقالت وهى تزدرد ريقها :

ــ أنا متأسفة .. أنا فقط .. أنا .. أنا أعلم أنها بخير أجل إنها بخير .. ولكنى أخشى عليها .. أخاف ...

وأقبل العجوز ريمون .. يربت ظهرها قائلا :

ــ لا تخافى يا بنيتى .. لقد أرسلت فى استدعاء الطبيب وسيصبح كل شىء على خير ما يرام .. ثقى بالله يا بنيتى .. إنها لا تحتاج إلى أكثر من الراحة .

وأحست « نادية » بشىء من السكينة ، وهى ترى « منى » تستعيد قواها شيئاً فشيئاً ، واستطاعت « منى » بقدرتها على المرح وبالأمل الزاخر الذى يقبض بنفسها ، أن تمنحها بعض الطمأنينة .

وحضر الطبيب .. ولم يغير حضوره من الأمر الواقع شيئاً .. إذ لم يكن هو نفسه .. بهيكله العجوز المتداعى .. وسمعه الأصم ، ويده المرتجفة .. يمنح فى النفس أى إحساس بالثقة .. وكان كل ما فعله هو أن نصح بأن تنقل إلى المستشفى وتعرض على أخصائى فى أمراض الصدر .

وعاود اليأس « نادية » .. بمجرد أن انصرف الطبيب .. وملأ نفسها حزن قاتم مقبض .. ولكنها كرهت أن تستلم للانفعال .. وأن تندفع مرة أخرى فى بكاء متشنج لا يجدى نفعاً .. وأحست أنها يجب أن تقاوم وتتجلد لأن عليها أن تتصرف بطريقة ما .

وتملكها الخوف وهى تجد نفسها وحيدة بعيدة عن أمها وعن بيتها .

وكانت « منى » ترقد فى فراشها .. وقد ذهبت عنها الآلام وانقطع السعال . وبدا عليها الهدوء والاستسلام .

وكان الجمع قد وقف فى القاعة يتدبر الأمر فى مناقشة تشبه التهامس .

وكان المسيو « كيلى » والدجانى وتونى ، قد وصل عندما أبلغه تونى النبأ وجلس مطرقاً فى حزن .

وقال العجوز ريمون وهو ينفض غليونه على حرف المدفأة :

— إن أقرب مستشفى نستطيع أن نجد فيه أخصائياً .. يبعد عن هنا مسافة ساعة على الأقل .

وقال « كيلى » وهو ينظر تجاه الحجرة التى رقدت فيها « منى » :

— ساعة أو أكثر .. لا بد أن ننقلها .

وتساءلت مدام ريمون :

— ولكن هل نستطيع نقلها الآن ؟

وقالت جانيت :

— لماذا لا نسأل الطبيب ؟!

— وقال « تونى » وهو ينفخ بأنفه ساخراً :

— أى طبيب ؟! إنه يكاد يعيش .

وهز كيلى رأسه .. وقال فى حزم :

— رأيى أنا أن ننقلها حالا .

وعقب تونى على قوله :

— والعربة موجودة على الباب .

وهزت العجوز مدام ريمون رأسها قائلة :

— اتركوها تستريح .. وستقوم مرة أخرى كالحصان .. لتلهو وتلعب .

ورفع زوجها حاجبيه وعقب ساخراً :

— وتسقط مرة أخرى ؟

ونهض « كيلى » وهو يقول :

— إذا كانت حالتها تحتمل الانتقال فسننقلها .. وإذا لم تكن ، فلننتظر حتى تتحسن حالها ثم ننقلها .

وأطرقت جانى وتساءلت :

— وإذا لم تتحسن ؟ أعنى .. إذا لا قدر الله حدثت مضاعفات جديدة ؟

ورفع العجوز ريمون كفيه قائلا :

ـــ يدبر الله أمرها .

وأقبلت « نادية » من حجرة « منى » وكأنها تحمل عبئا أنقض ظهرها .. وقد بدت علامات اليأس والذهول فى وجهها .. وكانت قد سمعت الطرف الأخير من المناقشة .

وسألتها جانيت :

ـــ ما رأيك يا نادية ؟

وأجابت « نادية » فى شرود :

ـــ فى أى شىء ؟!

ـــ لقد اتفقنا أن ننقل « منى » إلى المستشفى بمجرد أن تحتمل ذلك .

وعقب تونى قائلا :

ـــ إن المستشفى يبعد عن هنا حوالى ساعة .

ورفعت « نادية » حاجبيها وتساءلت :

ـــ ولماذا لا ننقلها إلى جاب ؟!

وتساءل العجوز ريمون فى دهشة :

ـــ جاب ؟

ـــ أجل .. إن الذى يجعلها تحتمل الانتقال ساعة .. يجعلها تحتمله ساعة ونصف الساعة .

ـــ وماذا يوجد فى جاب ولا يوجد هنا ؟

وارتمت « نادية » على أحد المقاعد فى إعياء ووضعت رأسها بين كفيها وأطلقت تنهيدة حملتها كل ما بها من مرارة ويأس وخوف وألم :

ـــ بها بيتنا .. وبها أمنا .

واختنق صوت « نادية » واهتز جسدها وربتت السيدة ريمون ذراعها وهى تقول فى لهجة مشجعة :

ــ تجلدى يا بنيتى .. إن الله لا ينسانا .

وهز العجوز ريمون رأسه وقال كأنما يحدث نفسه :

ــ تلك هى المشكلة .. لو أنه ينسانا !!

وقال « كيلى » وهو يقترب من نادية ويتحسس رأسها :

ــ كفى .. كفى يا نادية .

ثم وجه الحديث إلى الجميع قائلا :

ــ إن نادية على حق .. عندما تحتمل « منى » الانتقال ، فسنعود بها إلى جاب .

وقالت جانى فى أمل وحماس :

ــ إن شاء الله ستبل « منى » .. وستستطيع العودة إلى « جاب » .. ولن تحتاج أبداً لكى ندخلها المستشفى .. إنها ستستريح وتقوم كالحصان .

وعقب تونى على حديثها قائلا :

ــ أجل .. إن ما بها ليس أكثر من التهاب فى الزور .

وقالت العجوز ريمون :

ــ جائز جداً .. فأنا لا أثق فى هذا الطبيب المخرف . لقد مضى علىّ خمسون عاماً .. وأنا أشكو له من غثيان يصيبنى .. وهو يؤكد لى أنه غثيان حمل .

وعلت من حجرة « منى » ضحكة عالية .. وأحس الجميع كأن ضحكتها نسمة منعشة .. سرت فى نفوسهم .

ورفعت « نادية » المنديل لتجفف عينيها وهمست وهى تضحك :

ــ يا حبيبتى يا منى !!

(٤٠)

ليل بلا عويل ...

مرت الليلة الأولى فى « بريانسون » دون مزيد من متاعب .. فقد أغفت « منى » فى رقدتها الهادئة المستسلمة ، ورقدت « نادية » على فراش بجوارها ، مسبلة العينين ، مشدودة الأعصاب .. يقظة الذهن .. تتوهم فى كل صوت .. صرخة .. وفى كل همسة سعلة أو حشرجة .. لا تكاد « منى » تتقلب أو تتحرك حتى تنهض فزعة بجذعها الأعلى منصتة فى توتر .. مرتقبة فى خشية وجزع .

ولم يكد يبزغ أول شعاع حتى أخذت تفتح الحقائب وتجمع فيها ما رتبته فى الأدراج والأرفف .

وفتحت « منى » عينيها متسائلة :

ـــ ماذا تفعلين يا نادية ؟

ـــ أحزم الحقائب .

ـــ لِمَه ؟

ـــ لأننا سنعود إلى « جاب » .

ـــ ولكننى قد استرحت ولم يعد بى شىء .

ـــ من أجل هذا سنعود .. سنعود قبل أن يحدث لك شىء .. ونحار فيما نفعل .

ـــ ولكننا سنتلف رحلتهم جميعاً .. إنى أعدك بألا أجهد نفسى بعد ذلك ، وأن أظل راقدة فى الفراش .. وأن ..

واقتربت « نادية » من فراش « منى » وركعت بجوارها وتحسست وجهها فى رفق وقالت فى حزام وإصرار :

ـــ سنعود يا منى .. سنعود هذا الصباح .. أرجوك ألا تعارضيني .. كفى ما حدث لك بالأمس ..

وبعد ساعة كان الركب يقف أمام الكوخ على أهبة التحرك إلى « جاب » . وكانت « منى » تجلس بجوار « نادية » ، وقد بدا عليها الهزال والاصفرار .. وعلت شفتيها ابتسامة باهتة وهى تلوّح للعجوز ريمون وامرأته .

ورفع العجوز يده .. وأشار ملوّحاً .. وهو يرسم على شفتيه ابتسامة وقال فى مرح مفتعل :

ـــ ستعودين مرة ثانية .

وأجابت « منى » فى ثقة :

ـــ طبعاً سأعود . لقد أحببتكم جداً . أحببت الكوخ والبحيرة .. وكل شىء عندكم .

ورفعت مدام ريمون يدها ملوّحة وأخذ الركب يتحرك وقالت :

ـــ ستعودين قريباً .. لن يحجزوك فى المستشفى طويلا ، فسيكتشف الأخصائى .. خطأ طبيبنا المخرف .. وسيصرح لك بالعودة حالا .

وهزّت العجوز رأسها .. وأردفت ساخرة :

ـــ غثيان حمل .. خمسون سنة وأنا أنتظر !

وضحكت « منى » وأشارت ملوّحة للعجوز وهى تقول :

ـــ عندما أعود فى المرة القادمة .. أرجو أن يكون الغثيان قد ذهب .. وأن تكونى قد وضعت طفلا .

ورفع العجوز ريمون يديه وصاح محتجاً :

ـــ ليس منى .. على أية حال !

وانحدر الركب فى الطريق المجاور للكوخ .. وبعد بضع دورات .. حول الربا المجاورة .. اتخذ الطريق الأصلى المتجه إلى « جاب » .

وتحركت العربتان وقد خيم على ركابهما صمت ثقيل .. بعد أن انقشعت

سحابة المرح المفتعل الذى حاول العجوزان أن يلفا به مرارة الرحيل .. ووجوم العودة .

وعبثاً حاول الفتية والفتيات .. إزالة سحابة الحزن التى حطت عليهم .. وعبثاً حاولوا إشاعة المرح .. ومواصلة الحديث .. فقد كانت الكلمات تذوب على شفاههم .. وترتد فى أفواههم .

و لم يملكوا فى النهاية ، إلا الاستسلام للصمت والإغراق فى الشرود .

وكانت « نادية » ترقب وجه « منى » فى قلق وخشية .. وبين آونة وأخرى تسألها فى حنان :

ـــ أتحسين بتعب ؟

وتهز « منى » رأسها ضاحكة وتقول :

ـــ أنا مستريحة تماماً .. كل ما أرجوه أن تستريحى أنت .

وفى كل منحدر أو حفرة أو منحنى ، تمسك « نادية » بيد « منى » وتهتف بتونى راجية :

ـــ على مهلك يا تونى .. حاسب .

ويهز تونى رأسه مطيعاً :

ـــ حاضر .. لا تخافى .

وأحست « نادية » بطول الطريق .. كانت تتلهف على العودة إلى البيت .. وكانت تحس أنها ستكون أكثر أمناً على أختها وهى بجوارها .

وأخيراً لاحت « جاب » .. أنبأت عنها شجرة السنديانة الضخمة التى تظل محطة سكة الحديد .. والمداخن المرتفعة الصاعدة من الأسقف الحمر المنحدرة .

وتوقفت العربتان فى الطريق الرئيسى « لجاب » .. قرب المعطف المؤدى إلى روميت ، وغادر مسيو كيلى عربته متجهاً إلى منى ونادية وتساءل قائلا :

ـــ أنتجه إلى المستشفى رأساً .. أم تفضلون العودة إلى المنزل أولا .؟

وهزت « منى » رأسها متسائلة فى دهشة :

— المستشفى لماذا ؟! لم يعد بى شىء .

ونظر الرجل إلى « نادية » يستطلع رأيها .. وضغطت « نادية » كفيها بين ركبتيها وقد بدا عليها القلق والحيرة .. وأخيراً قالت :

— أظن من الخير أن نعود أولا إلى المنزل .. حتى لا تصدم أمى بعودتنا إلى المستشفى مرة واحدة .

وعادت « منى » تهز رأسها وتقول فى إصرار :

— لن أذهب إلى المستشفى .. لا على مرة واحدة .. ولا على مرتين .. قلت لكم إنى أحس الآن أنى طيبة .

وربت مسيو كيلى على كتفها قائلا فى عطف

— طبعاً أنت طيبة .. إنها مسألة طمأنينة فقط .. مجرد كشف أشعة وتحليل .. وسخافات مما يفعلون فى المستشفيات .

ونظر إلى ابنه الجالس على عجلة القيادة يرقبه وقد بدا عليه القلق وقال له :

— هيا ياتونى .

— إلى أين ؟

— إلى المنزل .. لنسلم على مدام لورا .. ثم نذهب إلى المستشفى .

وقالت « منى » فى عناد :

— إلى المنزل فقط يا تونى .. وبعدها يحلها ربنا .. لن أذهب إلى المستشفى إلا عندما أحس أنى فى حاجة إليها .

ومرة أخرى تحركت العربتان .. صاعدتين المنحدر إلى روميت . واتجهت إحداهما إلى منزل كيلى .. واتجهت الأخرى بنادية ومنى إلى منزلهما .

ووقفت العربة أمام بوابة المنزل .. وانطلق الكلب ينبح ويدور حولها .. وأطل العجوز بول من كوخه بجوار البوابة وصاح متسائلا فى دهشة :

— هكذا عدتما بسرعة ؟!

وأحست الأم بوقوف العربة .. وسمعت صيحة « بول » المدهوشة .. فخرجت إلى الشرفة السفلية .. وأبصرت ابنتيها تجتازان الباب ، فصاحت ضاحكة :

— لم يعجبكما الحال بالطبع .. قلت لكما .. احمدا الله على «جاب » .. لم تصدقانى .

وأحست الأم من طريقة دخول « نادية ومنى » أن فى الأمر شيئاً أكثر من مجرد عدم الإعجاب ببريانسون .

لم تكن « منى » تقفز ولا تصيح ، ولا تعدو وراء الكلب ولا تشاكس العجوز بول .. كانت تسير هادئة .. وقد أمسكت أختها ذراعها .. ولم يبد على الاثنتين .. الملامح الطلقة .. المرحة .. البهيجة .. كان ثمة شىء عجيب .. يحيط بهما .

ثم .. ما هذا الاصفرار بوجه « منى » ؟

وأحست الأم بشىء يفرى أمعاءها .. واستندت على سور الشرفة وهتفت متسائلة فى خشية :

— ماذا بكما ؟

وكانت الأختان قد وصلتا إلى الشرفة .

وابتسمت « منى » وقالت ضاحكة :

— لا شىء .. لقد مللنا بريانسون .. واشتقنا إليك .

ونظرت الأم إلى « نادية » وعادت تتساءل :

— ماذا حدث يا نادية ؟!

وهزت « نادية » رأسها وقالت فى شىء من الاستخفاف :

— أبداً .. لقد تعبت « منى » .

وقاطعتها الأم متسائلة فى حدة :

— تعبت ! كيف ؟

وهزت « نادية » رأسها فى ضيق وقالت :

ــ تعبت كما يتعب الناس .

وأردفت « منى » :

ــ يا ماما لم يحدث شيء .. ألا ترينني أمامك ، كالجن ، لماذا تنزعجين ؟! لقد ...

و لم تستطع « منى » أن تتم قولها .. فقد شعرت فجأة بالرغبة فى السعال ، وحاولت جهدها أن تكبته .. واستحثت الخطا تحاول الصعود إلى غرفتها .. ولكنها لم تكد تضع قدمها على أول درجة حتى أصابها الدوار وأحست كأن يدا تعتصر قواها لتجذبها إلى أسفل .. واتكأت على درابزين الدرج .

واندفعت « نادية » إليها صائحة :

ــ منى !! ما بك ؟!

وقبل أن تصل إليها .. عاودها السعال الممزّق .. و لم تجد من قواها المتسرّبة ما يعاونها على كبته . فانطلق من شفتيها .

سعلة جافة !!

ثم سعلة أخرى .

ثم ثالثة .. تحمل معها .. سيلا من الدماء !!

وصرخت الأم ، واندفعت إلى « منى » لتضمها إلى صدرها .

وتهاوت « منى » على درجة السلم .. وأسندت رأسها على درجة أخرى ، ونزيف الدم يتسرّب من شفتيها .

وتهاوت « نادية » بجوار أختها على الدرج .

ومدت يداً مرتجفة لا تعرف ما تفعل ، وأحست بشيء من الذهول أمام الدماء المتدفقة التى أغرقت الدرج .

وهمست فى أنين متحشرج منادية :

ــ منى !! منى !.

واندفعت جانيت من الباب على أثر الصيحة واندفع وراءها جابى وتونى ، وخرجت الجدة العجوز تستند مذعورة إلى ضلفة الباب .

ومضت لحظة ذهول .. لم يسمع فيها سوى نشيج وبكاء .. واندفع تونى يعدو إلى الخارج صائحاً :

ـــ سأذهب وأحضر عربة المستشفى .

واقتربت جانيت من « منى » ورفعتها من الدرج فأسندتها فوق الأريكة .. وأحست بها تتهاوى فى يديها كالخرقة البالية ، لا مقاومة ولا جهد .. وبدا وجهها كالبفتة البيضاء ، ونبضها لا يكاد يحس .

وظلت الأم منهارة على الدرج وقد أصابتها نوبة من التشنج والأنين .. والهتاف باسم « منى » .. هتافاً يمزّق القلوب .. وتهاوت الجدة على أقرب مقعد وقد أخفت وجهها المجعد بكفيها وأخذت تتمتم بكلمات خافتة .

وبعد دقائق ، وقفت عربة المستشفى أمام المنزل ، وهبطت منها ممرضتان بلباسهما الأبيض وصليبهما الأحمر .

وبعد دقائق أخرى .. كان البيت قد ساده صمت القبور وخلا من كل من به .. إلا العجوز المتهاوية على مقعدها ، مخفية وجهها بكفيها كأنما تحجب عنه شراً .. وتحاول دفعه بدعواتها المبهمة .

وكان الكل قد انطلقوا فى إثر العربة البيضاء.. حتى الكلب النابح.. لم يكف عن عدوه حتى وقف معها أمام باب المستشفى .

واستقر الجميع فى حجرة الاستقبال ، وتشاغلت جانيت فى العناية بالأم المتشنجة الباكية .. وأصرت « نادية » على ألا تترك « منى » .. ودخلت معها فى حجرتها .. واندست بين الأطباء والممرضات .

وكانت « نادية » تحس بأن أعصابها قد شدّت ، وأن مشاعرها قد جمدت .. ولم تعد لديها القدرة على الإحساس بأى شيء .. لا ألم ولا حزن ، ولا قلق ولا ضيق ، وباتت كأنها تتحرك فى ضوء ساطع قد سلط على عينيها .. فهى لا ترى

غير الفراغ .

وكانت « منى » .. قد أخذت تفيق . وفتحت جفنيها فى تثاقل .. ولم تستطع أن تميز شيئاً من الأشباح البيض الملتفة حولها ، وأمسكت « نادية » يدها وضغطت عليها وهتفت بها :

— منى .. حبيبتى .. أنا نادية .

وبللت « منى » شفتيها بلسانها وحاولت الكلام ، ثم عادت فأطبقتهما .. وهمت « نادية » أن تقول لها شيئاً عندما سمعت الطبيب يسألها :

— أتستطيعين أن تقدرى الكمية التى نزفتها ؟

وأحست « نادية » بمرارة فى حلقها .

لقد نزفت كثيراً .

نزفت ما أغرق الدرج .

نزفت ما جعلها تحس أن وعاء من الدم قد سكب .

ولكن أنى لها أن تقدر كمية النزيف !!

وعاد الطبيب يسأل فى رفق :

— بالتقريب .. كم لتراً ؟!

كم لتراً ؟! إنها لا تعرف اللتر .

وهبها عرفت .. هل ستستطيع تقدير النزيف .. هل تتصور أن تضع دم « منى » العزيز فى أناء لتعرف .. كم لتراً !

واندفعت تنشج باكية .. وهى تتمتم فى نحيبها :

— لا أعرف .. لا أعرف .

وربت الطبيب ظهرها برفق :

— لا تنزعجى .. أنا متأسف .

وصمت برهة وهو يرقب دموعها المنسابة على خدها .

وعاد يسألها راجياً :

ـــ لماذا لا تذهبين ، لكى تستريحى فى غرفة الانتظار ؟!

وهزت « نادية » رأسها .. وأجابت فى إصرار :

ـــ لا .. لا . لن أتركها .. أبداً .. إننا لم نفترق لحظة واحدة .

وأحس الطبيب بأنه يحتاج لشىء من الجهد كى يقاوم الدموع التى تتصاعد إلى مقلتيه ، ومد يده وشد على ذراعها مشجعاً وهو يقول :

ـــ إذاً ابقى إلى جوارها ، سنبذل كل ما فى وسعنا .

ثم التفت الطبيب إلى إحدى الممرضات متسائلا :

ـــ أسرعى لإحضار نتيجة التحليل .

وقبل أن تخرج الممرضة كان أحد الأطباء قد أقبل وبيده ورقة .. بها عينة الدم .. والكمية التى نزفت .

ورفع الطبيب حاجبيه فى دهشة وتمتم فى نفسه قائلا :

ـــ كل هذا قد نزف ؟. عجيبة !

ثم وجه القول إلى الممرضة :

ـــ أخبرى الدكتور « مانر » أن يحضر لينقل إليها دماً وأعطيه نتيجة التحليل

وأسرعت الممرضة إلى الخارج .

وعادت « منى » تفتح عينيها .. وتبلل شفتيها بلسانها .. ثم التفتت حولها ..

وعندما أبصرت « نادية » بجوارها .. همست فى صوت خافت :

ـــ أنت هنا يا نادية ؟

وحاولت « نادية » جهدها أن تكبت النحيب فى صوتها المختنق وقالت :

ـــ أجل يا حبيبتى .

ـــ أما زلت غاضبة منى .. أن لم أستمع إلى كلامك ؟

ـــ أبداً يا حبيبتى .

ـــ لن أجهد نفسى بعد الآن .. سأسمع نصيحتك دائماً .

ثم صمتت لتستجمع قواها .. وعادت تبلل شفتيها وتساءلت :

ـــ أين ماما ؟

ـــ في حجرة الانتظار .

ـــ لم أكن أريد أن أتسبب لها فى كل هذا الإزعاج .. أخبريها أنى متأسفة جداً .. أخبريها أنى سأعقل ، وأنى لن أجهد نفسى أبداً .

ـــ حاضر يا منى . إنى ..

ونظر الطبيب إلى « نادية » وهز رأسه مقاطعاً :

ـــ لا داعى لإجهادها بالحديث .

ومدت « نادية » يدها وتحسست جبين « منى » برفق قائلة :

ـــ استريحى يا منى .. لا داعى للكلام .

وأقبلت الممرضة .. بأنبوبة الدم وعلقتها فى الحامل .. وأمسكت ذراع « منى » فكشفته ، وبدا الذراع أصفر متخاذلا ، ولفت الخرطوم حوله كى تبرز العروق ، ثم دفعا الإبرة فى عرق نافر ، وكشت « منى » ذراعها ، ثم أرختها ، وامتد الخرطوم لينقل الدم من وعائه إلى عروقها .. نقطة .. نقطة .

ووقفت « نادية » ترقب فى شرود ، قطرات الدماء .. تقطر فى ذراع « منى » لتعوّض السيل الذى سكب منها على الدرج .

وانتهت عملية نقل الدم .

وبدت لنادية .. عملية طويلة مزعجة وبدت لها « منى » مسبلة العينين .. شاحبة الوجه ، وكأن الدماء التى تسكب فى عروقها .. تتسرب فى ناحية أخرى .

وأخيراً ساد السكون الحجرة .. ونظر الطبيب إلى « نادية » قائلا :

ـــ من الخير ، أن ندعها تستريح .

وبدت « منى » كالنائمة .

وغادرت « نادية » الحجرة متسللة على أطراف أصابعها وذهبت إلى حجرة الانتظار وأقبلت على أمها تحتضنها باكية .

وتساءلت الأم فى صوتها المتشنج :

ـــ أين منى ؟. أريد أن أراها .

ـــ إنها بخير يا ماما .. لقد نقلوا إليها دماً ليعوض الدم الذى نزفته .

وعادت الأم تقول فى تشنجها :

ـــ أريد أن أراها .

ـــ إنها نائمة الآن ، وقد أمر الطبيب أن نتركها لتستريح .

ـــ أريد أن أراها يا نادية .. حرام عليكم !! أريد أن أرى ابنتى .

ـــ سترينها يا ماما .. بمجرد أن تصحو ، سآخذك إليها .

وتوقفت « نادية » عن الحديث ، فقد أحست بحركة غير طبيعية فى الممر المؤدى إلى حجرة « منى » . وأبصرت إحدى الممرضات تهرول ، ثم رأت الطبيب يغادر حجرته .

وأحست « نادية » بشىء يعتصر جوفها ، واندفعت تجاه الحجرة ولحقت بالطبيب وسألته فى خوف :

ـــ ما بال « منى » يا دكتور ؟!

وهز الطبيب رأسه قائلا فى ضيق :

ـــ لا شىء .

ثم وجه الحديث إلى الممرضة وأردف قائلا :

ـــ أبدلى الملاءة .. واطلبى من الدكتور « مانر » أن ينقل إليها كمية أخرى .

وأحست « نادية » أن قدميها ستخذلانها ، وأن جدران المستشفى تميد بهما ، ثم تعلقت بذراع الطبيب ، وقالت باكية :

ـــ هل نزفت ثانية ؟!

وربت الطبيب رأسها متسائلا :

ـــ لماذا لا تذهبين لتستريحى ؟

وعادت « نادية » تسأل فى أنينها المؤلم :

ــ أحقاً نزفت ثانية ؟!

وأجاب الطبيب ، وهو يحس بقلبه يتمزّق من أنينها :

ــ إننا سننقل إليها دفعة أخرى من الدم .. لا تنزعجى من النزيف ، لا بد أن يتوقف بعد هذه المرة .

ولكن النزيف لمن يتوقف .

لقد وضع وعاء الدم على حامله وامتد الخرطوم يستقطر الدم فى ذراع « منى » .. وعندما انتهى من عملة الإفراغ .

عاد السعال .. وعاد النزيف .

وبدت العملية كأنها إفراغ دم فى وعاء مثقوب .

دم يصب .. ونزيف يفرغ .

حتى منّ الله عليهم بفترة راحة .

وهدأ السعال .. واستقرت « منى » فى فراشها بضع ساعات وأقبل الليل .

وساد السكون ، حجرات المستشفى .

وبدت « منى » راقدة على فراشها .. هزيلة صفراء .. كأنها عود يبس أو ورق جف .. وعلى مقعد بجوارها استقرت الأم فاغرة الفم .. شاردة العينين ، وفى ملامحها أمارات ذهول .

وعلى مقعد آخر جلست نادية .

وحاولت « نادية » أن تغمض عينيها .. وأن ترخى أعصابها .. وأن تريح ذهنها من يقظته .

ولكنها أحست أن الضوء الساطع ما زال يغمرها ، وبدت لنفسها كأنها مخلوقة أخرى .. مشدودة .. متوترة .

ونبح كلب خارج المستشفى .

ودقت ساعة الميدان تعلن انتصاف الليل .

وأحست « نادية » بخوف من دقات الساعة ، ومن نباح الكلب .. بل

خوف من الليل كله .

وتذكرت .. صرخة .. أيقظتها ذات ليله .

وتذكرت العويل .. وتذكرت النواح .

وتذكرت أباها .. المسترخى على الأريكة فى حجرته .

وبرغمها .. اندفع الشريط المروع يطوف بذهنها .

الكبش المذبوح .

النعش المحمول على الأكتاف .. والموكب السائر .

وشواهد القبور ، والفقهاء يرتلون على حافتها ، والكل ينفض ، ولا يبقى ألا كلب ينبح وراء العربة الفارغة .

وعضت شفتيها .

لماذا تذكر نفسها بمثل هذا ؟!

ليس هناك أثر لهذه الأشياء .

لا يوجد فقهاء . ولا توجد « كباش » تذبح .

ولكن .. توجد حقيقة الموت .. إنها هنا وهناك .. وفى كل مكان .. والأمر لا بد أن يجرى ، بطريقة ما .

بلا كباش تذبح ولا صلاة تقام ، ولا فقهاء يقرءون .

أف !! ما لها تذكر كل هذا ؟!

إنه شيء مروع .. شيء مخيف .

وهذا الليل .. لماذا لا ينتهى ؟

لماذا لا تشرق الشمس .. قبل أن تسمع الصرخات .. والنواح ؟!

ومرة أخرى ، عاد الشريط يطوف بذهنها ، الكبش المذبوح ، والعويل ، والنعش المحمول ، والموكب السائر ، والقبور المقفرة ، العفراء المتربة .

وتذكرت القبور .. المصفوفة أسفل الهاوية ، التى تبدو من منحدر الجبل وراء القصر الخرب .

وأحست بيد تعتصر جوفها وتفرى عظامها .. وأسقطت رأسها على صدرها ، وراحت فى إغفاءة .

وعندما استيقظت ، كانت الشمس تتسلل من النافذة .. وأصوات العصافير تزقزق فى الأشجار المحيطة بالمستشفى .

ونظرت إلى « منى » فإذا بها راقدة كما هى فى شحوب واستسلام ، ونظرت إلى أمها فإذا عيناها شاردتان فى ذهول وقد قرّح جفونها البكاء والسهر .

وأحست « نادية » بنوع من السكينة .

لقد مرّ الليل المخيف .. بلا صراخ ولا عويل .

(٤١)

صلاة ...

فتحت « منى » عينيها فى ضعف ، ودارت بهما فى سقف الغرفة .. فى شىء من الدهشة والاستفسار .

وشيئاً فشيئاً بدت عليها سيماء الإدراك .. وكانت « نادية » قد اقتربت منها وأمسكت كفها بيدها وضغطت عليه برفق ، وأقبلت الأم من الجانب الآخر من الفراش ومالت على الجسد الواهن وضمته إلى صدرها فى لهفة وحنان وهمست فى دعاء يقطر أسى :

ـــ يارب .. لا تريني فى إحداهما مكروهاً .. يارب اجعل يومى قبل يومهما .

وضمت « منى » أمها ضمة واهنة وقالت فى استخفاف :

ـــ لا يومك ولا يومنا .. هوّنى عليك .. فالمسألة لا تستحق .

ورفعت عينيها إلى « نادية » وقالت وقد رسمت ابتسامة منحتها كل ما استطاعت من مرح وسعادة :

ـــ كنت أحلم أننا فى مصر .

وكانت « نادية » ترقب الوجه الذابل .. والابتسامة الباهتة .. وتحاول أن تطرد من نفسها الأسى واليأس .. وأن تستجمع قواها لتمنح أختها أملا وثقة .

وأجابت وهى تحاول أن ترد على أختها مرحاً بمرح وابتسامة بابتسامة :

ـــ حقاً !! وكيف حالهم فى مصر ؟!

ولم تجب « منى » وإنما حولت عينيها إلى أمها وقالت فى لهجة جادة راجية :

ـــ اسمعى يا ماما .. عدينى عندما أترك المستشفى أن نعود إلى مصر ؟

وتساءلت أمها فى لهجتها الحزينة اليائسة :

ـ إلى مصر ؟

ـ أجل . عدينى .. لا تتصورين كم كنت سعيدة فى الحلم . لقد رأيتهم جميعاً .. عمى سليمان يضحك معنا كما تعوّد أن يضحك ، ورأيت زوجته .. لم تكن تشبه الصورة التى أرسلها لنا .. كانت بديئة وبين يديها طفل جميل .. ورأيت عمتى كذلك .. « مجرمة » كما هى ، ولكننى شتمتها بما فيه الكفاية .

وكان صدرها قد بدأ يعلو ويهبط وأنفاسها تتلاحق .

وقالت « نادية » وهى تتحسس رأسها فى حنان :

ـ لا تجهدى نفسك بالكلام يا منى .

ولم تأبه « منى » باعتراض « نادية » واستمرت تروى حلمها فى اندفاع مرح :

ـ ورأيت الدادة ، تماماً كما تعوّدت أن أرها تغازل مرسى « بياع الكازوزة » ، ورأيت من أيضاً ؟ رأيتهم جميعاً حتى محمود صبى المكوجى ، لم أجد شيئاً قد تغير فى البيت ، وقفت فى الشرفة ، وقد تكاثفت حولها الياسمينة ، وذهبنا سوياً إلى النادى .

وصمتت برهة ثم هزت رأسها ومصمصت شفتيها فى إعجاب وأردفت قائلة :

ـ كان النادى جميلا ، وكانت الشلة كلها هناك . عصام .. وصبرى .. و ..

وتوقفت وقد اتسعت ابتسامتها ، ثم نظرت إلى أمها قائلة :

ـ ماما ! لقد تعبت من الوقوف .. لماذا لا تستريحين ؟!

وازدردت الأم ريقها .. وانحنت مرة أخرى تضم ابنتها إلى صدرها فى إشفاق شديد .. وعبراتها تنحدر من مآقيها فى صمت .

وأحست « منى » بالعبرات الساخنة على وجهها .. فمدت كفها ومسحت

برفق دموع أمها وقالت فى لهجتها المازحة :

— ألم نقل إن المسألة لا تستحق يا ماما .. وفرى دموعك وقت الحاجة .

وردت « نادية » وهى تحس بمرارة فى حلقها :

— إن شاء الله لن تكون لها حاجة .

واستدارت الأم تسير بخطواتها المتثاقلة متجهة إلى خارج الحجرة ، وقبل أن تبلغ الباب هتفت بها منى فى صوتها الضعيف :

— سنعود إلى مصر يا ماما .. بمجرد خروجى من المستشفى ؟

وهزت الأم رأسها وهى مستمرة فى خطواتها المتثاقلة :

وعادت « منى » تقول :

— عدينى .. قولى نعم .

والتفتت الأم إليها وسيل العبرات مازال ينهمر وقالت :

— نعم يا حبيبتى .. سنذهب حيث تشائين .

وخرجت الأم ، ونظرت « منى » إلى « نادية » وقالت بأوسع ابتسامة استطاعت أن ترسمها على شفتيها :

— ورأيت .. هل تدرين من ؟

وابتسمت نادية وتساءلت وهى تتحسس شعر « منى » :

— من ؟

— رأيت صاحبك .. رأيت مدحت .. تماماً كما هو .. بقامته الطويلة .. ومنكبيه العريضين ، وجبينه المتسع .. ورأسه الذى نحل من الشعر .. رأيته فى ملعب « الكروكية » هل تدرين مع من كان يلعب ؟

وهزت « نادية رأسها ، وأحست بأن أنفاس « منى » قد ازدادت تلاحقاً فربتت يدها قائلة :

— استريحى برهة يا « منى » .. لقد تعبت من الحديث .

ولم تأبه « منى » لها ، بل استمرت تتساءل :

— خمنى .. مع من كان يلعب ؟

وتساءلت « نادية » لتجاريها فى الحديث :

— مع من ؟

— معك .

— معى أنا ؟

— أجل .. كنت تسيرين بجواره على بساط النجيل الأخضر .. عارية القدمين .. بلا إيشارب .

ورفعت « نادية » يدها فى حركتها اللا إرادية تتحسس الإيشارب الملتف حول عنقها .. وتساءلت وهى تهز رأسها ساخرة :

— كان .. بلا إيشارب ؟.. كان يجب أن أغطيك جيداً قبل أن تنامى .

وضغطت « منى » على كف « نادية » بكل ما تملك من قوى خائرة .. وتساءلت فى دهشة :

— حتى فى الحلم .. ترين هذا مستحيلا ! لماذا يا نادية .. لماذا لا تقابلينه .. بلا خوف .. ولا حجاب .. أؤكد لك أنه سيحبك كما يحبك من رسائلك .. إنه يحبك أنت يا نادية .. أنت بشخصيتك .. التى يحس بها فى كل كلمة كتبتها ... إنه ...

وربتت « نادية » كتف « منى » وقالت مقاطعة :

— ليس هذا وقته يا منى .. دعينا من مدحت الآن .

— بل دعينى أتحدث كما أريد .. إنه يحب شخصك أكثر مما يحب صورتى .. ولن ينقص من حبه أن تكون بعنقك بعض آثار حروق .. أؤكد لك ...

— يا منى يا حبيبتى أرجوك أن تستريحى .. ليس هذا وقته .. سنتحدث فى كل هذا عندما تشفين .

— عندما أشفى .. سأكتب إليه أنا .. وأقول له الحقيقة وأرسل له صورتك .

وهتفت بها « نادية » متسائلة فى دهشة :

— منى ؟!

— وإذا أتى فسألقاه وأقول له إنك نادية .. وإنك أنت التى تستحقين حبه .. وسأنزع عنك الإيشارب ، رغم أنفك وأريه وجهك كما سيراه دائماً .

— لماذا تقولين هذا يا منى ؟

— وسيحبك كما كان يحبك .. وسيعجب بك كما أعجب بك « جمال » عندما أسقطت الريح الإيشارب على ظهر السفينة . هل تذكرين ؟!

وهزت « نادية » رأسها وتنهدت فى يأس .. وقالت فى صوت خافت :

— يحبنى أو لا يحبنى .. المهم أن تشفى أنت .

— على أية حال إنى أنذرك من الآن .. إذا قدّر الله وشفيت .

وردت « نادية » من قلبها :

— افعلى كل ما تشائين .

ورفعت « منى » عينيها إلى سقف الحجرة وتمتمت داعية :

— اللهم اشفنى .. لقد حصلت على وعدين خطيرين إذا شفيت .. وعد من أمى بالعودة إلى مصر .. ووعد من نادية بأن أصلح حالها .. وأردّها إلى صوابها .. اللهم اشفنى .. فإن شفائى سيحقق أحداثاً خطيرة فى الأسرة

ونظرت إلى « نادية » وابتسمت فى أمل وأردفت قائلة :

— سنعود إلى القاهرة .. وسأتزوج من عصام .. وستتزوجين من مدحت هل هناك أحداث أخطر من هذه ؟

وبدت « منى » فى حديثها كأنها تلهث .. وازدادت شدة كفها على يد « نادية » .. وبدأ وجهها يزداد شحوباً .. وأخرجت لسانها تبلل شفتيها ، وازدردت ريقها بصعوبة .

وأحست « نادية » أن شيئاً فى جوفها يعتصر قواها .. وهتفت بمنى :

— مالك يا منى ؟! مالك يا حبيبتى ؟

ولم تجب « منى » فقد منعتها سعلة قصيرة حاولت أن تكبتها كعادتها .. وسعلة أخرى .. انطلقت جامدة .. وثالثة .. اندفعت تحمل معها .. نزيفاً جديداً .

واندفعت « نادية » إلى الباب صائحة بالممرضة .. وقد روعها السيل القانى المتدفق فوق الأغطية البيض .

ومرة أخرى تكهرب الجو .. وأحست كأنها تدور فى دوامة عميقـة . ممرضات يدخلن ، وممرضات يخرجن ، و أطباء يتهامسون ويتشاورون ، ووعاء الدم يعلق فى حمالته ، وخرطوم يمتد بإبرة تغرس فى ذراع « منى » لتقطر الدم فى عروقها .

وأحست « نادية » بأعصابها تتوتر حتى تكاد تمزّق .. وأخذت أصابعها تقبض على ثيابها فى عنف كأنما تريد أن تمزق شيئاً .. وخرجت من الحجرة .. ثم أطلت مرة أخرى . واندفعت إلى آخر الممر .. ثم عادت دون أن تدرى لماذا اندفعت .

وسمعت نحيب أمها فى غرفة الانتظار ، كأنه أنين المجروح .

وتذكرت نفس النحيب فى منتصف ليلة سوداء .. فى القاهرة .

وأحست به يمزق نياط قلبها .. وودت لو تكف أمها عن هذا الأنين .

ولكنها لم تجسر على الذهاب إليها . وعادت مرّة أخرى إلى الحجرة التى احتشد فيها الأطباء .. وتسللت من بينهم وألقت نظرة على « منى » ، فإذا هى فاقدة الوعى ، مسبلة العينين ، قد كست وجهها صفرة عجيبة .

وعادت كفا « نادية » تقبضان على ثوبها فى عنف كأنما تود أن تمزقه .

لماذا يتركونها هكذا ؟!

شيء ما لا بد أن يفعل .

شيء أكثر من هذه الدماء التى تقطر فى عروقها .

أليسوا أطباء ؟

لماذا يقفون هكذا يرقبون فى صمت وعجز ؟

لماذا لا يقول أحدهم شيئاً ؟

وفجأة نطق أحدهم .. نطق أحدهم بعد أن أمسك برسغ « منى » ثم ترك يدها تسقط على الفراش .

نطق وقد تقطب جبينه وزمت شفتاه واختلجت زاويتا فمه ، وبدا وجهه مكفهراً مربداً .

نطق ليقول للممرضة فى نبرات متبرمة يائسة .. وهو يشير للوعاء القانى الذى يقطر الدم :

ـــ انزعيه .. لا فائدة .. لقد انتهت الصبية .

نطق الرجل .. ليعلن فى كلماته القصيرة .. انطفاء الذبالة ، وجفاف العود .

وجثت « نادية » على ركبتيها بجوار الفراش .. وأطبقت بأسنانها على حافة الحشية .. ملقية رأسها على الجسد المسجى ، ومطبقة بقبضتيها على الأغطية فى استماتة .. كأنما تحاول أن توقف شيئاً .. أو تمنع شيئاً

وهتفت فى صوت متحشرج :

ـــ منى .. حبيبتى .. لن تذهبى يا حبيبتى .. ستشفين .. وستتحقق لك الوعود .. ستشفين ، ونفعل لك ما تشائين .. ستخرجين من هنا يا منى ، لكى نعود إلى مصر .. منى .. حبيبتى .

ونطق الطبيب مرة أخرى ، ووجهه يزداد إرباداً .. وملامحه تزداد تقلصاً وانفعالا ، ووجه القول إلى الممرضة مشيراً إلى نادية :

ـــ خذيها خارجاً .

ومدت الممرضة يدها تربت كتف « نادية » فى رفق .. محاولة إبعادها عن الفراش .. ولكن « نادية » ازدادت تشبثاً به .. وردت فى صوتها المختنق وهى تدفن وجهها فى الأغطية :

ـــ لا أستطيع تركها .. إنى لم أتركها أبداً .. أبداً .

وقال الطبيب المربد الوجه فى نبراته المقتضبة الحزينة :

— دعيها .

وتركتها الممرضة .. وتفرق الجمع الحاشد .. رويداً .. رويداً .. تفرقوا فى سكون وصمت .. بلا صراخ يشق أجواز الفضاء ، ولا نحيب يدوى فى أنحائه .

انفضوا عن الحجرة .. كأن حدثاً لم يقع .. كأن كارثة لم تحدث ، وكأن الصبية الراقدة قد أغفت إلى حين .

وأحست « نادية » بالخوف الشديد يسرى فى أعماقها .

لقد كانت تخشى الضجيج الذى صاحب موت أبيها .. فإذا بها ترتجف من الصمت الذى حف برحيل أختها .

لماذ لا يصرخون ؟

لماذا لا يولولون ، ويضجون ؟

إن فى ضجة الصراخ .. أنساً من وحشة الموت .. وتمويهاً لصمته المخيف .

لماذا يتركونها هكذا .. بمثل هذه السكينة القاتلة !

— لعلها .. لم تذهب .

أجل .. الأمر كله خدعة وعبث .

أو لعل الأمر كله .. لا يعدو كابوساً أطبق عليها حين غفوتها .

ورفعت رأسها المدفون فى الأغطية ببطء .. فإذا بالغطاء الأبيض قد غطى الجسد كله .

ومضت لحظة وهى ترقب الغطاء الأبيض المشدود على وجه أختها فى ذعر شديد .. وهى تنتفض كريشة فى مهب الريح .

وقبل أن تمد يدها لتزيح الغطاء .. سمعت نحيباً يقترب من وراء الباب .. سمعت نحيباً يشبه أنين كلب جريح .

نحيباً لا تخطئه أذناها .

وفتح الباب ، وبدت أمها تترنح ترنح الذبيحة سرقتها السكين .

واندفعت « نادية » .. لترتمى فى أحضانها .. متشنجة صارخة ، وتعلقت بصدرها تعلق الطفل المذعور ، وهى تصيح بصوتها المختنق :

— ماما .. ماما .. لن نترك « منى » .. لم تكن تريد أن تموت .. كانت تريد العودة إلى مصر .. لقد وعدناها يا ماما .. ألا تذكرين ؟

وضمت الأم ابنتها إلى صدرها .

وتواترت الأحداث بعد ذلك .

وتزاحمت الأشباح فى الحجرة .. باهتة ، واهية .

وسمعت « نادية » أصواتاً معزية ، وأحست بربتات رقيقة .. سمعت صوت جانيت تبكى ، وصوت مسيو كيلى يأمرهم بالخروج ، ورأت وجه تونى محمر العينين ، وأحست بجابى تضمها باكية .

وأناس كثيرون .. راحوا وجاءوا ، وجاءوا وراحوا ، وأشياء كثيرة حدثت .

وهى تحس كأن دوّامة شديدة تدور بها .. لتتركها بلا وعى ولا إدراك ولا قدرة على التصرف .

لا شيء سوى الاستسلام العاجز .. اليائس .. الراضخ لكل ما يملى عليه وما يساق إليه .

وأخيراً .. انتهت بها الدوّامة إلى نفس المنظر المخيف .

منظر الركب .. السائر فى بطء وتثاقل ، وقد حمل العزيز الراقد فى صندوق خشبى ليواريه حفرة بباطن الأرض .. ثم يهيل عليه الثرى ، ويتفرّق عنه بعد أن ينفض منه يديه .

ولم يكن الطريق مقفراً فى هذه المرة .. كانت الخضرة تكسو جوانبه وقد بدت أسقف البلدة الحمراء على يمينه .. وعن يساره بدا سفح الجبل بأشجاره المتكاثفة .. ومياهه المنحدرة .. ومن أقصى الأفق بدت القمم البيض التى تناطح السحاب .

وبدت لها المقابر الرخامية المصفوفة فى سفح الجبل .. نفس المقابر التى كانت تطل عليها من أعلى الجبل .. عندما تجلس عند حرف الجرف وراء البيت المهجور .

وكانت رائحة الزهور .. تعطر الجو ، ورطوبة الأشجار والحشائش تبلل هبات النسيم .

وتوقف الركب بحمله العزيز .. كما توقف فى أرض الغفير .

وأحست بقواها تخور .. وبالأرض تميد بها .. ومدت يدها لتستند إلى شىء قبل أن تتهاوى ، وأحست « بجالى » تقترب منها وتضمها إليها .

وسمعت من القوم لغطاً ، وأحست أن شيئاً ما يعوق العملية الشاقة المخيفة .. عملية إيداع « منى » باطن الأرض .

ورأت التردد فى وجوه الجميع .

وسمعت أحدهم يسأل :

— لماذا لا تسألون الأم ؟

وأجاب آخر :

— حرام عليكم .. لقد فقدت وعيها مرتين خلال الطريق .

وأردف صوت ثالث :

— اتركوها فى حالها .. إنها لا تكاد تتنفس .

وسمعت صوت بول العجوز :

— وماذا تعرف هى عن شعائرهم .. افعلوا ما يحلو لكم إن إلهنا واحد .

وهز مسيو رينو رأسه وتمتم قائلا :

— أجل .. الإله واحد ، والمصير واحد .

وأبصرت « نادية » الصندوق الخشبى يحمل ثم يوضع على الأرض .

وأحست كأن شيئاً ينزع من جوفها .. ولم تستطع أن تكتم صرخة حادة انطلقت من شفتيها ، واندفعت تخر راكعة بجوار الصندوق وتحتضنه بين

ذراعيها ، وهى تهتف فى شبه حشرجة

ــ منى .. منى .. يا حبيبتى .. كيف أتركك وحدك .. لماذا لا تجيبين يا منى ؟!

ثم نظرت إلى الجميع ، وهم واجمون من حولها .. وهتفت :

ــ لا تتركوها .. إنها تخشى الظلمة .

وانحنت مدام كلود فوق « نادية » ، ورفعتها فى رفق قائلة :

ــ تجلدى يا نادية .اذكرى الله .. اذكريه .. يشدد من أزرك .

وضمتها مدام كلود إليها ، وهى مازالت تتمتم :

ــ اذكرى الله يا نادية .. إلهنا جميعاً .. اطلبى الرحمة لأختك .. أليست لكم صلوات .. إن لديكم القرآن .. لماذا لا تقرئين بعضه .. ألا تظنين أختك فى حاجة إليه الآن ؟!

ودفنت « نادية » رأسها فى صدر السيدة ، واندفعت فى نوبة من البكاء .. أحست بعدها بشىء من السكينة .

وعادت السيدة تربت ظهرها وتضمها فى رفق قائلة :

ــ اذكرى الله يا نادية .. اذكريه يا حبيبتى .. اقرئى بعض صلواتكم .. ستريح نفسك كثيراً ، وستريح أختك .

وازدردت « نادية » ريقها ، وأحست من قول السيدة بمزيد من السكينة ، وأخذت تتمتم بلا وعى .. ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم .. الحمد لله رب العالمين .. الرحمن الرحيم .. مالك يوم الدين .. إياك نعبد وإياك نستعين .. اهدنا الصراط المستقيم .. صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ، ولا الضالين ﴾ . آمين .

وعادت السيدة تضمها ، وهى تقول :

ــ لا تكفى . قولى كل ما تعرفينه من صلواتكم وقرآنكم .

وعادت « نادية » تتلو كل ما تحفظه من آيات القرآن .. أخذت ترددها فى

أول الأمر بلا وعى .. والسكينة تدب فى صدرها شيئاً فشيئاً .

وكان الصندوق قد وورى الثرى .. ووقف الجميع ، وقد بدت عليهم الحيرة .

وهمت « نادية » بالتهاوى مرة أخرى .

وعادت السيدة كلود تشد أزرها قائلة :

ـــ لماذا لا تصلين لأختك يا نادية ؟.. إنى أعرف أن عندكم صلاة للموتى .

والتفتت « نادية » حولها فى عجز ، وقالت وهى تهتز باكية :

ـــ إنى .. إنى .. إن الصلاة لا تنفع بلا وضوء .

ـــ الصلاة تنفع دائماً يا نادية .. إن الله لا يحاسبنا على الصغائر .. صلى يا نادية .. صلى يا حبيبتى .

وعادت « نادية » تنظر حولها مترددة وجلة وتمتمت قائلة :

ـــ إنى لا أعرف أين القبلة

ـــ الله موجود فى كل مكان يا حبيبتى .. صلى له .. إنه لن يحاسبك على اتجاه .. صلى يا حبيبتى .

وفى وجل وحيرة .. نظرت « نادية » إلى الجمع الواقف حولها .. يرقبها فى صمت كأن الطير على رأسه .

وكما تعوّدت « نادية » أن تصلى صلبت جسدها .. ورفعت سبابتيها إلى أذنيها .. ثم هبطت بكفيها مطبقتين أسفل صدرها .

وبدأت شفتاها تتمتم بالفاتحة وقل هو الله أحد .. ثم ركعت وسجدت .. وركعت وسجدت ، والجميع يرقبونها فى خشوع شديد ، وقد انحدرت الدموع فى مآقيهم .

وأخيراً تلفتت نادية .. يمنة وحيت .. ثم تلفتت يسره وحيت مرة أخرى .

وانحنت عليها السيدة الطيبة .. تضمها إلى صدرها فى حنان شديد .

ومرة أخرى.. عاد الركب إلى المدينة.. فى بطئه وتثاقله.. وصمته الحزين.

(٤٢)

لم يعد وهماً ....

كان مدحت قد أعد كل ترتيبات السفر ، وكانت عربة جاد الله تجتاز بهما نفق العباسية .. بعد أن حزم حقائبه .. وودع أمه مكفكفاً دمعها .. مؤكداً لها أن سفره ضرورى لنجاته من متاعب معدته .: وأنه سيعود لها سليما معافى .

ولمح جاد الله عقرب الساعة فى ميدان العباسية يشير إلى التاسعة .. فالتفت إلى مدحت متسائلا :

ـــ متى ستقوم الباخرة ؟

وبدا مدحت شارد الذهن .. مما جعل جاد الله يعيد سؤاله ساخراً :

ـــ إنت يا أخينا .: متى ستقوم الباخرة ؟

والتفت إليه مدحت .. وأجاب فى اقتضاب الكاره للحديث ، المحب للشرود :

ـــ الرابعة .

ـــ بعد الظهر ؟

ونظر مدحت إلى جاد الله مغيظاً .. ورد فى سخرية :

ـــ لا .. بعد منتصف الليل .

ـــ ولماذا إذن أقلقتنى بهذا التبكير ؟.. دعنا نعود إلى النادى .

وهز مدحت رأسه وقال فى استخفاف :

ـــ أنت فايق ورايق .

ـــ أنا ؟ أنا اللى فايق !. أنا الذى أرحل للنزهة فى جبال الألب فى عز المعمعة ؟

ـــ أى معمعة ؟

ــ معمعة القنال .. ألا تحس بالأساطيل التى تتحرك والقوات التى تحشد ؟

ــ ألم تعرض المسألة على مجلس الأمن ؟

ــ أجل .

ــ ألم يتفقوا على الاجتماع فى جنيف فى آخر هذا الشهر ؟

ــ اتفقوا .. ولكنهم مستمرون فى هياجهم .

ــ مسيرهم يخشعوا .

وكانت العربة قد اقتربت من مستشفى الدمرداش .. فأردف مدحت وهو ينظر إلى ساعته قائلا :

ــ ادخل بنا على المستشفى .

ــ أستمكث كثيراً ؟

ــ المفروض أن نكون فى الإسكندرية قبلها بساعة .. من أجل إجراءات الجمرك .

ــ أى نكون هناك فى الثالثة .

ــ ومن هنا إلى الإسكندرية أربع ساعات .. بما فيها نصف ساعة غداء فى الرست هاوس .

ــ يعنى نتحرك من هنا فى الحادية عشرة .

ــ وساعة احتياطى للطوارىء .

ــ يعنى تستطيع أن تمكث فى المستشفى ساعة إذا شئت .. ألا تكفيك ساعة ؟

ــ تكفى جداً .. سأمر على بعض المرضى .. وأعطى بعض التعليمات للدكتور أنيس .

ــ وإذا رزقك الله بعملية ؟

ــ لقد قلت لهم إنى سافرت فعلا .. وقد وزعت كل العمليات على أنيس ، وإبراهيم زكى .

وتوقفت العربة فى فناء المستشفى .. وهبط الاثنان متجهين إلى الدرج .

وقال جاد الله محذراً .. وهما يجتازان المدخل :

ـــ إياك أن تأخذك الجلالة وتضيع السفر .

ـــ غير معقول ، لن يستغرق مرورى أكثر من ربع ساعة .. إنى أريد أن أطمئن على الرجل الذى أجريت له العملية أمس .

ـــ الذى قطعت زوره .. أم الذى نزعت معدته ؟

ـــ الذى قطعت زوره مات فى منتصف الليل .

ـــ يا ساتر !

ـــ كان مفروضاً أنه سيموت .

ـــ لماذا لم تتركه يموت وحده ؟

ـــ لأن المفروض أن أبذل كل ما فى وسعى .

ـــ للقضاء عليه ؟!

ـــ لإنقاذه يا حيوان .. أنا لست جباناً ، حتى أترك المريض يموت وحده لمجرد خوفى من أن يقول الناس إن عمليتى كانت السبب فى موته .. مادام هناك أمل فى أن أنقذه ولو واحدا فى الألف ، فلا بد أن أجرى العملية .. إن ثلاثة أرباع الأطباء يتركون ..

وقاطعه جاد الله وهو يدفعه من ذراعه قائلا :

ـــ مفهوم .. مفهوم .. أسرع بالمرور وسأنتظرك فى المكتب .. بعد أن أمر على « تيتى » .

ـــ ألم تخرج بعد ؟

ـــ ولماذا تريدها أن تخرج .. دعنا نتسلى معها .

وافترق الاثنان .. وبعد ربع ساعة التقيا مرة أخرى فى المكتب .. وأخذ مدحت يجمع الأوراق المتناثرة على المكتب ويضعها فى الأدراج قائلا لجاد الله :

ـــ لا تدع أحداً يعبث فى المكتب .

ـ هل به شيء يخشى عليه ؟

ـ به محاضرات .. وبحوث

ـ إذن لن يقربه أحد .

ونظر جاد الله إلى الساعة فى يده وتساءل :

ـ أبقى لديك شيء تفعله ؟

ونظر مدحت حوله كمن يحاول التذكر .. ثم قال :

ـ أبداً .. هيا بنا .

وقبل أن يهما بالخروج . سمعا وقع أقدام خارج الحجرة ، ثم بدا بالباب بضع جنود يرتدون ملابس كاكية .. وقد وضعوا على رءوسهم الكاب وحزموا خصورهم بالقوايش الكاكية العريضة .

وبدت الدهشة على وجه مدحت وجاد الله . وهما ينظران إلى الحشد الكاكى الذى وقف بباب الحجرة .

وما لبث أن ميز مدحت تحت المظلات الكاكية وجوه طلبته .. ومن بينهم وجه صبرى النحيل بمنظاره السميك .

وهتف جاد الله ضاحكا :

ـ يخرب بيتكم .. ما الذى عملتموه فى أنفسكم ؟

وأجاب صبرى ضاحكا :

ـ تطوّعنا فى جيش التحرير .

وقطب مدحت جبينه .. وتساءل فى دهشة :

ـ جيش التحرير ! وماذا تفعلون به ؟

ورد أحد الطلبة :

ـ نتدرّب على ضرب النار ، وعلى الطوابير العسكرية .

وهز مدحت رأسه .. متسائلا فى استخفاف :

ـ ضرب نار ؟. أتجدون من وقتكم فراغاً لضرب النار ؟! هل انتهيتم من

دروسكم كلها ؟

وردصبرى فى نوع من الاحتجاج :

ـــ الدروس تستطيع الآن أن تنتظر يا دكتور .

ـــ تنتظر !. وضرب النار لا يستطيع الانتظار ؟

ـــ بالطبع لا .

ـــ لأن العدو على الأبواب !!؟

ـــ طبعاً على الأبواب يا دكتور .. لقد جئنا نحتج على سفرك فى مثل هذا الوقت .

ورفع مدحت حاجبيه فى دهشة .. وأطلق من أنفه نفخة سخرية وتساءل :

ـــ ما لهذا الوقت ؟

وأجاب صبرى وقد بدت على وجهه سيماء الجد :

ـــ نحن نحبك يا دكتور مدحت .. نحب رجولتك وشجاعتك .. ونود أن تكون إلى جانبنا تشد من أزرنا فى كفاحنا .

وتضاحك مدحت متسائلا :

ـــ أى كفاح !! لقد انتهت الأزمة .. لقد اتفقوا فى مجلس الأمن على الاجتماع فى جنيف لحل المسألة . إنها فورة هدأت وزوبعة مرت بسلام .

وعاد صبرى يقول فى لهجة الواثق :

ـــ لم تمر بعد .. إنهم مستمرون فى تحركاتهم وتجمعاتهم .

ـــ مجرد تهويش ، فلم يكن من المعقول أن يتلقوا الصفعة على خدهم الأيمن ليديروا لنا فى استسلام خدهم الأيسر .. هل كان هذا معقولا ؟

ورد جاد الله قائلا :

ـــ طبعاً لا .. كان لا بد لهم من الهياج والتلطيش والتشليق .. والتهديد بالويل والثبور وعظائم الأمور .

وأجاب مدحت :

ــ وهذا هو ما فعلوه .. ولا أظنهم سيجرءون على أكثر منه .

وتساءل صبرى :

ــ ولِمَ لا .. هل هناك ما يمنعهم من القيام بأكثر ؟!

ــ مثل ؟

ــ استعمال القوة .

ــ من أجل ؟

ــ احتلال القناة .

ــ هل تتصور هذا ؟

ــ ولِمَ لا ؟

ــ إنهم لن يفعلوها إلا إذا فقدوا عقولهم .

ــ أتظنهم لم يفقدوها بعد ؟

ــ ليس إلى الحد الذى يدفعهم إلى القضاء على مصالحهم وتعطيل القناة .

ــ ألم يحاولوا تعطيلها بسحب المرشدين ؟

ــ كانت مجرد مناورة .. لإظهارنا أمام العالم بمظهر العاجز المتعنت .

ــ ولو نجحت .. هل تظنهم كانوا سيقفون مكتوفى الأيدى .. أم كانوا سيتدخلون ؟

ــ ليس بالقوة .. لأنهم يعرفون معنى التدخل بالقوة .

ــ إنهم لن يكفوا عن خلق فرصة التدخل بأية وسيلة . لقد عقدوا مؤتمر لندن .. وأرسلوا بعثة « البغل الأسترالى » لعرض قرارات يعرفون سلفاً أنها مرفوضة ، لكى يظهرونا بمظهر المتعنت المتجبر ، الذى يحتاج إلى تأديب .. فلما فشلوا أقدموا على مناورة سحب المرشدين .. لكى نبدو بمظهر العاجز المفسد .. فلما فشلت .

ــ اضطروا إلى التسليم .. والشكوى لمجلس الأمن .. وقبول التفاوض فى جنيف .. أليس كذلك ؟

— لا أظن .. إنهم يعتبرون جلاءهم عن القناة غلطة كبرى يجب إصلاحها .

— بأى شيء ؟

— بالعودة .

— إلى هذا الحد ؟

— أعتقد هذا .. لقد ظنوا جلاءهم رشوة لطاعتهم .. فلما عصيناهم ندموا على رشوتهم .. وأحسوا أننا لا نستحقها .

وتساءل مدحت ضاحكا :

— وسيسحبونها منا ؟

وأجاب صبرى مؤكداً :

— سيحاولون .

— أنت متشائم جداً .. إن الزمن لا يعود القهقرى .. لقد مضى عهد القرصنة .. ولم تعد حريات الشعوب رشاوى تعطى وتسحب ، بل باتت حقوقاً لا تملك قوة أن تسلبها بعد أن كافح أصحابها فى الحصول عليها .

ورفع مدحت معصمه بالساعة .. فإذا بها قد قاربت العاشرة .. فقال للصبية المشدودين فى ثيابهم الكاكية :

— لقد أزف الوقت .. لا بد أن نرحل الآن ..

ومد يده فربت بها كتف صبرى .. وقال فى ثقة :

— لا تتشاءم هكذا .. إنها زوبعة فى فنجان ، لا تنسوا دروسكم .. فلن أرحمكم عندما أعود .

وهز صبرى رأسه وقال فى أسف :

— خسارة .

وتساءل جاد الله قائلا :

— ما هى هذه الخسارة ؟

— كنا نود أن يبقى معنا .. إنه مقاتل بطبعه

وضحك مدحت وأجاب :

ـ إن شاء الله .. لن يكون هناك ما يستحق القتال .

ومد يده يشد على أيديهم مودعاً .. ثم أردف يقول :

ـ على الأقل حتى أعود .. إن لدينا فرصة أمان حتى آخر الشهر .. فلا أظنهم سيستعملون معنا القوة قبل أن نجتمع ثم نختلف .

ثم وجه القول إلى جاد الله ضاحكا :

ـ وإلا إيه يا جاد الله ؟

وأجاب جاد الله بطريقته المهرّجة :

ـ إيه !

وبعد لحظات كانت العربة تنطلق بهما .. متجهة إلى طريق الإسكندرية الصحراوى .

وفى الساعة الرابعة .. كان مدحت يقف على سور السفينة .. ملوّحاً لجاد الله . ووقف جاد الله يشير له ملوّحاً . وقبل أن تبدأ السفينة تباعدها على الرصيف .. صاح جاد الله :

ـ اكتب لى عن كل ما يحدث

وهز مدحت رأسه .. وعاد جاد الله يصيح مؤكداً :

ـ بصراحة .

وضحك مدحت وعاد يلوّح بيده .. ومرة أخرى انطلق صياح جاد الله من الرصيف قائلا :

ـ بلغها سلامى .

وهزّ مدحت رأسه ضاحكا .

وعاد جاد الله يقول :

ـ وعرّفها فضلى عليها .. فلولاى ما كتبت إليها .. ولا كنت الآن فى طريقك إليها .

وعاد مدحت يهز رأسه ضاحكا .

وعاد جاد الله يصيح متسائلا .. والسفينة تتباعد رويداً رويداً .. والصوت يتضاءل :

ــ أستخطبها ؟!

وفغر مدحت فاه فى دهشة .. وبسط كفيه كأنما يقول لجاد الله :

ــ ما هذا الجنون .. أهذه طريقة للسؤال ؟!

ثم لوّح بيده .. واختفى داخل السفينة حتى يوقف سيل أسئلة جاد الله الحمقاء .. التى اندفعت تتدفق منه فى اللحظة الأخيرة .

واستمرت السفينة تتباعد عن الشاطىء .. وعاد مدحت ليرقب مبانى الإسكندرية وهى تتضاءل وتنكمش ، وهبت نسمة من نسمات البحر الرطبة فى صدره .. وأحس بشىء من الانتعاش ، وأطلقها فى استرخاء .. حامله معها ما تبقى فى صدره من متاعب السفر ومشكلاته وتعقيداته .

واستلقى فوق مقعد طويل .. على ظهر السفينة ، وأحس وهو يلقى رأسه على حافة المقعد .. ويمدد ساقيه ويرخى ذراعيه ، أنه مخلوق سعيد بلا هموم ولا مشكلات ، بل أكثر من هذا .. إنه ينتظر أشياء جميلة .

لقد ملأه إحساس الطفل يلقى بكراساته وكتبه ، ويستلقى فى انتظار عيد .. أو نزهة .. أو أمنية توشك أن تتحقق .

وبدأ يتذكر .. كيف بدأ الأمر .. بقلم على خريطة .. يرسم طريقه من مارسيليا تجاه الشمال ، باحثاً عن المدينة الصغيرة .. ذات الحروف الثلاثة .. القائمة وسط التضاريس البنية اللون التى تناثرت عليها الأحرف الكبيرة « الألب العليا » .

لقد مارس الرحلة أياماً على الخريطة .. استقرت فى ذهنه .. وتأكدت فى نواياه .

وقبل ذلك .. كيف بدأت المسألة كلها .

رسالة من مجهولة فى بضع كلمات .. تخبره أن حياتها معلقة .. فى رده .

ردّ عليها .. ردّ إحسان .. كما تمنح السائل الذى تمر عليه بعربتك حسنة .. لا لأنه يستحقها .. بل لأنها لن تضيرك

وردت عليه .. ورد عليها .

وهز رأسه فى دهشة :

عجيبة !! كيف حدث كل هذا ؟

كيف باتت هذه المخلوقة المجهولة .. جزءاً من حياته ؟

كيف أضحت أعز أمانيه .. وأجمل آماله ؟

كيف أمكن أن يتجسد هذا الوهم .. هذا الطيف .. هذا اللاشىء .. المكوّن من حبر على ورق .

كيف أمكن أن يتجسد ليملأ قلبه .. ويملك مشاعره ؟

كيف باتت واضحة .. مثل هذا الوضوح ؟

كيف برزت ملامحها .. وتأكدت تفاصيلها .. حتى أضحت على بعدها أقرب من أقرب الناس إليه ؟

وفجأة .. مر بذهنه خاطر أحمق مجنون .. مر بذهنه كما تمر الطلقة الطائشة .. تصيبنا بالذعر .. دون أن نعرف من أين أتت ولا أين تستقر .

ترى ماذا يفعل .. إذا لم يجدها ؟

يعنى إذا لم يلق لها وجوداً !!

إذا ذهب إلى البلدة .. وإلى البيت .. ولم يجد هناك مثل هذه المخلوقة التى رسبت فى حناياه .. وتدفقت فى أعماقه ؟!

ونفض عن نفسه هذا الخاطر الطائش

نفضه تماماً .. كما ينفض ذرّة غبار .

ورفض أن يفكر فيه .

إن « نادية » موجودة .

موجودة .. كما هو موجود .

إن ثقته فى وجودها .. كثقته فى وجوده .. فإذا جاز له أن يتصوّر أنه مخلوق وهمى .. وأن كل هذه العمليات التى أجراها .. والمرضى الذين مزق أحوافهم .. شىء لا وجود له .. وإذا جاز له أن يعتبر أن هذا الكائن المسافر على ظهر السفينة .. والذى يسترخى على المقعد فى سعادة الطفل .. كائن من ابتكار الذهن .. وخلق الأوهام .

إذا جاز له هذا .. فله أن يتصور أنها مخلوقة غير كائنة .

وسمع دقات الساقى تؤذن بالعشاء .. وجذب من الهواء الرطب نفساً طويلا .. وأطلقه حاملا معه سخافة شكوكه .. وحمق ريبته .

ثم نهض هو ليتحسس صدره فى ثقة .. ويشد عضلات ساقيه فى قوة .

واتجه إلى حجرته .. ليبدل ملابسه .. ومرت أيامه الخمسة بالسفينة .. استمتع بها بقدر ما سمحت له لهفته على الوصول .. وفى بعض هنيهات القلق .. كان يتمنى لو اتخذ طريقه بالطائرة إلى مارسيليا .. أو باريس .. أو جنيف .. أو إلى أقرب مطار يوصل إلى « جاب » .. ولكنه كان يهدىء لهفته بأن هذا الطريق أسلم .. وأقرب إلى العقل .. فالمفروض أن أساس السفر هو علاج معدته فى لندن .. وأنه قد اتخذ طريق البحر ليستريح ويستجم .. وأنه فى طريقه — عفواً وبلا قصد — وجد نفسه قريباً من « جاب » .. فوجد من باب الذوق واللياقة أن يزور صديقته التى تراسله .

أجل .. إن هذا أمر معقول .. ولا يمكن أن يلومه عليه أحد .

وهبط فى مرسيليا .

وحدث له فيها ما يحدث لكل مسافر « جديد » .. تكأكأ عليه الحمالون .. وسائقو التاكسى .. وحصلوا منه خمسة أمثال ما يجب أن يدفع .

وبعد بضع ساعات .. كان القطار الصاعد إلى الشمال ينهب به الأرض ، وتملكه إحساس بالخشية .. والقلق .. وهو يجد نفسه وحيداً .. وسط الركاب

المتفرقين فى القطار .. الذين بدا عليهم الوجوم وخيم عليهم الصمت ، وتمنى لو استطاع أن يحدث أحداً .. أن يقول له كلاماً أو يسأله عن أمر .. ولكنه لم يحس فى لغته الفرنسية من الثقة ما يدفعه إلى المغامرة بجذب أطراف الحديث .

ولم يجد خيراً من النافذة يدفع فيها بوجهه .. ويركز كل اهتمامه .. ولم يجد فى أول الأمر من المناظر ما يثير اهتمامه .. اللهم إلا الأرض الحمراء .

ولكن القطار ما لبث أن بدأ صعوده وسط الجبال .. وما لبثت مناظر السفوح الخضراء .. ومساقط المياه .. أن أخذت بلبه .. وأضاعت وحشته حتى بدأت الشمس تنحدر . للمغيب .. ومضت برهة والكون يرفل فى كساء مغربها الأرجوانى .. ثم بدأت الرمادية الشاحبة تتسلل فوق المرئيات جارة وراءها كساء الليل الأسود تحجب به الكون . فلا تبقى من ملامحه إلا عيون المصابيح المتناثرة تنفذ من ورائه .

وأخيراً .. وبعد أن بدأ النعاس يلعب بأجفان بضعة الركاب الذين ضمتهم العربة .. وقف القطار

وبدت لافتة « فين » بجوار كشك المحطة .. فنهض مدحت واقفاً .. ومد يده فقذف إلى أحد الحمالين بحقائبه .. ثم هبط فى عجلة إلى الرصيف .

وبنفس الطريق الذى حمل به قطار « جاب » .. نادية وأهلها منذ عام مضى .. حمل القطار مدحت .. بعد أن أمضى بضع الساعة فى انتظاره وسط « الشابورة » الثقيلة .. وأشباح المحطة المتحركة فى صمت .

وأخيراً .. تحقق الحلم .

وهدأ القطار قليلا .. ليقرأ مدحت اللافتة ذات الحروف الثلاثة التى تكوّن أعز أسماء المدن إلى نفسه .. وأقربها إلى قلبه .. « جاب » .

وهبط مدحت إلى الرصيف .. وأحس بالبرودة تلسع أطرافه .. وهو يقف متلفتاً حوله فى حيرة .

وأشار إلى حمال عجوز .. نفس الحمال الذى تعودت « نادية » أن تصفه له

من نافذة حجرتها فى المدرسة .

أجل .. إنه هو بظهره المحنى .. ومعطفه الكاكى .. وقبعته على أذنيه .. ويديه فى جيبيه .

وأقبل الحمال .. يهز رأسه مستفسراً .

وكاد مدحت يمد يده إليه مصافحاً .. إنه يعرفه جيداً .. ويعرف كل ما حوله .. يعرف كشك المحطة .. والسنديانة التى تحيطه بذراع .. وترفع ذراعها الأخرى إلى السماء .

أجل .. إنها هى بلا شك .

لشد ما أجادت « نادية » وصفها .

وناظر المحطة البدين .. وكلبه الأعجف .

وعاد الحمال يرفع إليه عينيه مستفسراً .

وبدأ مدحت يحدثه بالفرنسية .. سائلا عن فندق .

وأجاب الحمال العجوز :

ـــ يوجد فندق فى الميدان .. وفندق آخر بجوار المحطة .

وكاد مدحت يقول له :

ـــ أعرف .

ولكنه هز رأسه قائلا :

ـــ أى فندق .. يقضى

وكانت الساعة قد جاوزت الثانية عشرة بعد منتصف الليل ، والضباب قد تكاثف حتى كاد يخفى أشباح الشجر والدور .

وقال الحمال :

ـــ لا ضرورة للتاكسى .. فالمسافة قريبة .

وهنا لم يملك مدحت إلا أن يجيب :

ـــ أجل .. أجل .. أعرف !.

ورفع إليه الحمّال عينيه من الدهشة .. ثم انحنى ليحمل الحقيبتين .. ولكن مدحت تناول إحداهما قائلا :

ـــ لنتقاسم الحمل .

وضحك العجوز ، وقال متسائلا :

ـــ ونتقاسم الأجر ؟

وربت مدحت ظهره ضاحكا .. ثم سارا سوياً يطرقان أرض الطريق الصامت بكعوب حذاءيهما .

وسار الحمال إلى الميدان .. وهو يقول لمدحت :

ـــ هذا الفندق أحسن .. وأهدأ ..

ودلف الاثنان من الباب الزجاجي .. ولكن قبل أن يضعا الحقائب من أيديهما أطل وجه امرأة من وراء الباب .. وقد غلبها النعاس .. وهي تقول :

ـــ لا حجرات خالية .

ورفع الحمال العجوز الحقيبة في صمت .. وقال لمدحت :

ـــ لم يبق أمامنا إلا فندق المحطة .. إنه قديم .. ولكنه محتمل .

وعاد الاثنان إلى الفندق المطل على المحطة .. والملاصق للمدرسة .

وتساءل مدحت على سبيل التأكيد :

ـــ أهنا مدرسة بجوار الفندق ؟

وأجاب الحمال العجوز :

ـــ أجل .. مدرسة الأب رينو .

وأخيراً استقر مدحت في حجرته بالفندق .. حجرة عتيقه سميكة الجدران .. ذات فراش نحاسي .. وحوض قديم في أحد أركانها .

وأحس مدحت بأنه مجهد .. وأنه لم يعد له من سبيل .. سوى النوم ، وأبدل ملابسه والنوم يغالبه .

ولم يكد جسده يستقر على حشية الفراش .. ويتدثر بأغطيته .. حتى راح في

سبات عميق .

واستغرق فى نوم طويل .. لم يفق منه إلا وشعاع من الضوء الأصفر يتسلل من النافذة .

وتمطى فى فراشه .. ورفع رأسه ليرقب النافذة المواجهة التى تسلل منها الضوء .. فإذا بمنظر يبهره .

منظر طالما حملته إليه « نادية » فى رسائلها .

منظر السفوح الخضر .. ذوات القمم البيض التى تبدو فى أقصى الأفق . .

وقفز من الفراش .. وفتح زجاج النافذة .. وأحس نسمة الصبح البليلة الباردة .. وأطل منها على السنديانة وسقف المحطة .. وبدت أمامه بقية الأسقف الحمر المنحدرات .. ومداخنها التى لم تلفظ بعد أنفاسها .

وبدا كل شىء لعينيه كما تعوّد أن يعرفه .. وأن يراه .

وبدا الطريق نظيفاً .. وأوراق الشجر يتساقط منها الندى .

وأشعة الشمس المشرقة تداعب قمم الدور وأطراف الشجر .

وكل عصفور يزقزق .. أو نسمة تهب .. تشعره بأن « نادية » هنا .. وأنها باتت منه على مد ذراع أو خطوة قدم .

إنه معها فى نفس المدينة .. لم يعد لقاؤهما وهماً ولا حلماً .

(٤٣)

ضمة على قبر ..

مرت الأيام القلائل الأولى بعد وفاة « منى » .. والبيت يسوده صمت القبور ، ووحشة الليل ، وسكينة الأطلال .

لا صراخ ، ولا عويل ، ولا أنين .. والحديث — إذا تحتم — يسرى همساً .. والحركة — إن وجبت — تجرى تسللا .

وسكان البيت .. يبدون كالأشباح المذعورة النافرة .

« الأم » منطوية فى حجرتها .. جسداً بلا حس ولا حراك ، ولا أثر فيها للحياة إلا زفرات حارة تنطلق من صدرها بين آونة وأخرى .. كأنها تنفس عنه ما تراكم به من حمم الوجيعة وسعير اللوعة .

و « الجدة » قابعة فى مقعدها ... شاردة الذهن ، جاحظة العينين ، فاغرة الفم .. تتمتم شفتاها بكلمات يفهم منها بين حين وآخر « يرحمنا الله » .

وبقية أهل البيت .. يتحركون فى وجوم وشرود ، وفى عيونهم ذهول من الضربة المفاجئة التى اختطفت الصبية اليانعة .. التى كانت تملأ البيت مرحاً وتغريداً

و « نادية » .. حبيسة فى غرفتها .. مستلقية فى انهيار ، أو متشنجة فى نحيب .. أو شاردة فى ظلمات من الكآبة والوحشة .

ولم تفلح محاولات « جابى » وبقية الشلة فى انتزاعها من سجن أحزانها ، والتخفيف من لوعتها .

كانت أحياناً لا تصدق أن « منى » قد فارقتها إلى غير عودة .

كانت تتوهم أن كل ما حولها كابوس مزعج لا تفتأ أن تفيق منه .. وكانت

تتوقع من آونة وأخرى أن تسمع نداءها ، وتبصر بسمتها وهى تدخل عليها ضاحكة .. لتدعوها للخروج ، وتؤنبها على انطوائها فى غرفتها ، وتخبرها أن الحياة جميلة .

كانت تملأ تفكيرها فى اليقظة ، وأحلامها فى النوم .. تارة تدعوها للحياة .. وتارة تستغيث بها من الموت .. تارة ناضرة يانعة ، وأخرى زاوية ذابلة .

ورأتها ذات ليلة تقبل عليها لاهثة وقد افتر ثغرها عن ابتسامتها المرحة .. لتنبئها أنها قد رأت مدحت مقبلا من المحطة .. وأنها قد أخبرته أنها « منى » .. وأن « نادية » تنتظره فى البيت ، وأنه قد أقبل لرؤيتها ، وأخذت تجرها من ذراعها لتهبط بها إليه ، وأخذت « نادية » فى المقاومة وهى تصيح بها حانقة ، وقد صممت ألا تراه .

وأفاقت « نادية » من نومها ، وهى تصيح « بمنى » أن تتركها وشأنها .. وفتحت عينيها على ضوء القمر يتسلل من النافذة ، وأحست أن ما مر بها أضغاث أحلام .. فدفنت رأسها فى الوسادة .. واندفعت فى نحيب أليم .. حتى أغرقت عبراتها الوسادة .

وعندما هدأت نوبة البكاء .. جلست فى فراشها ترقب الضوء المتسلل من وراء الأفق ، وعادت تفكر فى الحلم .

ترى ماذا يمكن أن تفعل .. إذا أتى مدحت !!

يأتى .. فى مثل هذه الظروف المليئة بالحزن واليأس والوجيعة !

هل يمكن أن يحدث هذا ؟!

هل يمكن أن تبلغ سخرية القدر بها .. إلى هذا الحد ؟!

أن ترسل إليها مدحت .. فى هذه الظروف البغيضة المشئومة !؟

وأطلقت من صدرها زفرة حادة .

لقد كانت « منى » .. الوحيدة التى تستطيع أن تنقذها من ورطة اللقاء .

وتذكرت دعابة « منى » . وكيف عرضت عليها أنها ستلقاه .. وماذا تنوى ،

أن تقول له .

وعاد الدمع ينهمر من عينيها فى صمت .. ومدت طرف لسانها ليلعق السائل الملح المنحدر على ملتقى شفتيها .

ثم مسحت عينيها وأنفها بطرف كمها .. وعادت تفكر مرة أخرى .

أحقاً ينوى مدحت الحضور ؟!

لقد أرسلت له رسالة تلمح له فيها بأن سفرهم محتمل فى وقت حضوره ، ولكنه أرسل إليها مازحاً ليقول إنه سيأتى حتى ولو كانت غير موجودة .. لمجرد أن يرى البلدة ، وكتب إليها لأول مرة فى حياته بيتاً من الشعر « أمر على الديار .. ديار ليلى » .

فحضوره إذن غير مستبعد .

ماذا يمكنها أن تفعل .. إذا فعلها هو وحضر ؟

أليس من الأفضل أن تكتب إليه الآن لتنبئه بطريقة قاطعة أنها قد سافرت إلى جنيف .. أو أى مكان .. لأنها مريضة ، وأنها ستكتب إليه من عنوانها الجديد ؟

أجل .. إن هذا خير ما تفعله .

أن تنبئه بأنها سافرت .. وأنها ستكتب إليه مرة أخرى ، وهو لا شك سينتظر حتى يعرف عنوانها الجديد .. فلعله يستطيع زيارتها فيه .

وعليها أن تكف عن الكتابة إليه .. حتى تستطيع أن تدبر أمرها معه .

إن كل ما تريده الآن .. هو الفرار من لقائه .

على الأقل حتى تلتقط أنفاسها ، وتهدىء من روعها .. أثر الكارثة المؤلمة .

ونهضت من فراشها ، وأحضرت كراستها الزرقاء .. وبدأت فى الكتابة .

وأنهت الرسالة فى بضعة أسطر .. رسالة مقتضبة تنبئه فيها بأنها ستسافر الآن إلى جنيف لأنها مريضة .. وستكتب إليه بمجرد وصولها .

وأطبقت الظرف على الرسالة .. وكتبت العنوان ، وأحست بشىء من الارتياح والطمأنينة .

ونظرت إلى ساعتها .. فإذا بها السابعة .

بعد نصف ساعة .. ستستدعى « بول » وتأمره بوضعها فى صندوق البريد ، وينتهى الأمر .

وستكف بعد ذلك عن الكتابة .. شهراً .. شهرين

وسيتوقف هو عن الكتابة ، وعن الحضور .. و .. وفجأة .. دق جرس الباب .

وعادت تنظر إلى الساعة .. فى شىء من الدهشة !!

من يكون الطارق المبكر ؟!

إن « بول » لا يدق الباب قبل السابعة والنصف .

وأحست أن عليها أن تنزل لتفتح الباب .. فأمها وجدتها لا تفتحان ، وجانيت لا بد أن تكون مستغرقة فى النوم .

وأسرعت تهبط الدرج .. بعد أن دق الطارق ثانية .

ومدت يدها تفتح الباب .. لترى الطارق .

وبدا لها الطارق طويلا ، عريض المنكبين ، غير مقطب الجبين ، ولا متجهم الوجه .. بل مبتسما فى رقة ، مطرقاً فى حياء .

وفغرت « نادية » فاها .. ووقفت لحظة ترقب فى ذهول ، كأنما قد رأت شبحاً مخيفاً .. ثم انطلقت من شفتيها صيحة ارتياع واندفعت تعدو هاربة إلى أعلى .

وبلا وعى ولا إرادة ، وقبل أن تفكر فى أى شىء ، أو تفعل أى شىء ، أمسكت بالإيشارب تشده حول رأسها ، ثم أبدلت ثياب نومها فى سرعة البرق بسويتر عالى الياقة .. وأحكمت الياقة جيداً حول عنقها .

ثم عادت تهبط السلم فى بطء ووجل .. مذعورة القسمات .. مرتعدة الأوصال ، لاهثة الأنفاس ، يكاد قلبها من فرط دقاته يقفز من ضلوعها .

وكان ذهنها يعمل بسرعة .

إنه يقف أمامها بالباب .. بلحمه ودمه

مدحت نفسه .. لا طيفه ولا صورته .

ماذا تقول له ؟

وماذا تفعل به ؟

إن المفروض أنها ليست « نادية » .

فهو يعرف « نادية » من صورها ، ويعرف أنها ليست « نادية » .

وحتى لو لم يعرف ، فهى لا تجسر أن تقول إنها « نادية » .

ولكنه قد أتى ليقابل « نادية » .

فأين « نادية » إذن ؟

أتقول له إنها سافرت ؟

أين ؟.. إلى جنيف للعلاج ؟.. كما كتبت له منذ لحظة . أين عنوانها ؟.. لا تدرى !

أمعقول هذا ؟

ولكن أين « نادية » فعلا ؟

« نادية » التي يعرفها من صورها .

لماذا لا تقول له الحقيقة ؟

لماذا لا تقول له إن « نادية » التي يتخيلها فى ذهنه .

« نادية » التي أتى ليراها ، والتى كان مفروضاً أن يلقاها .

قد ماتت .

لماذا لا تقول له الحقيقة ؟! وتنتهى !

ولكن أحقاً أن « نادية » قد ماتت !

أيمكن أن يقضى على حبها .. على مشاعرها، على إحساسها بالزوال والفناء !

إن « نادية » التي فى الصورة قد ماتت .

لم يعد لمخلوق على ظهر الأرض أن يريه إياها .

ولكن « نادية » التى تحبه ، والتى دعته ليطوف معها بقمم الجبال وشاطئ البحيرة .. لم تمت بعد .

إنها على قيد الحياة .. تحبه كما كانت تحبه دائماً .

ولكنها لا تجسر أن تلقاه ، وأن تخبره بأنها هى التى تحبه ، وهى التى كتبت إليه .

بل إنها تخشى ألا يعترف بها .. وأن تكون « نادية » قد ارتبطت فى ذهنه وقلبه .. بصورتها أكثر مما ارتبطت بحبها ومشاعرها .

إنها لا تجسر .. إنها لا تستطيع .

ووصلت إلى الدرجة الأخيرة من السلم .

وبدا لها مرة أخرى يقف بالباب .. بشبحه الطويل ، وكتفيه العريضتين .. وملامحه التى تبدو فوقها الابتسامة الرقيقة ، والحيرة الوجلة .. نظرة عتاب ودهشة .. من هذا الاستقبال العجيب .

وتقدمت « نادية » تجاه الباب ، وهى تحس أن قدميها تلتفان إحداهما حول الأخرى ، وأنها توشك أن تتعثر فى كل خطوة .

وقبل أن تفتح فمها لتقول شيئاً .

هز رأسه متسائلا فى صوت رقيق :

— أين نادية ؟!

وأحست « نادية » أن سؤاله قد اعتصر قلبها .

و لم يعد أمامها مجال للتردد .. فقد قطع سؤاله كل شك ، وأكد لها أنها ليست « نادية » .

وازدردت « نادية » ريقها .. وبللت شفتيها الجافتين بطرف لسانها ، وقبل أن تتمالك كى تقول شيئاً .. عاد مدحت يتمتم معتذراً :

— آسف على هذا الإقلاق المبكر .. ولكنى فى الواقع لم أستطع الانتظار فى الفندق .. و لم أعرف إلى أين أذهب ، وخيل إلىّ أن حضورى لن يقلق « نادية » .

وساد الصمت مرة أخرى .. وبدت « نادية » عاجزة عن النطق ، وهى تنظر إليه فى ذهول .

وعاد هو يسأل فى شيء من القلق :

ـ أأستطيع أن أرى نادية ؟!

وفجأة رفعت « نادية » كفيها إلى وجهها ، وأجهشت بالبكاء .

وذهل مدحت ، وتملكه إحساس بالخوف .. وعاد يسأل الصبية المجهشة بالبكاء فى نبرة قلقة وجلة :

ـ هل .. هل حدث شيء ؟!

ورفعت « نادية » كفيها عن وجهها .. وبدا لها مدحت من خلال عبراتها ، وهو يتساءل فى إلحاح :

ـ هل حدث شيء لنادية ؟!

وأجابت « نادية » فى صوت مختنق :

ـ إنها ماتت .

وفغر مدحت فاه .. وهو يحس كأن شيئاً فى باطنه يلوى أمعاءه .. وتساءل فى همس مبحوح :

ـ ماذا تقولين ؟!.

وأجابت « نادية » فى لهجة يائسة مريرة .. وهى ترقب هيكله المترنح .. وقد استند بذراعه إلى الباب :

ـ نادية .. ماتت .

وأحس مدحت بأنه لا يريد أن يصدق أذنيه .

إن المسألة لا يمكن أن تنتهى بهذه الكيفية .

غير معقول أبداً .. أن تصل سخرية القدر إلى هذا الحد .

كل شيء كان محتملا .. إلا هذا .

لقد خطر بباله لحظة ، وهو فى السفينة .. أنها قد تكون خدعة ، وأنها بعد كل

ما تركته من أثر فى نفسه قد تكون غير ذات وجود .

ولكنه لم يطف بذهنه أبداً .. أن يجدها ، وفى اللحظة التى يجدها .. يعرف أنها قد أصبحت شيئاً غير موجود .. أنها ماتت .

وعاد يردد فى ذهول ، وهو يحس بالأرض تميد تحت قدميه :

ـــ ماتت ؟! ماتت ؟

وأحست « نادية » بحركة فى الداخل ، وتملكتها حيرة شديدة ، ولم تعرف ماذا يمكن أن تفعل بعد أن قالت ما قالت . بعد أن أصابت أعز ما عندها .. فى أعز ما عنده .

وتمنت لو استطاعت أن تضمه إليها .

أن تتعلق به ، وتمسح دموعها فى وجهه .. وتخبره أنها « نادية » .. وأنها لم تمت .

ولكنها أحست أن هذا آخر ما يمكن أن تفعله .

وبدا لها أنها يجب أن تتصرف بطريقة ما .

أن تدعوه إلى الدخول مثلا .. بدل أن تظل واقفة أمامه وهو يترنح مشدوها أمام الباب .

ولكن ماذا يفعلان فى الداخل ؟

يجلسان فى صمت .. لتقدم إليه فنجاناً من القهوة !

وقد يخطىء أحد من البيت ويناديها « نادية » .

ثم ما الفائدة من إدخاله ؟.. أمها لا تلقى أحداً ، وجدتها لا تحدث أحداً

ولكن الواجب أن تدعوه إلى الدخول .. غير معقول أن تتركه يرحل فى نفس الدقيقة التى رأته فيها .

ولكن أمعقول أنه سيرحل ؟!

وأحست أنها لا بد أن تقول شيئاً .

فتراجعت خطوة مفسحة له الطريق ، وقالت فى صوت يملؤه الأسى :

ـــ تفضل .

وأجاب مدحت وهو يرفع كفه ويضغط به على جبينه فى شىء من العنف .. كأنما يحاول أن يفيق من صدمته :

ـــ متشكر .. أظن من الخير أن أعود إلى الفندق .. لآخذ أول قطار .

وردت « نادية » فى مرارة :

ـــ ولكن .. ألا تمكث برهة .. ألا .. أعنى .. ألا تريد أن تعرف .

ـــ أعرف ماذا ؟!

وهز رأسه كأنه غريق فى دوامة ، وأردف يقول :

ـــ لا أستطيع أن أصدق أبداً .. غير معقول .

ثم رفع رأسه وقال فى حدة ، وهو يضغط على نواجذه كأنما يبذل جهداً لكى يمنع نفسه من الانهيار :

ـــ كيف حدث هذا ؟! كيف ؟.. لقد أتيت لألقاها ، وأحدثها .. كنت أنوى أن أقول لها أشياء كثيرة .

وصمت مرة أخرى وهو يحاول أن يكبت دمعه .. ويوقف اختلاجة وجهه الباكية .. ثم أردف يقول :

ـــ وكنت أحس أنها تود أن ترانى .

وعاد مرة أخرى يردد كالمأخوذ :

ـــ كيف !! كيف !!

واستدار فى بطء . وسار فى تثاقل متجهاً إلى باب الحديقة ، وقد بدا وجهه مكفهراً مشدوهاً .

وسارت « نادية » وراءه .. وهى تحس أنها لا تستطيع تركه ، وهتفت متوسلة :

ـــ تفضل .. استرح برهة .. غير معقول أن تتركنا هكذا .. ابق قليلا من أجل « نادية » .

واستمر مدحت فى خطواته المتثاقلة ، وقد تهدلت كتفاه ، وانحنى ظهره كأنما حط عليه فجأة عبء أثقل كاهله .. وهد قواه .

وعادت « نادية » تقول له فى لهجة بين الدموع والرجاء :

ـــ إذن أسير معك حتى أوصلك .

والتفت مدحت إليها ، وزفر زفرة حارة .. ثم سألها فى صوت مختنق :

ـــ أأنت منى ؟

ـــ أجل .

ـــ كانت تتحدث عنك كثيراً .. كانت تحبك .

وبلغ مدحت باب الحديقة الخارجى .. وقبل أن يجتازه التفت وراءه ، وألقى على البيت نظرة شاملة استقرت على أحواض القرنفل المستقرة على جانبى المدخل .. ثم تمتم كأنما يحدث نفسه :

ـــ كل شىء كما وصفته .

وهز رأسه فى أسى ، وهو يرفع بصره إلى الأفق .. حيث بدت سفوح الجبال تعلوها القمم .. ثم أردف فى مرارة :

ـــ كان مفروضاً .. أن نصعد الجبل سوياً .

وأطلق زفرة ، ثم تمتم فى يأس :

ـــ كان مفروضاً أن نفعل أشياء كثيرة .

وهمّ مدحت بالسير . ولكنه توقف فجأة .. وتساءل فى لهجة مترددة :

ـــ هل .. هل .. أستطيع ...

ثم توقف ، وبدا كأنه يغالب نوبة بكاء .

وعندما سيطر على خلجات وجهه وكبح دمعه .. عاد يقول :

ـــ منى .. هل أستطيع أن .. أن أزورها ؟!

ولم تستطع « نادية » أن تكبح نحيبها .. كان منظره ، وهو يكبت دمعه .. مثيراً مروعاً .

وأجابته فى صوت يقطعه النشيج :

ـــ سأذهب معك إلى هناك .

ورفع مدحت عينيه وأخذ يرقبها فى أسى وقال :

ـــ لست أريد أن أزعجك .. صفى لى الطريق .

وردت « نادية » فى إصرار :

ـــ بل سأذهب معك .

وسارا برهة وسط الحقول ، ومدحت مطرق .. شارد الذهن .. حتى بلغا الطريق .. وتوقفت « نادية » برهة ثم قالت ، وهى تنحدر إلى طريق المقابر :

ـــ إن الطريق طويل بعض الشىء .

و لم يجب مدحت ، ولكنه أطلق تنهيدة مريرة ، وهز رأسه هزة المشدوه ، وتمتم لنفسه قائلا :

ـــ عجيبة هذه الدنيا .. كان مفروضاً أن نطل سوياً على هذا الوادى من فوق الجرف .

والتفت إلى « نادية » ، وتساءل قائلا :

ـــ ألا تقع هذه المقابر فى أسفل الجرف ؟

وهزت « نادية » رأسها بالإيجاب .

وعاد مدحت يتمتم قائلا :

ـــ كانت دائماً تطيل تأملها من حافة الجرف ، وراء البيت المهجور ، وكانت تقول لى إن شيئاً ما يجذبها إلى هناك .

وصمت برهة .. ثم أردف فى صوت خافت ، وهو يرفع قدميه فى تثاقل :

ـــ و لم أتصور أبداً .. أن هذا الشىء سيجذبها قبل أن أصل .

ولاحت المقابر أسفل المنحدر .. وأحست « نادية » عند رؤيتها بما يشبه الغثيان .. وخيل إليها أنها توشك أن تسقط .. ولكنها حاولت التجلد .. لأنها كانت تود أن تطيل السير معه .

كانت تحس بشيء من العزاء ، وهي تسير بجواره .. ولم ترد أن تفقد هذا العزاء .

وتمنت لو طال الطريق .. إلى المقابر .. إلى ما لا نهاية .. فبنهايته ينتهي سيرها إلى جواره .. وهو أقصى ما استطاعت أن تصل إليه .

سخرية عجيبة !!

أن يمنحها القدر أعز ما ترجو .. وأقصى ما تتمنى .. بهذه الطريقة المذهلة .

أن يجعل أول نزهة لها بجواره .. زيارة لقبرها .

أن تكون المرة الأولى والأخيرة التي تصحبه فيها .. لا يكون لها وجود إلا كمخلوقة ميتة .. لم يبق منها سوى قبر يزار .. ولم يعد لها من أمل سوى دمعة تسكب .. أو آهة تصعد .

وانتهى الطريق .

وانتهت آخر رحلتها معه .

وانتهى معه آخر أمل لها فيه .

حتى الأمل الموهوم .. الذي كانت تعدو وراءه .. لم يعد لها فيه مطمح ولا مرتجى .

حتى الكتابة .. حتى الأمنية السرابية التي كانت تتعلل بها .. قد باتت عليها مستعصية .

كيف تكتب إليه .. بعد أن ماتت ؟

وبدا لها قبر « منى » .. أو قبرها .

وانحنت عليه تبكي الاثنتين .. أختها ونفسها .

ووقف مدحت فترة يحاول التجلد .. والتماسك .. وبدا المكان من حوله ، وقد تكاثفت به الأشجار .. وكسته الخضرة .. وهبت نسائم الصباح رطبة تهز فروع الزنبق الأبيض التي أغرقها ندى الفجر .. وتحمل عبيره في كل هبة من هباتها الرقيقة العليلة .

ولم يحس مدحت بوحشة المقابر .. وبدت الطبيعة من حوله وكأنها تؤنس وحشة الموتى ، وتملكه حنين إلى الجلوس بجوار الراحلة الموهومة .. التى أحبها وهماً .. وفقدها وهماً ، ولم يعرف منها إلا وهماً فى وهم ؟.

ماذا يضنيه الآن أن يجلس إليها .. ويؤنس وحشتها ؟.

إنها على الأقل أقرب إليه منه فى أى وقت مضى .. إنها منه على بعد خطوات .. ولو صدق حديث الناس عن الروح الباقية .. لكانت الآن تراه .. وتحس به .. وتسمعه .

فلماذا لا يناجيها .. ويدللها .. ويقول لها ما لم يجرؤ من قبل على قوله .. يقول لها إنه يحبها .. وإنه جاء لخطبتها .. وأنه سيأخذها معه إلى مصر .

وازدرد مدحت ريقه .. وبلل شفتيه .

وأحس بنفسه ضعيفاً .. متخاذلا .. لا يقل ضعفاً وتخاذلا .. عن هذه الصبية الجاثية فوق القبر .

وهز مدحت رأسه .. كأنما يحاول أن ينفض عنه خذله وضعفه .

وانتفض فى وقفته .. كعصفور بلله القطر .

جنون .. فى جنون .. وحمق .. فى حمق .

ألم يكفه كل ما فعل .. من سخافات وتفاهات ؟

يغرق فى حب موهوم .. ويقطع كل هذه المسافات من أجل مخلوقة .. لا يعرف عنها إلا تصورات وخيالات .

من أجل طيف .. أو خيال .

وبعد هذا يقف منهاراً متخاذلا .. فى هذا المكان الموحش القصى .. ليهرف كالمخبولين .. ويهذى كالمجاذيب !

عد من حيث أتيت ، وانس كل ما كان من أمرها وأمرك .

إنها تجربة فى وهم .. فكن أشد من التجربة ، وكن أقوى من الوهم .

رفع رأسه .. وأطلق زفرة حارة ، وهمّ بالتراجع .

وأحست « نادية » بحركة قدميه على الحشائش .. فرفعت إليه رأسها .

والتقت عيناه بعينيها .

وأبصر مدحت الدمع المنساب على وجنتيها .. المنزلق على زاويتى شفتيها .

وأحس بوجهها شيئاً حبيباً .. إلى نفسه .

شيئاً أذاب تجلده .. وفكك تماسكه .

وتملكته رغبة جارفة فى البكاء ، واختنق صوته .. وامتقع وجهه .. وتصاعد الدمع إلى عينيه .

وعاد يجد نفسه ضعيفاً .. عاجزاً .

أضعف وأعجز .. من الفتاة الرقيقة الراكعة أمامه .. وانساب الدمع فى سكون على خديه .

وتصلب فى وقفته ، وعيناه تحدقان فى عينيها .. والدمع ينهمر من مقلتيه فى صمت .

وفجأة ، أحس بها تندفع إليه لتدفن وجهها فى صدره ، وتنكمش فيه كأنما تحمى نفسها من خطر داهم ، أو تقى نفسه من عاصفة عاتية

ومد ذراعه يحيط به كتفيها فى عطف ويتحسس رأسها فى حنان ، وسيل دموعه ما يزال يتدفق من مآقيه فى سكينة وصمت .

وبعد فترة ، أحس كلاهما بالهدوء .

ورفع ذراعه بهدوء عن كتفيها ، وانسحبت من صدره فى رفق ، وبنفسها إحساس عجيب بالقناعة .

لقد ضمها إليه .

لقد أحست برأسها على صدره .

حسبها هذا ، فقد فاق كل ما كانت تحلم به .

لقد حنا عليها ، وكفكف دمعها .

ورفعت إليه عينين تفيضان بالشكر والامتنان .

ومد يده فأمسك كفها ، وباليد الأخرى قطف أحد أعواد الزنبق ووضعه فوق القبر ، وهمس لنادية :

ـ سأعود كل عام لأضع زهرة على قبرها . وعندما أعجز عن العودة .. ضعى لى أنت الزهرة .

(٤٤)

وداع له معالم !..

غادر مدحت المقابر وكفه مطبقة على كف « نادية » .

متخذين طريقهما صوب البلدة ، وقد خيم عليهما الصمت ، وكسا ملامحهما الأسى والوجوم .

وكان الطريق يمتد أسفل الجبل .. وقد انبسط الوادى على يساره ، وقام السفح المنحدر على يمينه .

ورفع مدحت بصره إلى أكداس الأشجار المتكاثفة فوق السفح .. ووصل إلى أذنيه خرير المياه تتدفق بين أخاديده وتتساقط على رباه .

وتذكر جولاته مع « نادية » على السفح .. وانزلاقهما على الجليد ، وجلستهما على شاطىء البحيرة ، وتملكه حنين شديد لأن يطوف بكل تلك الأماكن التى دعته إليها ، وأن يراها رأى العين .. لا رأى الوهم والخيال ، وأحس بأنه سيطفىء برؤيتها بعض شوقه ويروى بعض غلته .

وأكثر من هذا .. أحس بأنه سيحقق لها بعض أمانيها ، سيطوف بكل ما دعته إليه ، وسيرى كل ما كانت تود أن تراه . سيجلس فيه ، ويتحسس حصاه وأحجاره ، ويشم نسائمه ، ويجعل منه فى نفسه حقيقة ملموسة .. لا تبهت صورتها من ذاكرته ، ولا يمحى أثرها من ذهنه .

سيطوف بالسفح .. ويمشى على شاطىء البحيرة ، ولن يحس بنفسه وحيداً ، فسيدعوها هو هذه المرة ، سيدعوها إلى موطنها ، إلى شجيراتها وأزاهيرها .. وسيجلس معها على المقعد الحجرى .. وراء المنزل المهجور ليطل وإياها على الوادى .. وعلى صفوف المقابر المنتظمة ، حيث كانت تحس بشىء يجذبها إليها ،

والتى لا شك سيحس هو إليها بنفس الجاذبية .

والتفت نصف التفاتة إلى الصبية المطبقة على كفه .. وبدا له رأسها وقد لفه الإيشارب ، وخصلة من الشعر تتدلى على جبينها ، وياقة « السويتر » قد أحكمت حول عنقها ، وبدت له مخلوقة قريبة إلى قلبه ، وأحس لها بشعور عجيب من السكينة والارتياح .

ولمح جانب وجهها ، فأحس برجفة تسرى فى أطرافه ، لشد ما كانت تشبه أختها .. بأرنبة أنفها الدقيق ، وحواجبها المقرونة ، وخصلة الشعر المدلاة على جبينها .

لولا هذا الإيشارب الذى شد حول وجهها ، ولولا هذا الشحوب حول عينيها ، و« الحسَنة » التى فى جانب ذقنها .

ولولا أنه يعرف أن « نادية » العزيزة قد ماتت

لظن أنها هى التى تسير بجواره .

وعاد صوت الخرير المتدفق فوق السفح يصل إلى مسامعه وزاد به الحنين إلى مراتع ذكريات « نادية » ، وملاعبها .. وسفوحها وشواطئها

والتفت إلى السائرة بجواره و« تنحنح » ليجد صوته ، ثم قال فى شبه تمتمة :

ـــ هل .. هل .. أستطيع أن أصعد الجبل ؟

وأحست « نادية » برجفة تهزها من أخمصها إلى أعلاها . ومضت فترة قبل أن تتمالك نفسها لتستطيع الرد .

وعاد مدحت يتمتم فى شبه اعتذار :

ـــ أنا أعرف أن هذا ليس وقته ، ولكنى أحس بحنين شديد إلى أن أطوف بكل ما دعتنى إليه « نادية » .

وازدرد ريقه كالطفل المذنب ثم عاد يقول :

ـــ لقد تعوّدنا أن ندعو بعضنا دعوات وهمية فى رسائلنا . كنت أدعوها إلى النادى للغداء ولعب الاسكواش ، وكانت تدعونى للصعود معها إلى الجبل

والسير على شاطىء البحيرة ، إنى أكاد أعرف منها كل بقعة هنا . وأحس بأنى ..

وعاد مرة أخرى ليزدرد ريقه .. ثم صمت برهة . وأردف يتمتم راجياً :

— إنى أحس بلهفة إلى أن أرى هذه الأماكن التى دعتنى إليها . أحس بحنين شديد إليها ، كأنى سأرى نادية فيها .

وصمت مرة أخرى ، وغلب انفعال « نادية » قدرتها على الرد . أحقاً يجب أن يرى مراتع نزهتهما معاً ؟! أحقاً سيمنح لها القدر فرصة اصطحابه إليها ؟!

وعاد مدحت يتمتم فى لهجة المعتذرة :

— لو كنت تسمحين باصطحابى إليها .. إنى لا أريد أن أضايقك .. ولكن ..

يضايقها !!

يضايقها .. باصطحابها إلى كعبة أوهامها !!

يضايقها .. بمنحها فرصة العمر التى كانت تتوق إليها !!

يضايقها .. بإطالة أول وآخر لقاء ينعم القدر به عليها !!

إنها لم تحس بحاجتها إلى شيء .. قدر هذا الشيء الذى يطلبه منها .. وأن تطوف به .. مرة واحدة . مرة واحدة .. قبل أن يتبدد كل شيء .. حتى الأمل السرابى الذى كانت تحيا من أجله .. والأمانى الوهمية التى كانت تعيش بها فى رسائلها إليه .

ورفعت « نادية » رأسها إليه وهى تمد يدها الخالية لتحكم الإيشارب حول رأسها وتمتمت بقدر ما سمح لها انفعالها :

— لن يضايقنى أبداً .. ليس لدىّ ما أفعله .

واشتدت ضربات قلبها وهى تردف قائلة بعد فترة صمت :

— ليس أحب إلى نفسى من اصطحابك ، حيث شئت .

وبدا الارتياح على وجه مدحت وهو يتمتم قائلا :

— لست أدرى كيف أشكر لك .. إنى بلا شك قد سببت لكم إزعاجا ،

وأعتقد أن لديكم ما يكفيكم .

وأطلقت « نادية » تنهيدة .. وأجابت قائلة :

ــ بالعكس .. لقد منحتنا زيارتك كثيراً من العزاء .

ــ كانت زيارة مفاجئة .. كنت أريد أن أفاجىء بها « نادية » .. ولكن القدر كان أسبق منى بالمفاجأة .. مفاجأة قاصمة قاضية .

ــ قاصمة لنا جميعاً .

ــ لقد كانت تعرف أنى سآتى .. وقالت لى فى آخر رسائلها إنها ربما سافرت .

وتمتمت « نادية » قائلة :

ــ أجل .. لقد كنا على وشك السفر .. قبل أن يفاجئنا مرضها .

ــ لم تقل لى أبداً أنها مريضة .

ــ كان أمراً مفاجئاً .. نزيف فى الصدر ، لم يمهلها سوى بضعة أيام .

ــ بلا أى سبب ؟

ــ إجهاد .. تجديف فى البحيرة . وعدو .. و ..

وأطلق « مدحت » تنهيدة أليمة .. وتمتم قائلا :

ــ لو عجلت بالمجىء .. لاستطعت أن أمنعها .. ولما تركتها تجهد نفسها أبداً .

وكانا قد وصلا إلى مفترق الطريق حيث يتفرع الطريق إلى طريقين : أحدهما يؤدى إلى الجبل ، والآخر إلى البلدة .

وتوقفت « نادية » قائلة وهى تشير إلى الطريق المتجه إلى اليمين :

ــ هذا هو الطريق الصاعد إلى الجبل .

وبدا عليها التردد برهة .. ثم أردفت قائلة :

ــ أتحب أن نصعد الآن ؟

ــ إذا لم يكن فى ذلك ما يعطلك .. أو يجهدك .. أو يضايقك .

ـــ أبداً .. أبداً .

ومرة أخرى بدا عليها التردد .. ثم قالت وهى مطرقة :

ـــ ليس أحب إلىّ من الصعود معك .. ولكن يخيل إلىّ أنى كان يجب أولا أن أقدم لك فنجاناً من القهوة .. لقد أذهلتنى زيارتك ، إلى الحد الذى أفقدنى القدرة على التصرف . كمخلوقة .. رشيدة عاقلة .. والأيام التى مرت بنا كانت أياماً سوداً .. تركتنا جميعاً بلا وعى ولا إدراك .

ـــ كان الله فى عونكم .. لا داعى للكلفة .. أنا لست غريباً .. لم أكن قط غريباً عن « نادية » وبيتها وأهلها .. لقد كان ما بيننا شيئاً عميقاً وثيقاً .. لقد كانت كل شيء فى حياتى .

وأحست « نادية » برعدة تسرى فى كيانها ، وبدا الخفقان فى صدرها كأنه يوشك أن ينفذ من بين الضلوع .. وهمست فى صوت مختنق :

ـــ وكنت كل حياتها .

وخطت تجاه الطريق الصاعد .. وكفها فى كفه .. وكأن طيراً يحملها على أجنحته .. وينساب بها فى يسر ولين .

ووصلا إلى منحنى فى الطريق ، وتوقف « مدحت » وهو ينظر إلى درب بين الأحراش يختصر المنحنى ويصعد مباشرة إلى الجبل .

وتساءل قائلا :

ـــ أليس هذا الدرب يؤدى إلى القمة مباشرة ؟

وهزت « نادية » رأسها .. وعاد « مدحت » يتساءل :

ـــ وعلى يمينه صخرة تبدو كأنها توشك أن تنقض .

وتمتمت « نادية » كأنها تكمل قوله :

ـــ وعلى يساره شجرة بجذعها ثنية كأنها المقعد .

وردد « مدحت » فى صوت خافت كأنما يحدث نفسه :

ـــ أعرفها جيداً .. طالما دعتنى إلى الجلوس عليها لنلتقط أنفاسنا .. وفوقها

شلال كان يبلل ثيابنا .

وأشاحت « نادية » بوجهها .. حتى لا يرى الدموع فى مآقيها .. وخطت تجاه الدرب قائلة :

ـــ هيا بنا .

واستمرا فى الصعود .

ومدحت يتفقد بعينيه كل بقعة فى الدرب .. ويتلمس كل فرع وكل ورقة .. كأنما يختزنها فى ذهنه ، ويحفرها فى ذاكرته .

و« نادية » تسير كالمأخوذة الحالمة .. وبنفسها إحساس الذى يعيش فى معجزة لا يصدق إمكان حدوثها .. فهو أقرب إلى المذهول منها .. منه إلى المستمتع بها .

وإحساس المبهور بسنا برق .. غلب يأسه من الظلمة الموشكة بعده .. انبهاره بسناه الخاطف البرّاق .

إحساس المغمور فى الشفق الأحمر .. الذى يعرف ما وراء الحواشى الأرجوانية الرقيقة من ليل معتم .. لا مفر من سواده ، ولا منجاة من وحشته

ومع ذلك .. فهو يحس بالسكينة إليه .. ولا يستطيع أن يمنع نفسه من العيش فيه .. حتى آخر ضوء ، وحتى يجد نفسه ولا شيء حوله ، سوى الظلمة المعتمة ، والفراغ الموحش .

وبهذا الإحساس كانت تسترق النظر إلى الشبح الطويل السائر بجوارها ، القابض بكفه على كفها .

وكان يملؤها نحوه خليط عجيب من مشاعر الحزن والرضا ، والقلق والخوف .

الحزن على حزنه واللوعة على لوعته .

والرضا والطمأنينة .. مما أحسته من لهفته عليها ، وحنينه إليها .

والقلق الدائم الذى كان يحيرها فى مشاعره نحوها .

لمن كانت اللوعة التى أصابته ؟!

لأية نادية ؟

« نادية » التى راحت ، والتى ستنعم بحزنه ولوعته . كما نعمت بحبه ولهفته !

أم « نادية » الكائنة .. الحائرة .. التى لا تعرف موقعها عنده ، ومركزها فى قلبه ؟!

لمن كانت هذه الدموع الصامتة المحرقة ؟!

لأية « نادية » فيهما ؟

لها هى !!

إنها قطعاً .. لا تستحق منها قطرة واحدة .

حتى دموعه عليها ، لا تستطيع أن تنعم بها .

حتى موتها ، عندما قررته ، لم تجسر على أن تأخذ ما منحها من آهات وأنات .

كل إحساس نالته .. كانت فى شك من ملكيتها له .

حتى أحاسيس اللوعة والحزن ، لا تجسر على أن تتلقاها فى ثقة ، بلا حيرة أو شك .

وكيف تثق فى إحساس تتلقاه ، وهى لا تثق فيمن تكون هى بالنسبة لصاحب الإحساس ؟!

ولا تملك إلا أن تطلق إحدى زفراتها ، وهى تعلل نفسها بحقيقة قائمة ، هى الشىء الوحيد الذى لا تستطيع الشك فيه .

وهى أنه موجود بجوارها .

وأن كفها ، هى ، فى كفه .

وأنها تطوف معه كعبة حبها .

تتسلق وإياه الجبل . وتسير بجواره على شاطىء البحيرة ، وتجلس معه كما تعوّدا أن يجلسا سوياً فى رحلتهما الوهمية .

كل هذه حقائق لا جدال فيها .
أما من تكون هى بالنسبة إليه ؟
وإلى متى يمكن أن يدوم هذا ؟
فأمر لا معنى لمناقشته .
إنما هى .. هى .
وأما إلى متى تدوم ..
فإن لحظات دوامة أقصر من أن تضيعها فى التساؤل عن نصيبها من الدوام .

ووصلا إلى قمة الجبل ، وبدا شاطئ البحيرة ، أملس ساكناً ، قد انعكست فيه صور الأشجار المحيطة ، تهتز فى خفة ، كلما هبت نسمة ، أو سقطت فيه ورقة .

ووقف « مدحت » يرقب المنظر فى صمت المأخوذ . واسترق البصر إلى خصلة الشعر المطلة من الإيشارب وأرنبة الأنف الدقيقة التى بدت من جانب الوجه .

وأحست « نادية » بنظراته المسترقة ، ومدت يدها فى حذر تشد الإيشارب على عنقها .

وتساءل « مدحت » فى صوت خافت ، وهو يرنو إلى البيت المهجور فى الناحية الأخرى من البحيرة :

ـ أنستطيع أن نطوف حول هذا البيت ؟
وهزت « نادية » رأسها بالإيجاب .
وأردف « مدحت » قائلا وهما يسيران تجاه البيت :
ـ أريد أن أرى الكوخ ، والمقعد الحجرى .
وأردفت « نادية » تتم قوله :
ـ والوادى الأخضر ، والمقابر البيض المصفوفة .
ووراء الدار بدا الوادى ممتداً أسفل الجرف العميق .

ووقف الاثنان يرقبان الوادى الفسيح ، وقد بدت منه الدور والأشجار كأنها دمى الأطفال .

وأحس « مدحت » بالغثيان ، وهو ينظر إلى الهوة العميقة ، وقد بدت المقابر الصغيرة مصفوفة فى أسفلها ، وشد على يد « نادية » هو يتراجع ، وقد بدا فى عينيه حزن عميق ويأس مرير .

وهمس بها قائلا :

ـــ كانت تخاف منها . كانت دائماً تحس بشىء يجذبها إليها وكانت دائماً تحدثنى عن الفارسة التى ألقى بها الجواد من هذه الهوة .

وهز « مدحت » رأسه ، وهو يكبت دموعه وأردف يقول :

ـــ ولم يخطر ببالى قط .. أنى عندما أقف ، سأجد الهوة ابتلعتها ، وأجد خوفها قد تحقق .

ودار الاثنان حول البيت وطافا بشاطئ البحيرة مطرقين حزينين . قد أغرقهما الأسى واليأس .. ثم أخذا فى الانحدار إلى الطريق المؤدى إلى بيت « نادية » ، ووقف الاثنان ، وخيم عليهما الصمت . وبدا « مدحت » فى انفعاله وأساه كأنما يبحث عن كلمات يقول بها معنى للشكر والوداع .

وقبل أن يفتح شفتيه ليتكلم . قالت « نادية » فى تردد ووجل :

ـــ أما كان يجب أن أدعوك إلى البيت ، لتناول فنجاناً من القهوة ؟

وشد على يد « نادية » قائلا :

ـــ لا .. يكفى ما فعلت من أجلى .

ـــ لست أشعر أنى قد فعلت شيئاً .

ـــ كل هذا أجهدتك به ، ولم تفعلى شيئاً ؟!

ـــ كنت أود أن أفعل شيئاً أكثر ، ولكنى أحس بنفسى عاجزة ، ولست أعرف ماذا يمكن أن أفعل .

ـــ عودى إلى البيت ، واستريحى .. لقد دفعتنى لهفتى على لقائها ، إلى حماقة

الأطفال .. فحضرت إليكم ، وخدم الفندق ما زالوا نياماً ، والبلدة كلها لم تستيقظ بعد .. لا شك أنى قد أخرجتك بلا إفطار .

ــ وأنت أيضاً لم تتناول إفطارك . كان يجب أن أدعوك إلى الإفطار فى البيت ، ولكن البيت يبدو مزعجاً ومشوشاً ، ولقد تركتنا الكارثة أشبه بالعجزة .. لا نستطيع أن نستقبل إنساناً . إني أشعر بالأسف لأنى ...

وقال « مدحت » وهو يهز رأسه :

ــ ليس هناك ما يدعو أبداً للاعتذار .. أنا أقدر جيداً ظروف الصدمة ، وسأعود إلى الفندق لآخذ حقائبى ، وأرحل فى أول قطار .

وأحست « نادية » بشيء يعتصر قلبها وقالت فى شيء من التردد والوجل :

ــ أظن أول قطار إلى « فين » لن يقوم قبل ساعتين .. أستطيع أن أدعوك إلى تناول الإفطار فى النادى . ثم أوصلك إلى المحطة بعد ذلك .

ــ لا .. لا .. لست أريد أن أثقل عليك أكثر من هذا . أرجوك . كفى كل ما فعلت .

ــ ليس هناك أبداً ما يثقل علىّ .

ــ ولكنى أستطيع أن أتناول الإفطار فى الفندق . ثم أرحل من هناك إلى المحطة . فلماذا أسبب لك كل هذا الإزعاج ؟

وأطرقت « نادية » وقالت فى صوت مختنق :

ــ ليس هناك إزعاج . إنى أحس أنى أفعل شيئاً من أجل « نادية » .

وصمتت برهة تحاول خلالها كبت دموعها ثم أردفت تقول :

ــ شيئاً كانت « نادية » تتمنى لو فعلته لك .

ورمق « مدحت » الوجه الصغير الملتف بالإيشارب ، وقد ملأ الأسى ملامحه ورفع عينين بهما نظرة رجاء وتوسل .

وملأ « مدحت » ذلك الشعور العجيب بالألفة نحو الصبية الراجية ، وأبصر بوجهها ذلك الشيء الحبيب الأليف ، الذى يحس به كلما رنت إليه بعينيها .

ولم يملك إلا أن يطرق ثم يجيب :

— هيا بنا .

وجلس « مدحت » فى النادى أمام « نادية » ، وبدا له المنظر من وراء النافذة الزجاجية العريضة .. محبباً مألوفاً .. كأنما قد تعوّد الجلوس إليه فى كل يوم .. الأسقف الحمر المنحدرة ، والمداخن التى بدأت أنفاسها تتصاعد ، والأشجار الملتفة المتكاثفة ، ووراء كل هذا جدار ممتد من الجبال ذات القمم البيض .. الجدار الذى كانت تحس « نادية » أنه يقف حائلا بينها وبينه ، والتى كانت تتخيل من ورائه النيل العريض ينساب فى هدوء ، والمزارع الخضر تنبسط ممتدة بلا حدود إلا التقاء الأفق بالسماء .

وتمتم « مدحت » وهو ينظر من الشرفة :

— كانت « نادية » تحب هذه الجلسة ، كما كانت تحب الجلسة المماثلة فى نادى مصر الجديدة . كانت دائماً تقارن بين شجرة الكافور القائمة بجوار « النافورة » ، وشجرة السنديانة القائمة وراء هذه الشرفة .

وردت « نادية » بنفس اللهجة الشاردة :

— كانت « نادية » ...

وصمتت ولم تقل شيئاً ، وعادت تردد فى أسى وحزن :

— كانت « نادية » .. كانت .. وكانت ..

وأحس « مدحت » أنه قد نكأ فى نفسها جرحاً .. فتمتم فى أسف :

— لم أكن أحب أن أولمك .

وهزت « نادية » رأسها ، وهى تكبت دمعها :

— أبداً .. إن هذا لا يؤلمنى .

وانتهى الإفطار ، ووقف « مدحت » ليمد يده مودعاً « نادية » ولكنها هزت رأسها قائلة :

— سأذهب معك إلى المحطة .

ـــ لا داعى أن تتعبى نفسك .

وقالت « نادية » فى إصرار حزين :

ـــ سأذهب معك .

وسار الاثنان فى صمت ، منحدرين فى الطريق المؤدى إلى الفندق .. وعندما عبرا سكة الحديد . تساءلت « نادية » :

ـــ أتسير فى الطريق الرئيسى ؟

وقال « مدحت » متنهداً :

ـــ كما تشائين :

ـــ مازال أمامنا متسع من الوقت . هل لديك شيء تريد أن تعمله ؟!

ـــ أبداً لم يكن لدىّ هنا من شيء .. سوى « نادية » .

وكانت البلدة قد استيقظت والحوانيت قد فتحت أبوابها .

ووصلا إلى الميدان ثم انحدرا فى الطريق المؤدى إلى المحطة .

وبنادية إحساس .. السائر فى جنازة .. المشيع لنعش .

وكانت الجنازة هذه المرة . جنازتها هى .

والنعش .. نعشها .

كانت تحس أن الحواشى الأرجوانية تنقرض ، وأن كل خطوة تخطوها إلى المحطة .. تحملها إلى الليل المعتم الموحش الذى لا فجر له .

كان الشيء الباهر البرّاق يوشك أن ينطفيء ، كأنه الذبالة تترنح فى مهب الريح .

كانت الحقيقة الوحيدة التى استمتعت بها .. توشك على الانتهاء .

الحقيقة المؤكدة . أنها هى .. هى .. وأنه هو .. هو .. وأنهما يسيران معاً .. جنباً إلى جنب .. ليطوفا بجنة أحلامهما .. وكعبة أوهامهما .

وبعد ذلك .. لا شيء

لا حقائق ولا أوهام .

لن تعود هى .. هى ..
لأنها هى .. قد ماتت .
ولن يعود هو .. هو .. لأنها قد انمحت من عالمه .
ولن يعود بينهما شيء .. لا كتابة .. ولا دعوات .. ولا آمال سرابية .. ولا أحلام برّاقة .
لا شيء إلا أحزانه .. على .. على من ؟
عليها !؟ أبداً ..
فالراقدة فى القبر .. هى الأحق بأحزانه .. وهى الأحق بزهرته .. التى سيأتى كل عام كى يضعها على قبرها .
يا للقدر العجيب !! يحرمها حتى نعمة الرثاء والبكاء !!.
يحرمها .. حتى من زهرة على قبرها !!
وبلغ الاثنان الفندق ، وانتظرت « نادية » فى وجومها الشارد وصمتها الحزين ، حتى هبط الخادم بالحقائب .
وقبل أن يطلب منه مدحت حملها إلى المحطة .. مدت « نادية » يدها فحملت الحقيبة الصغيرة .. قائلة :
ـــ لا داعى للحمّال .. سنحملها إلى المحطة معاً .
وحمل مدحت الحقيبة الأخرى ، وسار الاثنان إلى المحطة .
ورفع مدحت عينيه ليرقب بناء المدرسة ، وأشار إلى إحدى النوافذ وتساءل فى أسى :
ـــ أهذه هى نافذتها المطلة على فناء المحطة ؟!
وأطرقت « نادية » وهى تغالب دمعها .
وعاد « مدحت » يتساءل وهو يشير إلى السنديانة :
ـــ وهذه السنديانة التى تحنو على المحطة بذراع ، وتبتهل للسماء بأخرى ؟!
وعلى المقعد الخشبى بجوار « كشك » المحطة ، استقر الاثنان وقد خيم عليهما

سكون عجيب .

وفجأة علا صفير .

وأحست « نادية » من صفيره .. بما يشبه طُرقات المعول .. على فتحة القبر .

وأقبل القطار يتهادى حتى وقف فى فناء المحطة . وأقبل الحمّال العجوز يحمل الحقيبتين ليضعهما فى القطار ، ونظر إلى « مدحت » رافعاً حاجبيه الأشيبين الكثيفين فى تساؤل ودهشة :

ـــ لم تمكث سوى سواد الليلة .. ألم تجد ما جئت من أجله ؟!

وهز « مدحت » رأسه وقال كأنما يحدث نفسه :

ـــ وجدته رحل .

ووقف مدحت .. بقامته الطويلة ، ومنكبيه العريضين ، والأسى يملأ وجهه .. والحزن يفيض من عينيه .

وشد على يد « نادية » فى صمت .. وازدرد ريقه وهو يحاول أن يكبت انفعاله .

ولم يعرف ماذا يقول .

وأحست « نادية » أن الثوانى القادمة هى خاتمة المطاف ، وأن أنفاس القطار اللاهثة ستحمل معها كل شىء .

وتركت يدها تستقر فى راحته فى سكينة يائسة .

ومدحت و « نادية » .. واقفان فى صمت عاجز ، وكل منهما يحاول التماسك والتجلد .

وفجأة .. علت دقات .

لم تكن دقات جرس المحطة ، ولكنها دقات ، تنبعث من بعيد .. دقات واضحة .. محدودة ، تنساب إلى النفس انسياباً متصلا عميقاً .

وأحس كلاهما من الدقات البعيدة المنسابة .. بشىء يذيب قلبه .. ويفتت

فؤاده .

لقد انبعث اللحن العجيب من نافذة المدرسة .. ليصهر كل ما حاولاه من جمود ، ويهزم كل ما استعانا به من مقاومة وتجلد .

ومرة أخرى انساب الدمع من عينى مدحت فى صمت وهو يقول فى صوت مختنق :

ـــ أتسمعين فالس الوداع ؟ كانت دائماً تطلب منى أن أسمعه .

واندفعت « نادية » فى نشيج هز كل بدنها .

ودق جرس المحطة مرة أخرى .. وعلا صفير القطار .. وصاح الحمّال بمدحت :

ـــ اصعد القطار قبل أن يرحل بحقائبك .

وسار مدحت إلى القطار محنى الهامة مهدل الكتفين .

ووقف من النافذة يلوح « لنادية » .

ووقفت « نادية » ترقبه يتباعد من خلال دموعها .

وتلوح له مودعة .

وانساب اللحن المتقطع الحزين يختلط بصفير القطار ..وطرقات عجلاته على القضبان .. والقطار يتباعد .

وأخيراً اختفى القطار .. وخفتت الأصوات .

وانتهى كل شىء .

وعادت كأنها الشبح السارى ، وهى تحس أنها قد ودعت حياتها .. وكان وداعها هذه المرة .. وداعاً له معالم .

(٤٥)

امر تكليف !..

انساب القطار بمدحت من المحطة الصغيرة واستمر يلوّح للفتاة ذات الإيشارب .. وقد بدت ، وهى تلوّح بيدها كتمثال للأسى والحزن واليأس .

وأخذ شبحها يتضاءل رويداً رويداً .. ومدحت يرقبه فى ذهول .. وهو يحس أن الحوادث مرت به بطريقة خاطفة مذهلة .. وكأن المسألة كلها حلم مروع .. وود لو يتمهل القطار فلا ينتزعه من البلدة العزيزة بمثل هذه السرعة والعنف .

وود لو يتوقف القطار ليعود إلى الفتاة الحزينة الرقيقة .. ليقول لها شيئاً أكثر مما قال .. ويعبر لها عن حزنه وأسفه .. بأوضح مما فعل .

لقد فاجأها بزيارته كأنه شبح .. ثم مضى بها فى صمت ووجوم بين المقابر .. وأخذ يجوب معها الجبل والمدينة .. ثم انساب منها إلى المحطة ، واختفى به القطار كأن لم يكن .

وتباعد شبح المحطة بالسنديانة الضخمة ، وأخذت الأسقف الحمر المنحدرة تنكمش وتتضاءل .. واتسع الأفق وانبسط صدره ، حتى ضاعت فيه معالم البلدة .

واستقر مدحت على المقعد مجهداً ، ومضت به فترة ذهول ، كأن ذهنه قد أصابه شلل أعجزه عن التفكير ، ثم أحس بشبح يقف أمامه ، وبدا له كأنه يسأله شيئاً ، ورفع إليه عينيه ، وبدا فى زيه مفتش التذاكر .

وأحس مدحت كأنه عاجز عن التصرف .. لا يريد أن يسأله أحد شيئاً أو يكلفه بشىء .

وطالت وقفة الرجل ، ومدحت مغرق فى عجزه المشلول ، لا يتمنى شيئاً أكثر من أن يتركه الناس فى صمته ووحدته .

وتحدث الرجل .. وأحس مدحت أن عليه أن يجيب .. وأن يتصرف ، وأن يقاوم هذا اليأس المشل ، فهو يتحرك فى قطار فى بلد غريب ، وما زالت أمامه رحلة طويلة .. عليه أن يجابه كل ما فيها من التزامات ومشكلات ما بين مواصلات وإقامة وإبدال عملة ،و ..و ...

ومد يده فى جيبه فأخرج دفتر تذاكر حصل عليه من مكتب السياحة فى القاهرة ، وسلمه للرجل .

وقلب الرجل الدفتر ، ثم سأله :

— إلى أين ؟

إلى أين ؟.. لقد كان فى ذهنه برنامج لرحلة طويلة ممتعة مليئة بالأمانى الرائعة ، والآمال العريضة .

ولكنه أحس أن دعامة الأمانى ، قد تقوّضت ومحور الآمال ، قد زال .

والبرنامج الممتع قد بهت فى ذهنه حتى انمحى .

إلى أين ؟

كان المفروض أن يذهب إلى لندن لعلاج معدته .

ولكن هذا لم يكن إلا إطاراً لبرنامجه وتبريراً لرحلته .

أما الغرض الرئيسى فكان « نادية » .

كان قد صمم فى ذهنه .. على أن يخطبها .. ثم يسألها ماذا تريد منه أن يفعل .. يبقى معها فى « جاب » .. يرحل بها إلى سويسرا . يذهب إلى لندن ، ثم يعود إليها ، ليرجعا إلى القاهرة .

أشياء كثيرة كان يمكن أن يفعلها ، بعد أن تقرّها هى .

ولكنها هى نفسها ، لم يعد لها كيان .

وعليه أن يقرر ، إلى أين يحمل نفسه .

لو استطاع .. لبقى حيث رقدت .

ولقد كان عليه أن يفعل ذلك .. أو يبقى على الأقل بضعة أيام .. ولكنه وجد نفسه يفر من البلدة خائفاً مذعوراً .

والآن عليه أن يجيب ، إلى أين ؟

إلى لندن ؟

ليعالج معدته ؟!.

أحقاً ، هو يريد علاجها ؟!

أيحتمل بقية الرحلة ، وملل العلاج . ورقدة المستشفى ؟!

لا .. لا .

إنه يستطيع أن يعيش بمعدته كما عاش دائماً ..

ولكن ماذا يقول لهم فى القاهرة ؟!

يقول لهم إنها ماتت ؟!

من هى ؟

الطيف الذى لم يره مرة واحدة .

ساكنة الألب التى كانت حياتها معلقة بكلمة منه .. فلما أقبل عليها وجد حياتها قد ضاعت ، وأحلامه قد تبددت !

وكان الرجل ما يزال يقف أمامه ممسكاً بالدفتر فعاود السؤال :

ـــ إلى أين ؟!

ورفع مدحت كتفيه قائلا فى نبرة يائسة :

ـــ إلى جنيف .

أجل .. ليس أمامه الآن سوى هذا ينزل فى « فين » حيث هبط أول مرة .. ثم يأخذ نفس القطار الذى هبط منه .. حتى يصل إلى جنيف ،ومن هناك يأخذ الطائرة إلى أى مكان يستقر عليه رأيه .. إما إلى لندن .. أو القاهرة .

وانصرف عنه الرجل بعد أن أعاد إليه الدفتر

ومرة أخرى عاد إلى شروده اليائس ، وذهوله الحزين .

واستمر القطار ينهب به الأرض .. دون أن يعى شيئاً مما حوله .. ودون أن يميز وجهاً من الوجوه المحيطة به .. أو منظراً من المناظر الأخاذة التى يمر بها القطار وسط الجبال .

ووصل إلى « فين » .. ولم يطل به الانتظار حتى أقبل القطار المتجه إلى جنيف .

وتحرك القطار مرة أخرى بمدحت تاركا محطة « فين » .. وهو مستلق فى مقعده فى جلسته اليائسة العاجزة .. وعيناه قد شردتا بعيداً بين القمم البيض التى تلوح وراء النافذة الزجاجية .

ولم يعد مدحت يحس بتفاصيل المرئيات .. أو يأبه لمر الزمن .. كان يجلس فى صمته الكئيب ونظره معلق بالأفق .. لا يأبه لوقفة القطار أو لسيره .. ومرت به المحطات .. وهو يحملق فى لافتاتها بلا وعى .

واجتاز القطار « جرينوبل » . عبر الحدود الفرنسية .. ومد مدحت يده بالجواز فى حركة مستسلمة عاجزة .. وفحصه البوليس ثم أعاده إليه .. واستغرق مدحت بعدها فى سكونه المطبق .. وشروده التائه .. حتى توقف القطار به أخيراً .. فى جنيف .

وأيقظه الضجيج من شروده ، وبدت له المحطة متسعة .. صاخبة .. وتمنى لو بقى فى مقعده .. وأحس بالعجز عن التصرف وسط هذا الخضم المتلاطم من البشر .. الحافل بكل جنس .. الناطق بكل لغة .

ومضت برهة وهو ينظر إلى الأفواج السائرة فى المحطة .. نظرته اليائسة المكتئبة .. وهو يتمنى لو أغمض عينيه وفتحهما ليجد نفسه .. على فراشه فى البيت .. أو أمام منضدة العمليات فى المستشفى .

أجل .

لقد أحس بحنين إلى مرضاه ، وإلى أدوات جراحته .

إنه سيجد فيها شيئاً يملأ نفسه اليائسة الحزينة ، وذهنه المكدود العاجز .

وتسللت إلى نفسه بعض الحياة .. وأحس بالرغبة فى المقاومة .. مقاومة ذلك الشلل المعنوى الذى تركه عاجزاً مقهوراً .

ونهض من مقعده وحمل الحقيبتين بكلتا يديه .. ثم اندفع إلى باب القطار وهبط على الرصيف .

وتناول منه أحد الحمَّالين الحقيبتين فوضعهما فوق عربة صغيرة .. كدّست فوقها الحقائب ثم أعطاه تذكرة برقميهما ، وتركه وسار بالعربة .. واجتاز مدحت فناء المحطة ، ووقف فى الصف ليستبدل بعض أوراق النقد بفرنكات سويسرية .

وبعد لحظات كان يقف أمام أحد « التاكسيات » بحقيبتيه على الرصيف وقد توقف الحمّال بجوارهما .

وسأله سائق التاكسى :

— إلى أين ؟.

... إلى أين ؟

كلهم يسألون إلى أين ؟

إلى القاهرة .. إلى حجرة العمليات بمستشفى الدمرداش .

هل يستطيعون نقله إلى هناك فى الحال ؟!

إن مرضاه فى حاجة إليه .. ليدفع عنهم خصمه وخصمهم الذى لا يجرؤ على مواجهته سواه .. خصمه المروّع الذى تعوّد الأطباء أن يهربوا منه ، ويعللوا مرضاهم عن مكافحته .. بالأشعة ، والكهرباء ، أو الرمال التى يدفنون فيها رءوسهم ، وجثث مرضاهم .

ومرة أخرى سأله سائق التاكسى :

— إلى أين ؟

— إلى أقرب فندق .

ـــ أقرب فندق لا يحتاج إلى عربة .

ثم رفع سبابته مشيراً إلى بناءين يواجهان المحطة ، وقال :

ـــ عليك أن تختار أحدهما :

ـــ ورفع الحمال الحقيبتين قائلا :

ـــ سأحملهما إلى هناك .

وسار الحمال يتبعه مدحت حتى وصل أمام باب أحد الفندقين ، وتسلم الخادم الحقيبتين واتجه مدحت إلى مكتب الاستعلامات .

وحياه الرجل الواقف وراء المكتب فى رقة .. ثم مدّ يده بورقة مطبوعة ليملأ مدحت ما بها من بيانات .

وتردد مدحت لحظة قبل أن يملأ البيانات .. ثم سأل الرجل :

ـــ هل أستطيع أن أعرف بعض المعلومات عن مواعيد الطائرات ؟!

ـــ إلى أين ؟

مرة أخرى إلى أين ؟!

وأجاب مدحت فى تردد :

ـــ إلى القاهرة .. أو لندن .

وأشار الرجل إلى مقعد بجوار المكتب قائلا :

ـــ تفضل .. لحظة واحدة ، وسأخبرك بما تريد .

وقال مدحت وهو يجلس على المقعد فى قلق :

ـــ وأريد أن أعرف هل يمكن الحجز ؟!

وهز الرجل رأسه وهو يرفع سماعة التليفون .

ولم يطل حديث الرجل حتى وضع السماعة قائلا :

ـــ إلى لندن .. ستقوم إحدى طائرات « السويس إير » فى منتصف الليل . ويمكن الحجز فيها . على أن تنبئهم خلال نصف ساعة .

ومرت بمدحت لحظة وجوم وتفكير .. وما لبث أن تساءل :

ـــ والقاهرة ؟!

ـــ القاهرة .. ستقوم طائرة بعد ساعة ، ولكنها كلها محجوزة .

ـــ والتى تليها ؟!

ـــ غداً فى نفس الموعد .

وصمت مدحت ، وأشار الرجل إلى النموذج المطلوب ملؤه وأخرج مدحت قلمه .. ليكتب البيانات .

إلى أين يذهب ؟

إلى لندن ؟

هل لديه الصبر على الرقاد ، والقدرة على الاستسلام للعلاج ؟ لا .. لا .. إنه لا يستطيع .

إن الوحشة ستقتله .. قبل أن تشفى معدته .

إنه يريد أن يفعل شيئاً يشغله عن التردد والتفكير ، ويوقفه عن الاستسلام العاجز اليائس .. القاتل .

إنه فى حاجة إلى المقاومة .

ورقدته المريضة لن تمنحه أية مقاومة .

أما الشىء الذى يمنحه أياها .. فهو النضال ، والكفاح .

لو استطاع أن يرتدى إحدى تلك البدل الكاكية ، ويمسك بالسلاح ، ويفعل كما فعل هؤلاء الطلبة .. الذين لقيهم قبل سفره ، لكان ذلك خير علاج له .

أو .. إذا لم يستطع .. فليمسك سلاحه ، وليستأصل خصمه التقليدى .. السرطان .

ودق جرس التليفون بجوار الرجل الواقف وراء المكتب ينتظر فى أدب :

ورفع الرجل السماعة وأجاب متسائلا :

ـــ الذاهبة إلى القاهرة .. انتظر . سأرد عليك حالا .

ثم وجه الحديث إلى مدحت قائلا :

ـــ مكتب « السويس إير » يقول إن أحد ركاب الطائرة التى ستذهب إلى القاهرة قد أعاد التذكرة ، ويسأل هل تريد أن يحجزوا لك المحل ؟!

القاهرة ؟!

بهذه السرعة ..!!

أيمكن أن يشرق عليه أول شعاع للشمس .. بين ربوع القاهرة ؟!

ماذا يقولون عنه !.. وماذا يقول لهم .. و ...

ونظر إليه الرجل نظرة استفسار متعجل .

وبلا إرادة .. أجاب :

ـــ أجل .

ومعدته !! لقد باتت أسوأ مما كانت .. إن الصدمة التى تلقاها ، والأحزان التى أغرق فيها .. لا شك قد جعلت القرحة الموهومة .. قرحة حقيقية .

واستمر جدله مع نفسه .. جدلا داخلياً سلبياً .

واستمرت إجراءات السفر .. عملية إيجابية .. حجزت التذكرة ، ووضعت الحقيبتان فى العربة ، وانطلقت العربة إلى المطار ، واتخذت إجراءات السفر بطريقة سريعة خاطفة .

وأخيراً وجد نفسه قد استقر على مقعده فى الطائرة .. والجدل الداخلى السلبى ما زال دائراً .

أى حمق أعاده إلى القاهرة ؟

لماذا لم ينتهز الفرصة ليطير إلى لندن ؟!

لماذا تركته الصدمة عاجزاً خائراً ؟!

ولكن لماذا يستمر فى السفر ؟! إنه يعرف أن أصل السفر .. كانت هى ، هى وحدها .. التى دفعته إلى هذه الرحلة .

لقد بدأت .. على الخريطة .. بالخط الذاهب من مرسيليا إلى « جاب » .. ذلك

هو الخط الأساسى فى رحلته ، وبعد ذلك رسمت بقية الخطوط .. لتعطى الرحلة شكلا مستساغاً ، ومظهراً معقولا .

ثم .. كيف يسافر فى هذه الظروف الدولية القلقة ؟!

الظروف الدولية !!

ومنذ متى كان يعترف هو بالظروف الدولية .. أو يحس بها ؟!

أترى هذه الظروف الدولية القلقة ، لم تظهر له غير الآن ؟

ألم يقولوا له جميعاً : إن هذه ليست ظروفاً ملائمة للسفر ؟!

ولكنها كانت موجودة ، ومن أجلها كان يمكن أن يصبح كل شىء ملائماً .

ودار محرك الطائرة ، وأحس مدحت بالأرض تنزلق تحتها .. بدأت الطائرة ترتفع فى تؤده ، وأبنية المطار تنكمش وتتضاءل .. كما انكمش بناء المحطة فى « جاب » وتضاءلت شجرة السنديانة .

و لم يتسع الأفق وحده هذه المرة ، وإنما اتسعت رقعة الأرض كلها .. مبرزة آفاقاً جديدة وراء حافة الأفق .

واسترجع مدحت بصره من النافذة الزجاجية .. بعد أن بهت ما وراءها من معالم ، واختلط ما بها من مرئيات ، وأضحت لا تطل العين منها إلا على مساحات ضخمة من الزرقة والخضرة والبياض .

واسترخى مدحت فى مقعد الطائرة ، وأسند رأسه إلى حافته اللينة .. ثم أغمض عينيه .

وتواترت فى ذهنه .. حوادث اليوم .

اليوم !.. اليوم فقط !!

أيمكن أن يكون كل هذا قد حدث اليوم فقط ؟!

أيمكن أن يكون يومه هذا .. هو نفس اليوم الذى أشرق فيه أول شعاع عليه .. فى « جاب » .. الشعاع الذى ملأ نفسه بالأمل ، والتفاؤل ؟!

أهذا اليوم هو الذى وقف فيه ليرقب من نافذة الفندق ، أول منظر تقع عليه

عيناه فى « جاب » .. منظر الجبال الرائعة .. بسفوحها الخضر ، وقممها الناصعة ؟!

أيمكن أن يكون صباح اليوم .. هو نفس الصباح الذى لم يطق من فرط ما به من سعادة وفرح .. أن يصبر فيه حتى تستيقظ البلدة .. فانطلق كما ينطلق الأطفال فى يوم عيد .. ليطرق بابها فى طيش وخفة .. حتى يفاجئها .. بزيارته ، وحتى يكون أول شىء تقع عليه عيناها فى هذا الصباح ؟!

غير معقول أن يكون ذلك قد حدث هذا الصباح .

إنه يبدو كأنه قد حدث منذ شهور أو سنين .

إن حوادث كثيرة قد حدثت بحيث لا يمكن أن يتسع لها يوم واحد .

واستمرت الحوادث تترى على ذاكرته .

واستمرت الطائرة تشق الفضاء ، وأخيراً .. أغفى .

ومرت به رحلة الجو .. بين إغفاءة .. يقظى بأحلام النوم ، ونوم مثقل بأحلام اليقظة ، وهو فى نومه ويقظته .. لا تفارقه اللوعة ، ولا ترحمه الفجيعة واليأس .

وأخيراً هبطت الطائرة فى مطار القاهرة .

وغادر المطار دون أن يحس به أحد .. أو يميزه مخلوق .

وبعد برهة كان يطرق باب البيت ، ويقف أمام « أمه » التى شهقت مشدوهة ، وأقبلت عليه تضمه ودموعها تنساب على خديه .

وتضاحك وهو يربت ظهرها ، وينبئها أنه قد عاد فجأة لأن الطبيب الذى كان سيعالجه قد أبرق إليه فى جنيف ليخبره بأن ظروفاً قاهرة قد اضطرته إلى السفر إلى أمريكا .

وحمدت الله أمه على عودته ، وسألته ألا يعاود السفر مرة أخرى .. حتى يأخذها الله إلى جواره ، لأنها لم تعد تحتمل وجيعة فرقته بعد هذا .

ولم يمكث مدحت فى البيت إلا بقدر ما استحم وأراح جسده المرهق

المكدود ، وقبيل الظهر كان يصعد درج المستشفى متجهاً إلى مكتبه .

وقبل أن يستقر على مقعده وراء المكتب .. اندفع الباب وبدا « جاد الله » منه وعلى وجهه علامات الدهشة والذهول ، وهو يهتف متسائلا :

ــ ما هذا ؟! ما الذى جاء بك ؟! وكيف حضرت ؟! ولماذا لم تكتب لى ؟! ماذا حدث ؟!

واندفع سيل الأسئلة يتدفق من شفتيه ، ومدحت ينظر إليه فى وجوم .

وأحس « جاد الله » خيفة من شرود مدحت وصمته ، وأحس من ابتسامته الباهتة التى توشك أن تفر من شفتيه .. أن حدثاً لا بد أن يكون قد وقع .

هذه العودة المفاجئة ، والوجه الذابل ، والسيماء الحزينة . لا يمكن أن يكون وراءها خير .

وتوقف سيل الأسئلة ، وخبا حماس جاد الله ، واقترب من مدحت فى خطوات بطيئة ، وتساءل فى صوت خافت :

ــ ما بالك .. ماذا بك ؟

ورفع مدحت كتفيه فى شيء من الاستخفاف ، وأجاب وهو يحاول إعادة الابتسامة إلى شفتيه :

ــ لا شيء .. لقد عدت .

ــ حمداً لله على السلامة .

ثم صمت لحظة ، وأردف معيداً تساؤله :

ــ ولكن .. لماذا عدت ؟

وهبط مدحت مسترخياً على مقعده ، وعاد يرفع كتفيه بنفس الحركة المستخفة وقال :

ــ عدت .. لأنى أردت أن أعود .

ــ ولماذا أردت أن تعود ؟

ولم يجب مدحت ، وبدا من خلجات وجهه كأنه يقاوم انفعالا يوشك أن

يفيض به ، ويغلب هدوءه ، ويقهر مقاومته .

وانحنى جاد الله أمامه فوق المكتب ، وتساءل فى شىء من السخرية :

— لماذا أردت أن تعود ؟. إنك ذهبت لكى تذهب .. لا لكى تعود .. أم تراك قد ضللت الطريق إلى جاب ؟

واستمر مدحت يقاوم انفعاله ، وهو ينظر فى شرود إلى جاد الله ، وأحس جاد الله أن شيئاً يضطرم فى باطنه .. فازدادت انحناءته .. وتساءل فى لهجة أكثر جدة .. وأشد حناناً :

— ما لك يا مدحت ؟! لماذا لا تنطق ؟

ولم يجب مدحت ، وعاد جاد الله يتساءل فيما يشبه الهمس :

— هل رأيتها ؟

وهز مدحت رأسه فى شرود بالنفى ، واستمر جاد الله فى تساؤله الخفيض :

— لماذا ؟! أكانت قد سافرت ؟

وعاد مدحت يهز رأسه بطريقته الذاهلة .

وازدادت دهشة جاد الله ، وأخذ يلح فى تساؤله :

— إذن لماذا لم ترها ! أرفضت لقاءك ؟

وانطلقت نفخة ممرورة من أنف مدحت ، واستمر صمته الواجم الحزين .

وأخذ جاد الله يرقب ملامحه ، وقسمات وجهه .

ثم طاف بذهنه خاطر جعله يبدو كأنه قد وجد الإجابة ، وانحنى على مدحت وهو يتساءل فى حذر :

— ألم تجدها ! أعنى وجدتها خدعة ؟

ورفع مدحت عينيه ، وأطلق زفرة حارة ، ثم خرجت الكلمات من شفتيه تقطر أسى ، وهمس كأنما يحدث نفسه .

— بل وجدتها ، حقيقة ، ولكنها حقيقة زائلة .

— ماذا تعنى ؟

ـ وجدتها ، ماتت .

ولم تستطع مقاومة مدحت أن تحجب طبقة لامعة من أن تكسو مقلتيه ، وهو يحدق فى وجه جاد الله .

وهتف جاد الله كالملسوع :

ـ ماتت ! غير معقول !

وأطرق مدحت ، وأخفى جبينه وعينيه فى كفه ، وبدأ رأسه يهتز .

وذهب جاد الله فأغلق الباب . وجذب مقعداً وجلس بجوار الجسد القوى ، والملامح الصارمة ، التى رآها لأول مرة تنتحب فى ضعف وخور .

وهز جاد الله رأسه كالمذهول ، وهو يحدث نفسه :

ـ عجيب ! غير معقول .. غير ممكن .

وطرق الباب ، وربت جاد الله على كتف مدحت المهتز قائلا :

ـ مدحت ، لا فائدة من هذا ، لقد كنت دائما تكره البكاء ، والضعف .. تجلد .

وعاد الباب يطرق ، ونهض جاد الله ليفتح .

وجفف مدحت عينيه بكفه ، وضغط على جبينه فى شىء من العنف .

وبدا أحد الكتبة بالباب ، وتسلم منه جاد الله خطاباً ، ثم أغلق الباب وعاد إلى مدحت .. وعيناه تجرى بين سطور الخطاب بطريقة خاطفة .

وهز كتفيه ثم قلب شفته السفلى .. وقذف بالرسالة على المكتب وهو يقول :

ـ أمر تكليف من القوات المسلحة .

وأطلق مدحت زفرة .. ثم أخرج منديله وجفف به عينيه وأنفه ، وتساءل وهو ينظر إلى الخطاب الملقى على المكتب :

ـ لمن ؟

ـ لنا جميعاً .. أنا وأنت ورشاد ومحمود .

ـ وماذا سنفعل ؟

— نقدم أنفسنا لرئاسة الخدمات الطبية .

— وبعد ؟!

— أظنهم سيحوّلوننا إلى مستشفى الجمعية الخيرية بالعجوزة ، فقد استولى عليه الجيش .

وهز مدحت رأسه فى ضيق وملل ، وتساءل :

— لماذا ؟ لِمَ كل هذه اللخبطة ؟

— تنفيذاً لأوامر التعبئة .

وأطلق مدحت زفرته .. وعاد يتساءل فى حدة :

— تعبئة لأجل من ؟! ألم تنته المسألة ؟! أليس مفروضاً أن يجتمعوا بعد بضعة أيام ؟

— أجل .

— إذن لماذا كل هذه الاستثارة ؟! لماذا لا نهدأ .. ونترك أمورنا تجرى فى هدوء ؟! لماذا يستولى الجيش على مستشفى كمستشفى العجوزة ، والبلد فى حاجة إلى سرير فى مستشفى ؟

وأزاح مدحت الخطاب بطرف أصابعه فى ضيق وقال :

— لن أذهب .

— غير معقول .

— لماذا ؟! المفروض أنى مازلت مسافراً .. إن إجازتى لم تنته بعد .

— لقد ألغوا جميع الإجازات .

— وكيف كان يمكنهم أن يلغوا إجازتى ، وأنا فى « جاب » !

— الذى حدث أنك الآن فى القاهرة ، ولست فى « جاب » .

— إن لدينا مرضانا وعملياتنا .. ليس لدينا وقت نضيعه .

وربت جاد الله ذراع مدحت ، وقال فى رفق :

— على أية حال .. يجب أن تعود إلى البيت لكى تستريح ، إن أعصابك لاشك

مرهقة ، وأنت فى حاجة فعلا إلى الراحة .

ورد مدحت بعصبية وحدة :

— إن الراحة تقتلنى .. لقد عدت إلى القاهرة .. لأنى أريد أن أهرب من الراحة والتفكير الذى يصحب الراحة .. أريد أن أفعل شيئاً

— انتهينا .. إذن اذهب معنا إلى الجيش .

— لن أجد ما أفعله هناك .

— من يدريك !!

— ماذا يمكن أن أفعل فى الجيش ؟

— تفعل ما يفعله أطباء الجيش .

— أحرر تذاكر لصرف الدواء .

— ألا يفعل الأطباء فى الجيش سوى هذا ؟

— فى وقت السلم .. ليس لديهم أكثر من هذا .

و لم يملك جاد الله أن يكتم ضحكته قائلا :

— إذن ادع الله أن يدخلنا حرباً .. حتى تجد عملا يريح أعصابك .

ومد جاد الله يده فجذب مدحت من ذراعه قائلا :

— هيا بنا .. وكف عن هذا اليأس والانهيار .. قل لى ماذا حدث ؟!

(٤٦)

جريح !..

مرت بضعة أيام بعد صدور أمر التكليف حتى استقر مدحت وجاد الله فى مستشفى العجوزة .. وفى مساء ٢٩ أكتوبر جلس مدحت فى مكتبه بحجرة الأطباء وقد بدا عليه الوجوم الطبيعى الذى كان يلازمه ، والحزن الدائم الذى كان يغرق فيه .

وهتف جاد الله ضاحكا وهو يدخل الحجرة :

— وحدوه .

ولم يجب مدحت ومد ساقيه واسترخى فى مقعده بعد أن فك أزرار سترته الكاكية التى استقر النسر على كتفيها .

واستمر جاد الله يثرثر وهو يرتكز على حرف المكتب وقد ألقى الكاب على طول ذراعه فاستقر على ظهر الدولاب .

قال جاد الله متسائلا فى سخرية :

— ماذا يحزنك ! ألم تجر اليوم أربع عمليات أعور ؟!

ونفخ مدحت من أنفه نفخته القصيرة الساخرة وتساءل :

— أعور !!

— شوية ؟! الحق عليك ، لماذا لم تنزع معه نصف المصارين ، والكلى ، والمرارة ، حتى تشعر أنك فعلت شيئاً .

ولم يجب مدحت وتثاءب فى ملل ، ومضت فترة صمت قبل أن يقول فى غيظ :

— وإلى متى تنوى أن تستمر هذه الطوارئ ؟

ـ احمد الله على أنك تبيت نصف الأسبوع فى البيت ، إنها ليست طوارىء ، إنها تكاد تكون نوبتجية .

ـ ومالى أنا والنوبيجية ؟!

ـ إنك رجل عسكرى .. أنسيت أنك « صاغ » ، على سن ورمح . إن الجيش فى حاجة إلى خدماتك .

ـ لا أظنه يحتاج إليها كثيراً .. فلديهم كثيرون يستطيعون عمل الأعور .

ـ إذا دخلنا فى حرب ..

وقاطعه مدحت صائحاً فى حنق :

ـ حرب .. حرب .. فلقتمونا .. أين هى هذه الحرب ؟! لا أكاد أرى أحداً إلا وقد ارتدى البدلة الكاكى .. حتى الوزراء .. قد ألبسوهم « الكاكى » وحملوهم السلاح .. وصوّروهم يطلقون النيران . لِمَ كل هذه الهيصة ؟!

ـ رداً على هيصتهم .. كل يوم يحركون سفناً ويحشدون قوات .

وهز مدحت رأسه ورد فى غيظ :

ـ تهويش فى تهويش .

وجذب ساقيه ثم نهض وهو يتمطى قائلا :

ـ سأذهب لأنام .. لا تدع أحداً يقلقنى .. لقد مررت على مرضاى جميعاً .. ولا أحد منهم يحتاج لشىء .. إلا البكباشى الذى رقد فى الحجرة رقم ٩ .. إنه دائم الصراخ .. يتوهم أنه مصاب بسرطان فى الزور .

ـ ولماذا لا تقطع زوره ؟!

ـ لأنه ليس عنده سرطان .

ـ اقطعه من باب الشبرقة .. أنظن أن كل ما تقطعه من أزوار الناس كان حقاً به سرطان ؟

ونظر إليه مدحت فى غيظ .. ثم قال مؤكداً :

ـ المهم .. لا تدع أحداً يوقظنى .

ــ حتى ولو قامت الحرب ؟!

ــ لن تقوم . غداً سيجتمعون فى جنيف ، وينهون المسألة .

واتجه مدحت إلى حجرة النوم .. وفى دقائق خلع ثيابه واستلقى على الفراش .

وكعادته كلما خلا إلى نفسه ، انطلق به الذهن إلى « جاب » ليطوف بربوعها فى حزن ومرارة .. حيث المحطة الصغيرة ذات السنديانة .. والسفوح الخضر .. والقمم الناصعة .. والقبر الأبيض الذى ضم الأمنية الراحلة .. وقد جثت أمامه الفتاة الرقيقة ذات الإيشارب .

والدقات الحزينة التى انبعثت .. والقطار يوشك أن يتحرك .. دقات الوداع .. التى كانت تحن لها .. وترجوه أن يشاركها فى الإنصات إليها .

وأخيراً .. راح فى إغفاءة .

ولم يدر كم طالت .. وإنما أحس بدقات ملحة على باب الحجرة .. وصوت يهتف به :

ــ دكتور مدحت .

وفتح عينيه ثم ضغط على زر « الأباجورة » .. ونظر إلى الساعة الملقاة على « الكومودينو » فوجدها ما زالت الرابعة .

وأحس أن الطارق قد حرمه من غفوة .. كان فى أشد الحاجة إليها ، فصاح به حانقاً :

ــ من ؟

ــ أنا محمود .

ــ محمود مين ؟

ــ التمورجى .

ــ اذهب من هنا .. لعنة الله عليك .. لو عدت لإيقاظى فسأكسر لك رقبتك .. لقد قلت لكم لا أريد أن يوقظنى أحد .. حتى ...

وقبل أن يكمل حديثه .. دفع الباب .. وبدا منه جاد الله وهو يصيح :

ـــ حتى ولو قامت الحرب ؟

وأحس مدحت أن سيماء جاد الله تحمل شيئاً ، فنهض متسائلا :

ـــ ماذا حدث ؟

ـــ لقد وقعت الحرب .

ـــ كيف ؟

ـــ هجم اليهود .

ـــ يهود ؟!! أتسمى هجومهم حرباً ؟!

ـــ اسمع يا مدحت ليس هناك وقت أن نختار لهجومهم أسماء. إن المستشفى يعج بالجرحى .

ـــ غير معقول ؟

ـــ الذى حدث !

ـــ كيف ؟ ومتى ؟!

ـــ وصلوا بالطائرة منذ ساعة . لقد بدأ هجوم اليهود من الساعة الحادية عشرة .. نفس الساعة التى كنت تسخر منى فيها .

ـــ وما زلت أسخر .. وما زلت أقول إن هجوم اليهود ليس حرباً .. فالذى أعرفه من الضباط أنهم لا يجرءون على الهجوم علينا .. لأن لدينا تفوّقاً فى الجو ، وفى المدرعات .

ـــ اسمع يا مدحت إنهم ينطلقون الآن فى الطريق الجنوبى صوب القتال .

ـــ غير معقول .

ـــ لا تقل غير معقول .. لأنه حدث فعلا ، هذه أنباء المرافقين للجرحى . لقد هجم اليهود فى الكونتيلا . وانحدروا فى الطريق الخالى ، وهم ينزلون قوات بالمظلات عند ممر « ميتلا » .

ـــ ولكن كيف يجرءون على ذلك ؟! ألا يخشون من عزل قواتهم فى الجنوب والقضاء عليها ؟!

وأتم مدحت ارتداء ثيابه وخرج متعجلا بجوار جاد الله الذى أجاب قائلا :

ــ هذا هو ما يريب فى الامر كله .

ــ كيف !؟

ــ لا بد أن يكون وراءهم سند .

ــ مثل ؟!

ــ الإنجليز والفرنسيون . غير معقول أن يقوم اليهود بهذا العمل الجرىء .. فى هذه الظروف من تلقاء أنفسهم .. إنهم مخلب قط .

ــ وماذا يستفيد الإنجليز من حركتهم هذه ؟

ــ أى شىء .. ولو مجرد إثارة اضطراب وقلقلة .. يضعف مقاومتنا لهم .. ويلهينا عن كفاحهم .. وتجعلنا أميل إلى أرضائهم .. وتجعلهم أقدر على كلفتنا .

ــ على أية حال ، سنقضى على اليهود قبل أن ينالوا مرامهم ، فأغلب الظن أننا قد تعوّدنا على هذه الألاعيب الإسرائيلية .

واتجه مدحت إلى حجرة العمليات . وهو يحس بالضجيج والصخب من حوله ، وقد بدا المستشفى أشبه بالسوق .. وقد اختلطت فى ردهاته الأنات بالصرخات .. وبدا كل إنسان يتحرك فى عصبية وعجلة .. وكل إنسان يطلب شيئاً أو يرجو شيئاً .. ولا أحد يعرف بالضبط ماذا يفعل .. ولا لمن يفعل .

وعلى طول عهد مدحت بالجراحة .. وعلى فرط تعوّده منظر الدماء والجراحات .. فقد أحس بدوار وهو يرى منظر الأجساد المرصوصة .. بوجوهها المعفرة وجلدها الممزق .. وأطرافها المبتورة .

ونفض مدحت عن رأسه دواره .. وأقبل على عمله .. بطريقته الجبارة ، وقدرته الخارقة ، وجلده العجيب .

ومضت به الساعات الطويلة فى عمل متواصل .. حتى أحس أن قدميه لم تعودا تقويان على حمله .. وأن يديه توشكان على التصلب .. وطلب مقعداً ،

ليجلس عليه فى غرفة العمليات كى يواصل إخراج الشظايا ورأب الجروح .. ورم الأشلاء .

وعندما غادر حجرة العمليات ، كانت الساعة قد بلغت العاشرة صباحاً ، وكان العرق يتصبب من جبينه ، وعلامات الإعياء قد بدت على وجهه .

وفى الردهة ، التقى بجاد الله .. وقد كسا الجد وجهه وبدا مهموماً محزوناً .

وحاول جاد الله أن يغلب طبيعته المرحة على الجو المشحوب بالجروح والأنات والكد والإرهاق ، فقال متضاحكا :

ــ مبسوط .. أظن ليس مثل هذا شغل !

واتجه الاثنان إلى حجرة الاستراحة ، وقال جاد الله :

ــ أقرأت الصحف ؟.

وهز مدحت رأسه وأجاب :

ــ لم أترك غرفة العمليات من الساعة الرابعة حتى الآن . ماذا بها ؟

ــ كل الأنباء التى رويتها لك .. وزاد عليها ، أن قواتنا الجوية .. دقتهم بعنف ، وأن هجومهم على « أبو عجيلة » قد صد بعد أن كبدهم خسائر فادحة .

ومد مدحت يده فتناول إحدى الصحف الملقاة على المنضدة وقرأ العناوين الرئيسية ، ثم ألقاه جانباً واسترخى فى إعياء .

وقال جاد الله :

ــ ألا تريد أن تتناول الإفطار .؟

وهز مدحت رأسه بالنفى ، ثم قال :

ــ لا أريد إلا أن أستلقى على ظهرى .

ــ ولكن لا بد أن تأكل .. سآمر « بيومى » أن يعد لنا إفطاراً .

وقبل أن يدق جاد الله الجرس أقبل ممرض يطلب الدكتور مدحت .. ونظر إليه جاد الله قائلا :

ـــ قل لهم إنه عاجز عن الحركة ، وإنه يريد أن يستريح .

ولكن مدحت قال للمرض :

ـــ لا تقل لهم شيئاً . انتظر .. سآتى معك .. إن الراحة تستطيع أن تنتظر .. ولكن الموت الذى يقف بباب غرفة العمليات لا ينتظر أبداً .

ثم وجه الحديث إلى جاد الله :

ـــ لقد أجريت عمليات لعشرة جرحى .. ثلاثة منهم قد يموتون .. ولكن السبعة قد أبعدت عنهم موتهم مؤكداً .

واتجه مدحت إلى غرف الجرحى .

وقبل أن يجتاز الباب أبصر جثة الجريح الذى استدعوه من أجله . وقد رقد على النقالة وغطى بملاءة بيضاء عليها بعض بقع الدماء .. وأبصر وجه الجريح ، وجهاً وسيما ، لم تشوّهه حروق .. ولم تمزقه شظايا .

ورفع إليه الوجه عينين مجهدتين بدت منهما نظرة صداقة وألفة . وابتسمت الشفتان الجافتان ابتسامة باهتة .. وسمع مدحت من فم الجريح تحية خافتة :

ـــ صباح الخير .

وأجاب مدحت نظرة الجريح بابتسامة رقيقة لم يألفها منه مرضاه .. ورد عليه تحيته فى وداد قائلا :

ـــ صباح الخير .

وأحس مدحت أن الوجه الوسيم مألوف لذاكرته .. ولكنه لم يجد هناك من وقته أو من فراغ ذهنه ما يساعده على التذكر .

واستقرت النقالة وسط الغرفة .. وعاد الجريح يرفع عينيه الذابلتين ويهمس بصوته الخافت :

ـــ أنا أعرفك يا دكتور مدحت .. أعرفك من نادى مصر الجديدة .

ـــ أهلا وسهلا .. أنا أيضاً أحسست أننى قد رأيتك من قبل .

ـــ أنا اليوزباشى عصام الشافعى من سلاح الفرسان .. لقد كنت فى القسيمة

عندما هاجمنا اليهود .

ورفع مدحت الملاءة البيضاء الملوثة بالدماء .. وبدت ساق عصام ، وقد لفت بكوم من القطن والشاش .. وقد مزّق عنها « البنطلون الكاكى » .

وبدأ مدحت فى فك الأربطة .. وعصام يعض على نواجده ويزدرد ريقه .. ويقول فى محاولة للتجلد :

ــ أظنها شظية مورتار . لقد أحطنا بالداورية اليهودية ، وأوشكنا نفتك بها .. عندما أحسست بانفجار قريب .. فاستلقيت على وجهى .. وظننت نفسى تجنبت الشظايا . ولكنــى أحسست بشىء كالسكين يمزق ساق .. ووجدت الدم ينزف .. لقد نزف كثيراً .. حتى كدت أفقد وعيى .

وكشف مدحت عن جرح عميق طويل .. وأخذ عصام يبلل شفتيه ، وهو يقول متسائلا فى نبراته الضعيفة :

ــ أظن الشظية ما زالت موجودة ؟

وهز مدحت رأسه ، وهو يقول :

ــ سنرى .

وعاد عصام يتساءل فى شرود :

ــ هل .. هل .. هل ستعطينى بنجاً ؟

ــ طبعاً

ثم أردف مدحت ضاحكا :

ــ إنى لست جزّاراً .

وابتسم عصام ابتسامته الباهتة .. وهو يقول :

ــ إنهم يدعونك كذلك .. لقد عرفت هذا من صبرى محمود .. إنه تلميذك وهو صديقى جداً .

وأجاب مدحت :

ــ لقد رأيته مرة بالبذلة « الكاكى » .. لقد تطوّع فى الحرس الوطنى ..

وترك الطب .

وأعاد مدحت الغطاء على الجريح .. والتفت إلى طبيب البنج متسائلا :

ــ جاهز ؟!

ــ أجل .

وقبل أن يقترب الطبيب بالحقنة المخدرة .. مد عصام ذراعه ودفع يده فى جيب قميصه الكاكى .. وأخرج محفظة صغيرة .. وقال وهو يخرج منها بضع وريقات :

ــ لى عندك رجاء يا دكتور مدحت .. لو استطعت أن تبلغ النبأ إلى أمى بطريقة سهلة مخففة تكون قد أسديت إلىّ جميلا لن أنساه .. إنى أخشى أن تبلغها بطريقة مفاجئة مزعجة ، والأمر كما ترى ليس به ما يزعج .. وهى مصابة بالذبحة .. وقد يقضى عليها .

وصمت برهة ثم قال :

ــ أنت تعرف الأمهات يا دكتور .

وأطرق مدحت .. وتذكر أمه وهى تضمه باكية عندما عاد .. تسأله ألا يتركها قبل أن يأخذها الله إلى جواره .

وقال مدحت فى صوت خافت :

ــ أعرفهن جيداً .

ــ ليس لى فى الحياة غيرها .. وغير خطيبتى ، وخطيبتى لحسن الحظ .. لا توجد الآن فى مصر .. لأنها تقيم فى « جبال الألب » بفرنسا .. ولا أظنها ستعود إلا بعد أن أكون قد استطعت السير .

ومد عصام يده ببطاقة وصورتين .. وأردف قائلا :

ــ هذا هو عنوانى .. إنه لا يبعد كثيراً عن منزلك .. فى نفس المنطقة وراء النادى .. وهذه صورة أمى ، وخطيبتى إنهما سبب حرصى على الحياة .

وتناول مدحت الأوراق من عصام .. ولم يحس فى نفسه رغبة للتطلع إلى

الأوراق والصور .. ولكنه ألقى عليها نظرة حتى يرضى الجريح المتطلع إليه فى رجاء .

وكادت صرخة دهشة تفلت من شفتيه عندما أبصر صورة الخطيبة .. وأمسك بها كالمشدوه ، فاغراً فاه ، جاحظاً عينيه .. وقبل أن ينطق حرفاً كانت إبرة المخدر قد دفعت فى ذراع عصام .. وفى ثوان كان عصام قد أطبق عينيه وسقطت ذراعه إلى جانبه .

وأحس مدحت بالممرضة وطبيب البنج يرقبان دهشته .. وحملقته فى الصورة .. فدسها فى صمت فى جيب المريلة واتجه إلى غرفة العمليات .

ولم تغادر الصورة مخيلته .. وهو يجرى مبضعه فى ساق الجريح .. كانت نفس الصورة الجانبية التى صوّرتها « منى » أول مرة عند مصوّر « جاب » .. والتى أرسلتها نادية لمدحت على أنها صورتها .. عندما سألها أن تكف عن إرسال صور الطفولة التى تعوّدت إرسالها .

ولم يستطع مدحت أن يوقف تفكيره المذهول .

إنها هى « نادية » بعينيها .

« نادية » التى كتبت إليه كل تلك الرسائل .

« نادية » .. التى أرسلت إليه أول مرة لتقول إن حياتها معلقة بردّه .

هل كانت طوال ذلك الوقت ، خطيبة هذا الجريح الذى يعتبرها السبب الأول فى حرصه على حياته ؟!

لماذا لم تخبره عنه ؟!

ترى أيهما المخدوع .. هو .. أم الخطيب ؟!

غير معقول أن تكون قد خدعته .

وغير معقول أيضاً أن تكون قد خدعت الآخر .. لأنه لا يتصوّر أن مثلها يمكن أن يعبث أو يخدع .

ولكن .. ما فائدة كل هذا ؟!

ما قيمة أن يعرف من يكون المخدوع فيهما ؟!
إذ كانت هى قد تركتهما وولت .
ولكن هذا الجريح الراقد .. لا يعرف أنها ماتت .
أجل .. إن أنباء موتها لم تبلغه بعد
وخرج مدحت من حجرة العمليات .. يسير فى الردهة ذاهلا مشدوهاً .. ويده تتحسس الصورة فى جيبه .
وعندما وصل إلى حجرته .. أخرج الصورة مرة أخرى ليتأكد من أن بصره لم يخدعه .. وأن الصورة الراسخة فى ذهنه لم تفرض ملامحها على الصورة التى سلمها إليه عصام .
وكانت الصورة هى . هى .. الشعر المعقوص .. والأنف الدقيق .. والوجه الساحر .
وأمسك جبينه بأصبعه .. وضغط عليه كأنما يحاول منعه من الانفجار. .
وأقبل عليه جاد الله ، فروّع من منظره ، وسأله فى فزع :
— ماذا بك ؟
— لا شىء :
— إنك مجهد جداً .. لا بد أن تستريح .
— لست مجهداً .
— ماذا بك إذن ؟
ومد مدحت يده بالصورة .. قائلا :
— إنى أكاد أجن .
ودهش جاد الله من الصورة وتساءل :
— ما هذه ؟
— صورة نادية .
— ما الذى أحضرها ؟

— وجدتها فى جيب الجريح الذى ذهبت لأنزع الشظية من ساقه .

— فى جيب الجريح ؟

— أجل .. إنه يعرفنى من النادى .. وقد سلمها لى هى وصورة أمه .. وسألنى أن أبلغ نبأ إصابته لأمه بطريقة مخففة .. خشية أن يصدمها النبأ .

— وما دخل صورة نادية بالموضوع ؟

— إنها خطيبته .

— خطيبة من ؟

— خطيبة الجريح .. يوزباشى بسلاح الفرسان .

— غير معقول !!

— لقد قال هو هذا .

— ربما كان يهذى .. ألم يكن محموماً ؟

— لا .. لقد كان فى وعيه .

— ولو .. هل تستكثر على جريح فى معركة أن يهذى ، حتى ولو كان فى وعيه !

— ولكن كيف وصلت إليه الصورة ؟

— من أى طريق .. من صديقة لها .. أو من إحدى قريباتها .. هل تظن صورتها قد حرّمت إلا عليك ؟

وهز مدحت رأسه فى تشكك .. قائلا فى يأس ومرارة :

— لا .. لا .. إن المسألة ..

وقبل أن يتم قوله .. دفع الباب ، ودخل أحد الممرضين يحمل رسالة .. ومد بها يده إلى الدكتور مدحت .

ونظر إليه مدحت فى ذهول .

كان نفس الظرف اللبنى ذى الخطوط الزرق .. الذى تعوّد أن يتسلمه من « نادية » .

وقرأ العنوان بنظرته الذاهلة .

فوجد نفس الخط الذى تعوّد أن يقرأه .

وهز جاد الله رأسه متسائلا :

ــ ما بك ؟

ــ رسالة من « جاب » .

ــ وماذا فى ذلك ؟! لا شك أنها من أختها « منى » .. تشكرك على زيارتك .

وأطرق مدحت هامساً فى لهجة خذلان :

ــ أجل .. أجل .. كان يجب أن أتوقع ذلك .. ولكنى ظننتها رسالة منها هى .. إن إعصابى لم تعد تحتمل . إنى فى حالة غير طبيعية .

وأمسك بالرسالة بعد قراءة عنوانها .. وعاد يقول فى صوت خافت متشكك :

ــ ولكنه .. أعنى أنه نفس الخط ؟

ــ ولِمَ لا ؟! أليستا شقيقتين .. إن كل عائلتنا خطوطها متشابهة .

وصمت جاد الله ثم أردف متضاحكا :

ــ عدا أمى طبعاً .. لأنها لا تعرف الكتابة .

ولم يضحك مدحت ، فقد كان ينظر إلى الرسالة مشدوهاً ، وقال جاد الله :

ــ لماذا تنظر إليها كأن بها عفريتاً !. لماذا لا تفضها ؟

وأمسك جاد الله بالرسالة .. وهمّ أن يفضها .. ولكن مدحت أطبق عليها .
ونظر إليه جاد الله فى دهشة قائلا :

ــ إن بك فعلا شيئاً غير طبيعى ، فضها يا أخى واسترح .

وأمسك مدحت بالظرف . فقطع حرفه .. ثم أخرج الرسالة الزرقاء الرقيقة من داخله .. وهز رأسه وهو يلمح خطها .. وهمس قائلا :

ــ نفس الخط .

ثم قرأ أول جملة « مدحت العزيز » .

وأحس برجفة تسرى فى بدنه .

نفس النداء الذى كانت تبدأ به « نادية » رسالتها .

وقبل أن تفحص عيناه ما تلاها من كلمات ، قلب الرسالة وقرأ الإمضاء .
وهتف مشدوهاً :

— إنها من نادية .

وأجاب جاد الله وهو يهز رأسه :

— ربما أرسلتها لك قبل موتها .

وقرأ مدحت التاريخ . فإذا به ٢٦ أكتوبر .. نفس اليوم الذى غادر فيه « جاب » .

وفى ذهول بدأ مدحت يقرأ الرسالة !

(٤٧)

فى موضعها

مدحت العزيز ... آجل .. أنا « نادية » يا مدحت .

أعرف أنى أذهلك بقولى .. كما لا شك قد أذهلك خطى على الظرف وتوقيعى فى نهاية الرسالة .

أنا نادية .

« نادية » الأصيلة .

« نادية » التى كتبت إليك أول مرة تتلهف منك على كلمة ترد غربتها وتؤنس وحشتها .

« نادية » التى أحبتك .

أقولها بلا تردد ، ولا حياء .

أقولها وأنا أحس بمتعة فى ترديدها .

أقولها بلا خوف من لوم .. أو خشية من تأنيب .

أنا « نادية » التى أحبتك بكل جارحة ، وفى كل لحظة .

فى يقظتها .. وفى أحلامها .

فى أحلك ساعات يأسها ، وفى أبهى لحظات آمالها .

« نادية » التى أحبتك .. بأقصى ما يملك الإنسان من قدرة على الحب ، وأشد ما يختلج بين جوانحه من أحاسيس .

« نادية » التى ركزت فى شخصك كل أمانيها ، وأحلامها .

منذ أن بدأت تتمنى ، وتحلم ، وترجو .

« نادية » التى وضعتك دعامة .. لقصور أوهامها . وشيدت على حبها

لك .. كل ما يأمل الإنسان فى حياته .. من سعادة ، ونعيم

« نادية » .. التى كانت ترقبك ، وهى قائمة فى مقعدها فى النادى .. فى صمت حالم وسكون ممتع .

« نادية » .. التى مارس فيك قلبها .. أول تجارب حبه ، وآخرها ، والتى أطلق قلبها من أجلك .. أول خفقة ، وظل لا يخفق إلا لك ، ولا يهتف إلا باسمك ، ولا يهفو لغير طيفك .

أنا « نادية » الحقيقية .

أكتب إليك رسالتى الأخيرة .

والتى كان مفروضاً علىّ ألا أكتبها .. لأنى بت فى نظرك ميتة ، والموتى .. لا يتحدثون ، ولا يكتبون .

أكتبها إليك .

لم تدفعنى إليها لهفة عليك .. رغم وجودها .

ولا أمل فى عودتك ، رغم تمنيه .

وإنما .. أكتب .

لأنصف نفسى ؛ ولأضعها فى موضعها الحقيقى عندك ، ولأمنحها منك الإحساس الحقيقى الذى تستحقه .

لست أدرى من أين أبدأ !

فلا أظن من السهل علىّ فى جلستى هذه ، أن أركز ذهنى ، وأهدئ مشاعرى وأرتب أفكارى .. بحيث أشرح لك كل ما أود شرحه ، وأبرره لك التبرير الصادق الذى يقنعك به ، وينصفنى منه .

أتدرى كيف أكتب إليك ؟!

هل تعرف شاطئ البحيرة ؟!

تعرفه بالطبع ، وتعرف البيت الخرب ، والكوخ المطل على الهاوية .. تعرف كل ذلك .. معرفة الرائى لا معرفة المستمع .

وتعرف أيضاً .. ذلك المقعد الحجرى .. القابع وراء الكوخ ، والـذى جلست عليه بجوارى .

أجل بجوارى أنا .

أنا « نادية » ، ولست « منى » .

جلست بجوارى .. وفى الحقيقة .. لا فى دعوة واهمة .

من يصدق هذا ؟!

من يصدق أنى جلست وإياك فعلا على هذا المقعد الحجرى ؟!

وأننا حدقنا سوياً .. فى هذا الفراغ الهائل .. الذى تبدو فيه المرئيات كأنها الدمى ، والتى تصطف فى أسفله القبور كأنها رقعة شطرنج .

ولكن لماذا أخلط فى كتابتى ؟!

لماذا أبدو كالمجموعة الهاذية ؟!

لماذا أتحدث إليك كأنك تعرف كل شىء ، وكأنك قد اقتنعت ببساطة .. أن التى صحبتك فى جولتك البائسة بالجبل والتى ضممتها إلى صدرك فوق المقبرة .. هى « نادية » ؟!

لماذا لا أتمهل وأشرح لك جلية الأمر فى سكينة وهدوء !!

ترى من أين أبدأ ؟!

من بعيد .. بعيد .

مذ كنت فى القاهرة .

عندما قرر أبى السفر إلى « جاب » ، وحضرت مع « منى » إلى النادى .. لأودعك .. أودعك من بعيد ، وداعاً كما وصفته للعجوز « بيتر » .. بلا معالم ، ولا تفاصيل ولا ذكريات .

وعدنا إلى البيت لنتم حزم الحقائب ، وتناول الغداء .

وفى تلك الظهيرة .. وقع الحادث المشئوم .. حادث الحريق ، والذى كانت نتيجته .. تشويه عنقى ، وموت أبى .

هل تعرف .. أننى فى الليلة السابقة الحريق كنت أجلس مع « منى » .. واتهمتنى بالعجز ، والسلبية .. وكادت تطلبك لكى تعودنى .. مدعية أنه قد أصابتنى نوبة أعور !

وأنى تمنيت فى تلك الليلة لو أصبت فعلا « بالأعور » لكى تمنحنى العملية فرصة رؤيتك والحديث إليك .

هل تعلم أننى فى اليوم التالى كنت أرقد فى إحدى حجرات المستشفى .. بعد إصابتى فى الحريق، وكنت أنت تقف أمامى فى نفس الحجرة !! ومع ذلك لم أتمن شيئا فى حياتى .. كما تمنيت أن يبعدك الله عنى .. واستجاب الله دعائى .. ولم يطل بقاؤك أكثر من ثوان ، ثم استدعوك لتعود أحد مرضاك وتركتنى لمساعدك .

وتنفست الصعداء يومذاك .. وأنا أرقد أمامك والأربطة البيض تحجبنى عنك .

لقد كنت أكره أن يقع علىّ بصرك لأول مرة وأنا مسلوخة الوجه ، محروقة الجلد .

وفى اليوم التالى هربت من المستشفى .

نجوت من الطامة الكبرى .. وهى رؤيتك لى .

ترى هل تذكرنى ؟

هل تذكر تلك الفتاة المحترقة الملفوفة بالقطن والشاش .. التى وقفت أمامها بضع ثوان .. ثم تركتها ؟!

إذا كنت تذكر الفتاة .. فهى أنا. أنا « نادية » .

« نادية » التى كانت تتلهف على أن تتخلى عن نصف عمرها كى تراك وتتحدث إليك .

وعدت إلى البيت .

ومات « أبى » .

وزالت آثار الحريق من وجهي .. بفضل عملية نزع الجلد التى أجراها لى مساعدك والتى كان مفروضاً أن تقوم بها أنت .

لولا أن أزاحك القدر .. أو أزاحنى .. من طريقك .

زالت آثار الحريق من وجهى ، ولكنها بقيت فى عنقى . وأخذت أرقب نفسى فى المرآة ، وأتخيل كيف يمكن أن أبدو لك .

وخشيت نفورك منى .. من عنقى المحترق .. وجلدى المشوه .. ووضعت الإيشارب حول عنقى أخفى ما به من تشويه ، وأحسست بأن خيط الأمل الواهى .. الذى كنت أتعلق به قد قطع .. وأنه قد تحتم علىّ .. أن أجعل منك .. مجرد طيف ، لا أمل فيه .. إلا كأمنية مستحيلة .. جل غايتى منها .. أن أعيش بالتفكير فيها .. زمناً رغداً .

ورحلنا من القاهرة .

وكنت أول الراغبين فى الرحيل .

كانت بنفسى رغبة فى الفرار .. الفرار من أمنيتى المستعصيـــة .. وأملى الضائع .

ووصلنا إلى « جاب » .

وبدأت أحيا حياتى المنطوية اليائسة ، حتى خطر لى ذات مرة أن أكتب إليك .

وكتبت رسالتى الأولى .. دفعنى إلى كتابتها .. فرط الحنين ، وشدة اليأس ، وطول الوحشة .

وكتبت إليك أقول إن حياتى معلقة بردّك .

ولقد كانت فعلا كذلك .

ولو لم تكن لما جرؤت أن أكتب إليك .

ووصلنى ردّك الأول

وأحسست بعد ذلك .. أنى بدأت مرحلة جديدة من عمرى .. مرحلة

عشتها كالفراشة الطائرة .. أهيم بين أنضر ورود الأماني ، وأعطر أزاهير الأحلام .

كنت أحيا .. فى أمل بلا حدود .

كنت أتوهم أنى يمكن أن أظل وإياك .. كما نحن .. بعلاقتنا الهوائية الحالمة .. التى لا تقف فى سبيلها عراقيل أو سدود ، وكنت أحس بأنى قد بت أعنى فى نفسك شيئاً .

أجل .. لقد أضحى لى .. مع الزمن .. موقع فى نفسك . فانطلقت أهيم فى نعيمى الجديد .. بلا أى تفكير فى نهايته ، أو تحديد لغايتى منه .. أو أملى فيه .

وكنت طوال تلك المدة .. صادقة مع نفسى .. صادقة فى كل ما يربطنى بك .

ولم يكن هناك ما يؤلمنى .. سوى الإحساس فى بعض الأوقات بأنى أحيا .. بطريقة الهيمان .. أو كما قلت لك أحلق كما تحلق الفراشة .

لم أحس أبداً .. أنى أقف على قدمى ، وأنى أستقر على أرض صلبة ، يمكن أن يحدد فيها طريق ، وأن يوصل الطريق إلى شىء .

أبداً .. كانت كل حياتى .. هياماً وأحلاماً .

وفى معظم الأوقات لم أكن أضيق بحياتى .. بل كنت قانعة بها .. راضية عنها .

عدا هنيهات متقطعات .. من اليأس .. أرتطم فيها بصخور الحقائق .. فأفكر .. وأحزن .. ثم لا ألبث حتى أهيم مرة أخرى .

ثم خدعت أول خديعة

انسقت إليها .. بطريقتى .. الهادئة المتسللة .. التى تتجنب كل المقاومات .. حتى تصل إلى غرضها .

لقد طلبت منى صورة حديثة لى .

أتذكر ؟!

إذا كنت لا تذكر فأنا أذكر جيداً .

عندما قلت لى . هل بطلت موضة التصوير عندكم ؟!

لماذا لا تكفين عن صور الأطفال التى ترسلينها .. وترسلين لى صورة لأراك كما أنت .. حتى أستطيع أن أصحبك إلى الأوبرا دون أن أخشى أن تنامى منى وأن أعود بك على كتفى .

و لم أكن أستطيع أن أرفض طلبك .. لأنه لم يكن هناك فى رفضه عذر .

و لم أكن قد صوّرت منذ الحريق .

و كنت أكره أن أصوّر .

ووجدتها مشكلة فى بادىء الأمر .

ولكنى صحبت « منى » ، وصوّرت .

صوّرت بالإيشارب الذى رأيتنى به .. والذى عدوت لأشد به عنقى عندما فوجئت بك على الباب .

وصوّرت « منى » يومذاك .

وعندما جلست لأرسل إليك الصورة .. كرهت منظر الإيشارب .. وبدا لى أنك ستسألنى .. عما وراءه .. إذا استمررت على ارتدائه فى كل صورة .

بل لقد بدا لى كأنك ستكشف ما وراء الإيشارب فى الصورة ، وأنك سترى عنقى المشوّه ..

وأنك قد لا تكتب إلىّ .

وأحسست بأنى أوشك أن أختنق .

وببساطة .. مددت يدى وأمسكت بصورة « منى » .. ووضعتها مع رسالتى فى الظرف

ومن يومها .. بدأت خديعتى لك .. وبدأ شكوكى فى نفسى .

وكتبت لى بعدها لتقول لى إنى جميلة .

وساءنى هذا . وأحسست بالغيرة من « منى » .

ولكن لم يكن هناك بد من الاستمرار فى الخديعة .. وابتعت آلة تصوير .. وبدأت هوايتى فى تصوير « منى » .

وكنت أكره كل مديح لك فى شكلى .

لأنى كنت أعلم أنه لا يخصنى .

وأنى شىء ، وشكلى شىء آخر .

وأخذت تتصارع فى نفسى كل الأحاسيس وأنا أحس أنى دفعت بإنسان آخر ليشاركنى فى حبك .

ومع ذلك فقد بدأت أعتاد المسألة .

وأقنعت نفسى بأنى أنا .. فى نظرك .. هو أنا .

وأنك تحبنى أنا .. صاحبة الرسالة .. التى تناجيك وتناجيها .. وأنى ما دمت لا آمل فى لقاء .. فلن يكون هناك خوف من أن ينافسنى أحد .. لأنى سأظل أمامك .. مجرد روح أو حلم .

وكان يمكن أن يستمر الحال .. كما هو .

فأنا نفسى قد رضيت عنه ، ولم يعد به ما يقلقنى .

فما دمت قد استبعدت شكلى من أول الأمر .. فلا داعى لأن أدخله فى منافسة .. أو أجعله سبب غيرة .

حتى كتبت إلىّ لتقول لى .. إنك قادم .

وهنا أحسست أن المسألة قد أضحت خطيرة .

وأنه قد بات علىّ أن أواجه أحد أمرين :

إما أن أعترف بالخديعة .. وأريك شكلى الحقيقى .. وأفقدك .

وإما أن استمر فى الخديعة .. فأجعل « منى » تلقاك .. وتقوم بنفس الدور الذى قامت به صورتها .. وتمثل أمامك دور « نادية » ، حتى ترحل .

ثم نعاود بعد ذلك .. علاقتنا الأصلية معاً .. علاقة الكتابة .. والأحلام والأوهام .

وكنت حمقاء فى تفكيرى .

ولكن الأنانية أحياناً تدفعنا .. لأن نشكل كل شىء حسب رغباتنا . حتى رغبات الغير .. ومشاعره .. وأمانيه .

كنت أتخيل أنك يمكن أن ترضى .. عن علاقتنا بالطريقة التى رضيت أنا بها .

كنت أتوهم أنه يمكن أن تأتى إلينا .. وترانى .. أعنى ترى « منى » ، ثم تعود لتكتب إلىّ ببساطة .. كما كنت تكتب :

لم أتصورّ قط .. أن العلاقة الهوائية كأى علاقة فى الدنيا لابد أن تنتهى إلى شىء .

لابد أن تنتهى .. إلى حقيقة .. أو تتبدد .

لم يخطر لى هذا ببال قط .

كنت أتعلق بك .

وكنت أعرف .. أن فى تحقيق الأوهام .. ضياعك منى

ولذلك .. كان علىّ أن أشكلك حسب ما أهوى .

واتفقت مع « منى » على أن تلقاك .. كأنها « نادية » .

ولكن خذلتنى .. وماتت .

وأظنك تعرف جلياً .. كيف أوجعنى موتها ، لقد كانت جزءاً منى .

أتدرى كيف يحس الإنسان .. عندما يقتطعون نصفه .. ويتركونه نصف إنسان ؟! .

لقد أحسست بهذا الإحساس عندما رَحَلَت .

ولست أريد مرة أخرى أن أحرّك أشجانك .. وأهمى مآقيك .

لقد رحلت « منى » .

ووصلت أنت .

وكان علىّ أن أواجهك .. وأواجه فيك .. خديعتى .. وحيدة .. بلا عون من « منى » .

واضطربت فى أول الأمر ، و لم أعرف كيف أواجهك ، ولا ماذا أقول لك..
كانت مفاجأة .. مذهلة ، أن أستيقظ من النوم ، لأجدك تقف أمامى .
ومنحتنى أنت .. فرصة للنجاة ، عندما سألتنى :
— أين نادية ؟
وأحسست أنك لم تميز فىّ « نادية » وأن « نادية » التى فى ذهنك .. هى « نادية » الصورة ، أو بمعنى أصح هى « منى » .
و كان علىّ أن أجاريك فى تصورّك .. وأن أخبرك بموت « نادية » التى هى فى ذهنك .. « نادية » الشكلية .
وقلت لك إنها ماتت .
وسرت معك .
وصحبتك فى جولتك .
ولا أكتمك .. أنى — رغم كل ما أحاط بى من اليأس والفجيعة — كنت سعيدة .
أجل .
كنت سعيدة ، وأنت تمسك يدى وتسير بى على سفح الجبل ، وشاطئ البحيرة .
كنت سعيدة ، وأنا أجلس معك ، وقد شرد كل منا ببصره من الشرفة العريضة .
كنت سعيدة .. بيأسك ، ولوعتك .
وفى بعض اللحظات كانت تتملكنى .. نوبات غيرة .. من أختى « منى » عندما أفكر فى أن أحزانك .. تخصها هى
وأنا .. كمخلوقة على قيد الحياة .. ليس لها نصيب من مشاعرك .
وانتهت جولتنا .
و كان علىّ أن أودعك

أن أودّع .. نفسى .
أن أودّع .. حياتى .
أن أودّع .. كل ما بقى لى من أمل فيك .
ومن العبث أن أشرح لك مشاعرى .
وقد تكون أحسست ببعضها .
فلا أظن وداعى لك ، كان الوداع الذى يمكن أن تودعك به « منى » .. لو كانت هى أنا .
ووقفت أرقبك وأنت تلوّح بيدك . والقطار يتباعد بك ، حتى اختفيت ، واختفى القطار .
واختفى كل شىء من أمامى .
وعدت إلى البيت ، وكأنى أسير فى ضباب كثيف .
وأحسست وأنا أقبع فى حجرتى ..
أنى قد بت لا شىء .. بت جسداً ، بلا روح ، ومخلوقاً بلا كيان .
وأنى قد حرمت نفسى .. من كل شىء .
لقد فقدتك نهائياً .
وأحسست أنى ظلمت نفسى .
وأنى أصبت نفسى .. بنقمة الموت .. دون أن أستمتع بنعمته .
حرمت نفسى أهم أسباب الحياة .. من صلتى بك .. وأصبحت إنسانة ميتة بالنسبة لأعز الناس عندى .
وذقت .. مرارة فراقه .. ولوعة وداعه .. بلا أمل فى عودة .. ولا رجاء فى لقاء .
ومع ذلك .. فأنا ما زلت حية .
أمارس كل متاعب الأحياء .. وأحرم كل نعم الموتى .
أنا لا أنعم .. برقدة « منى » .

لا أنعم باستقرارها وراحتها .

لا أنعم بالسكينة التى تنعم بها ، وتبعد عنها صخب الحياة ومرارة العيش .

أنا ما زلت أفكر .

لم ينعم الله علىّ براحة ذهن « منى » .

وما زال علىّ أن أواجه الناس .. وأحدثهم ، وأن أذهب إلى المدرسة .. وأن أفعل كل ما يفعله الأحياء .

ما زالت بى خصائص الأحياء ، التى لم يعد بى إليها حاجة .

ما زلت .. مثلا .. أحبك .. وأهفو إليك .

وأنت لا تشعر بى إلا كمخلوقة ميتة .. لا تكن لى سوى الحزن .. والدموع .

وحتى حزنك ودموعك .

حتى الشىء .. الذى بقى لى منك .

لا أجسر على الاستمتاع به .

لأنى لا أستحقه .

ولأنى أحس إذا ما حاولت .. الاستمتاع ببعضه .. أنى مخادعة .. مخاتلة .

لأنى .. مازلت حيَّة .

لماذا إذاً .. أبقى .. بعد كل ذلك حيّة ؟

ما فائدة حياتى ؟!

من على وجه الأرض .. يمكن أن تفيده حياتى ؟!

لماذا لا أضع نفسى موضعها ؟!

أعنى موضعها الذى وضعتها فيه أنت .

فى ذلك القبر الأبيض الذى تحيط به أعواد الزنبق البيض .. والذى وقفت أمامه ، والدمع يهمى من مآقيك .. فى صمت موجع جعلنى أكاد أتفتت .

لماذا لا أضع نفسى موضعها ؟!

حتى يكون لى الحق .. فيما تبقى لى من مشاعرك .. وألا أحس .. أن دموعك .. من أجلى .. لا تخصنى .. وأن لوعتك علىّ .. لا أستحق منها شيئاً .

لماذا لا أضع نفسي موضعها ؟

حتى أنعم على الأقل .. بالزهرة التى سنضعها .. على « نادية » .

إن العملية لا تحتاج إلى جهد ولا مشقة .

يكفى أن أترك نفسى .. لهذا الشىء الذى يجذبنى من أعماق الهوّة .. وسأهوى معه .. إلى رقعة القبور البيض المتراصة كأنها حجارة الشطرنج .

أجل .. إن هذا هو موضعى .. وذلك هو مصيرى .

وقبل أن ألقاه .

أحب أن أصدقك .. وأن أنبئك الحقيقة ، وأن أنصف نفسى عندك .

وأن أقول لك من أنا .

على الأقل حتى .. تذكرنى .. أنا .. « نادية » الفتاة التى لقيتها بالإيشارب والتى ضممتها إليك أمام القبر .. والتى صعدت معها السفح ، وسرت بجوارها على الشاطئ .

إن « نادية » هى أنا

أنا التى أحبتك .. وأنا التى .. منحتك أول خفقات قلبها .. وستمنحك آخر خفقاته .

إنى أرجو بعد ذاك .. ألا أكون قد خذلتك .. وأن أستحق مشاعرك ، وحزنك .

وأن تحبنى أنا .

وإذا ما عدت مرة أخرى .. لتزور القبر الذى ضممتنى أمامه

فلتجعل . زهرتك .. زهرتين .. حتى أختص نفسى ، بواحدة منهما .

المخلصة « نادية » .

(٤٨)

إنذار ..

مضت برهة ومدحت يحملق فى السطور الأخيرة من الرسالة مشدوهاً مأخوذا ، وسقطت الرسالة من بين أصابعه وهو يتمتم فى شبه هذيان :

ـــ كانت هى ـــ كانت هى « نادية » !!

ورفع كفه إلى جبينه يعتصره بأصابعه .. وهو مستمر فى لهجته الحادثة :

ـــ كان يجب أن أدرك ذلك .. كنت أحس بشىء يشدنى إليها .. كان يجب ألا أتركها .

وعادت عيناه تحملقان فى السطور الأخيرة :

« يكفى أن أترك نفسى لهذا الشىء الذى يجذبنى من أعماق الهاوية .. وسأهوى معه .. إلى رقعة القبور البيض المتراصة كأنها حجارة الشطرنج

« هذا هو موضعى ، وذلك هو مصيرى »

وأحس مدحت بشىء يعتصر جوفه .. وهتف فى حدة :

ـــ لا .. لن أتركها .. لن أدعها تموت ثانية .. إن مصيرها هنا .. بجوارى

ونهض من مقعده فجأة ونزع عنه « المريلة » البيضاء .. وهو يردف فى بحزم :

ـــ سأذهب لأعود بها . لن أتركها ترتكب هذا الجنون .

وكان جاد الله قد مرّ بناظره عبر سطور الرسالة مرّاً سريعاً .. واستطاع أن يفهم ما تضمنته ، وبدت عليه دهشة شديدة ، وهتف بمدحت متسائلا :

ـــ تذهب لتعود بها ؟

ـــ أجل سأذهب الآن . .

ونظر جاد الله إلى تاريخ الرسالة ، وهز رأسه فى شبه يأس وقال :

— لقد مضت أربعة أيام على إرسالها .

وعض مدحت على نواجذه .. وبدت عروق جبينه نافرة وهو يهز رأسه كأنه يبعد عنها خاطراً بغيضاً ، وقال فى إصرار وعناد :

— سأذهب إليها على أية حال .. لن أستطيع أن أجلس جلسة العاجز المستسلم .. إنى أكاد أجن .

واتجه مدحت إلى الباب فى عصبية وشرود .. ولحق به جاد الله فأمسك بذراعه قائلا وهو يحاول تهدئته :

— إلى أين ستذهب ؟

— إلى المطار .

— إنك لن تستطيع أن تفعل شيئاً بحالتك هذه .. اهدأ . ودعنا نفكر معاً .

وصاح به مدحت فى ضيق .

— أفكر ؟ أنا أستطيع أن أفكر !؟

— إذن دعنى أفكر لك .. إن المسألة تحتاج إلى تدبّر وروية .

وأجاب مدحت فى عناد المجانين :

— سأسافر .. الآن .. لن تستطيع قوة أن تمنعنى من السفر .

— ومن قال لك إنك لن تسافر .. اجلس واسترح ، ودعنى أقوم لك بترتيبات السفر .

— ليس هناك ترتيبات .. سأذهب إلى المطار لآخذ أول طائرة .

— إلى أين .. ؟

— إلى جنيف .

— وبعدها .. ؟

— سآخذ القطار إلى « جاب » .

— إذن انتظر حتى أعرف لك موعد الطائرة ، ثم تحجز مكاناً بها .

ـــ لا أستطيع أن أنتظر .

ـــ لا تكن أحمق .. إن ذهابك إلى المطار لن يجديك نفعاً .. أنت تعرف أن الحالة مضطربة ، وقد نجد الخطوط الجوية توقفت .. فدعنا نسأل لنتأكد من موعد الطائرة .. اللهم إلا إذا كنت تريد الإقامة بالمطار .

ووقف مدحت وقد بدت عليه الحيرة والذهول .. وقال فى لهجته المصرّة :

ـــ ولكننى لا أستطيع أن أتركها .. لن أدعها مرة أخرى .

ـــ أجل .. أعرف ذلك .. وستسافر إليها .

ـــ الآن ؟!

ـــ أجل الآن .. ولكن دعنى أدبر لك الأمر .. أنت تعرف أنه لابد من الحصول لك على إجازة وتصريح بالسفر . إنك لم تعد الآن مدنياً .

ـــ سأسافر بلا تصريح .. مهما كانت النتائج .

ـــ اسمع .. سنبذل كل ما فى وسعنا .. تعال معى .. نسأل أولا عن مواعيد الطائرات فهى أهم ما فى المسألة .. تعال واهدأ فى حجرتك .. فإن منظرك مروّع .. تعال .

وجذبه من ذراعه .. فانساق معه كالطفل .

واستقر به فى الحجرة مرة ثانية .. ورفع سماعة التليفون وبدأ يسأل عن مواعيد الطائرات .

وقبل أن يأتيه الرد .. بدت إحدى الممرضات وقالت لمدحت :

ـــ الدكتور رشاد يطلبك فى غرفة العمليات .. لقد دخلت دفعة جديدة من الجرحى .

ونظر إليها مدحت فى شرود ويأس ، ولم يجب .

وعادت الممرضة تكرر قولها .

وأجاب مدحت فى حنق :

ـــ قولى للدكتور رشاد أنى مرهق .. ولا أستطيع أن أفعل شيئاً .

وهمت الممرضة بالانصراف ، ولكن مدحت ضغط على نواجذه ونفض رأسه فى ضيق ثم صاح بها :

— اسمعى .. لا تقولى له شيئاً .

ثم نهض وارتدى مريلته مرة أخرى ، وقال لجاد الله فى حزم وإصرار

— لا تترك السماعة حتى تعرف موعد الطائرة .. إنى مسافر .. مسافر .. سآتى إليك بعد الانتهاء من العمليات .

— لا تحمل هماً .. سأعد لك كل شىء .

ومضى الوقت ومدحت منهمك فى غرفة العمليات ، وأحس كل من حوله بتوتر أعصابه وارتجاف يديه .

وانتهى من العملية ، وهو يحس أنه يكاد يختنق .

واندفع من غرفة العمليات إلى حجرته .. وقبل أن يصل إليها التقى بجاد الله فصاح به :

— ماذا فعلت ؟.

— وجدت طائرة على خطوط « السويس إير » ...وحجزت لك مكانا علىها .

— متى ستقوم ؟

— الساعة الحادية عشرة مساء .

— الحادية عشرة ؟!

— احمد الله أنى استطعت أن أجد لك بها مكاناً .. إنها قد تكون آخر طائرة تقوم من مصر .

— آخر أو أول طائرة .. المهم أن تسافر .

— وكيف تعود ؟

— يحلها ربنا

— ولكن يجب أن تعود بسرعة . إننا نحاول أن نحصل لك على تصريح خاص

بالسفر .. لقد أفهمتهم أن الأمر حيوى بالنسبة لك ، قلت لهم إنك ستنقذ حياة .

وأطلق مدحت زفرة وقال كأنما يحدث نفسه :

— ليتنى أستطيع .

ونظر فى قلق إلى ساعته وكانت قد جاوزت الثانية وقال فى ضيق :

— ما زال أمامنا تسع ساعات .. إن كلّ دقيقة لها قيمة .

— لا تجزع .. إن شاء الله ستجدها ، وتعود بها .. إن من السهل علينا أن نفكر فى الانتحار ، ولكن من أشق الأمور أن نقدم عليه .

وهز مدحت رأسه فى حزن وقال :

— إن رسالتها مفعمة باليأس .

— على النقيض .. إن مجرد كتابتها أمر يبعث على الأمل . لقد أقدمت على مغامرة .. ولابد أن تعيش على الأقل حتى تعرف نتائجها .. هل تتصور أنه من السهل أن تغادر الحياة .. قبل أن تعرف وقع اعترافها فى نفسك .. لابد أن تمنح نفسها فرصة .. إن الأمل أقوى من الموت .

وصمت برهة وهو يفكر فى مدى إيمانه بما قال .

ثم جذب مدحت فى ذراعه قائلا له :

— هيا بنا .. نتناول « لقمة » وإلا سقطنا جوعاً .. إنك لابد أن تعود إلى البيت لتجهيز حقائبك . وتوديع والدتك .

وهز مدحت رأسه فى مرارة وقال :

— لست فى حاجة إلى حقائب .. سأذهب كما أنا .

ورفع جاد الله بصره إليه قائلا فى غيظ :

— اسمع يا مدحت . كف عن هذا التداعى . إذا كنت تنوى أن تسافر فيحسن لك أن تتجلد ، وتتمالك قدرتك على تصريف شئون نفسك .. إنك فى حاجة إلى غيارات ، وفى حاجة إلى ملابس مدنية ، وفى حاجة إلى أشياء كثيرة تعد بها نفسك للسفر .

— لقد سبق أن سافرت ، والسفر ليس معضلة ، ولست أريد أن أفزع « أمى » بوداع جديد .. إنها تعرف أنى أبيت فى المستشفى ، وأن هناك حالة الطوارئ ، وسأتحدث إليها قبل السفر ، وعليك أنت طمأنتها من وقت لآخر .. حتى أعود .

ومرت الساعات التسع بمدحت .. استطاع خلالها أن يسوى مشكلات صغيرة.. ويعد ما يلزمه . وقبيل العاشرة كانت عربة جاد الله تنهب به الأرض فى طريقها إلى مطار القاهرة .

ووصلت العربة إلى المطار واجتاز مدحت الباب بحقيبته الصغيرة فى يده .. وبدت الحركة فى مبنى المطار قلقة مضطربة.. وأحس مدحت بعلامات دهشة ووجوم على وجوه الناس .

ووقف الموظف المختص بمراقبة الجوازات يهز رأسه قائلا :

— إنه أمر خطير .. خطير جداً .

ولم يجد مدحت فى نفسه قابلية للثرثرة .. فقد كان يريد أن ينتهى فحص جوازه بسرعة ، ولكن جاد الله تساءل بطريقتة المازحة :

— ما هو هذا الأمر الخطير ؟

— الإنذار البريطانى الفرنسى .

ورفع جاد الله حاجبيه فى دهشة ، وزم مدحت شفتيه .. فى انتظار مزيد من الشرح .

واستمر الرجل يقول :

— لقد أرسلت إنجلترا وفرنسا إلينا إنذاراً .

— لماذا ؟

— للنزول فى موانى القناة .

— أقصد لماذا أرسلت الإنذار ؟

— لأنها تخشى تعطل الملاحة نتيجة القتال بيننا وبين إسرائيل .

ـــ ولكن الملاحة لم تتعطل .. وقد ضربت طائراتنا القوات الإسرائيلية ضربة قاصمة ، ومدرعاتنا تحتشد لكى تقضى على البقية الباقية منها وتلقنها درساً قاسياً .

ورفع الرجل كتفيه وقلب شفتيه فى حيرة قائلا :

ـــ هكذا قال الإنذار .

وهز مدحت رأسه قائلا :

ـــ غير معقول .. لابد أنها إشاعة .

ولكن الأمر لم يكن إشاعة .

وسرعان ما علا صوت الراديو ليعلن نص الإنذار البريطانى الفرنسى الذى وجهه إيدن إلى الحكومة المصرية والذى يطلب وقف القتال الدائر بين مصر وإسرائيل وسحب جميع قواتهما إلى مسافة ١٠ أميال من ضفاف القنال ، وأن توافق مصر على مرابطة القوات البريطانية والفرنسية فى المواقع الرئيسية ببور سعيد والإسماعيلية والسويس ، وحدد الإنذار مهلة قدرها اثنتا عشرة ساعة تالية لتقديمه ، تنتهى فى الساعة السادسة والنصف من صباح ٣١ أكتوبر .

وعض مدحت على نواجذه ، وهو يقول فى صوت مغيظ :

ـــ غير معقول .. غير معقول أبداً .. لقد أعلنت بريطانيا أنها لن تستغل الفرصة .

وهز جاد الله رأسه ، وقد بدا عليه الشرود والتفكير وقال ساخراً .

ـــ لن تستغلها إذا استطاعت إسرائيل أن تحقق الغرض منها .. إذا استطاعت أن تصل إلى القناة وتعطل الملاحة بها .. أما وقد سيطرت مصر على أرض المعركة .. وسيطر سلاحنا الجوى على سمائها ، وبدت إسرائيل عاجزة عن تحقيق مهمتها . فكيف يقف الطرفان الآخران مكتوفى الأيدى .. كيف لا يستغلان اللعبة ، وهما أصحابها .. إنها مؤامرة مدبرة .. لم أشك فى ذلك لحظة واحدة .

وتساءل موظف الجوازات قائلا :

— ولكن هل وصلت إسرائيل إلى القناة ؟

وهز مدحت رأسه مؤكداً :

— بالطبع .. لا .

— إذن .. كيف تبعد قواتها عشرة أميال عنه .. إذا كانت لم تصل إليه ؟!

وأجاب مدحت ساخراً :

— أظن يتحتم على مصر أن تجرها إلى القناة .. حتى يمكن تنفيذ الإنذار

وعاد الرجل يتساءل :

— ولكن لماذا تريد إنجلترا وفرنسا وضع قواتهما فى بور سعيد والسويس والإسماعيلية ؟!

— لماذا تريدان ؟ لأننا أممنا القنال ؟ لأنهما نادمتان على الجلاء الذى مكننا من امتلاك أراضينا ، واسترجاع حقوقنا ، والتصرف بحرية فى ممتلكاتنا .. لقد كان المفروض أن يعقد اجتماع اليوم فى جنيف لتسوية المشكلات الناتجة عن التأميم .. ولكن يبدو أن إنجلترا وفرنسا .. وجدتا أن عودة قواتهما هى أفضل طريقة للتسوية .

وهز الرجل رأسه فى يأس وهو يمد يده بجواز السفر إلى مدحت قائلا :

— ولكن ماذا يمكننا أن نفعل الآن ؟!

وأجاب مدحت ببساطة

— لا شىء .. نرفض الإنذار .. أم ترانا قد فعلنا كل هذا .. من أجل أن نعود لنقبل ببساطة احتلال بريطانيا وفرنسا لقطعة من أرض مصر ؟!

وضحك جاد الله وهو يقول :

— إنه مجرد تهويش .. مجرد « هبهبة » .. على طريقة دبابات ٤ فبراير .

واتجه مدحت وجاد الله إلى البوفيه ، واستقر جاد الله على مقعده أمام المنضدة وشرد ذهنه برهة ثم تساءل قائلا :

— أما زلت مصراً على السفر ؟

ورفع مدحت إليه عينيه فى غيظ وأجاب ؟

ـــ مصر .. طبعاً مُصرّ .

ـــ بعد هذا الذى سمعت ؟

ـــ ماذا سمعت ؟!

ـــ الإنذار البريطانى .

ـــ ألم تقل إنه مجرد « هبهبة » ؟

ـــ هب أنه لم يكن .

ـــ ليكن أو لا يكن .. سأسافر .. سأسافر

ـــ أتعلم أن الطريق قد يغلق ، وأنك لا تستطيع العودة ؟

ورفع مدحت كتفيه قائلا :

ـــ المهم ألا يغلق قبل أن أسافر

وعاد جاد الله إلى شروده برهة ، وما لبث أن رفع رأسه متسائلا :

ـــ اسمع .. أتعرف أنك قد لا تستطيع أن تدخل فرنسا ؟

وبدت الدهشة على وجه مدحت وتساءل قائلا :

ـــ كيف ؟!

ـــ أليس المفروض أن تنتهى مدة الإنذار الساعة السادسة والنصف صباحاً ؟!

ـــ أجل .

ـــ هل تظن أن « جمال عبد الناصر » سيقبل الإنذار ؟!

ـــ بالطبع .. لا

ـــ والنتيجة ؟!

ورفع مدحت كتفيه قائلا :

ـــ لا أعرف !

ـــ النتيجة .. أننا سنصبح فى حالة حرب مع فرنسا وإنجلتره ، ومعنى ذلك أنك لن تستطيع أن تدخل فرنسا .. أو إنجلترا .

وبدا الوجوم على وجه مدحت ولكنه عاد يقول فى إصرار :

ــ اسمع .. لن يثنينى شىء عن السفر .

ورد عليه جاد الله فى غيظ قائلا :

ــ أيها الغبى .. لست أحاول أن أثنيك ، ولكن لابد لنا أن نفكر فى كل الاحتمالات .

وأجاب مدحت وهو يزفر فى يأس :

ــ اسمع .. سأسافر ، ويحلها ربنا .

ــ على أية حال إذا احتجت إلى أى شىء فى جنيف .. فاتصل بجمال .. أتذكره ؟!

وهز مدحت رأسه بالإيجاب ثم تساءل فى غير اكتراث :

ــ وكيف أتصل به ؟

ــ فى سفارتنا فى برن .. اتصل به تليفونياً ، واذهب إليه .. أو اطلب منه أن يحضر إليك .. إنه إنسان خدوم جداً .

وأجاب مدحت وهو يلقى رأسه إلى الخلف فى كلال :

ــ أرجو ألا تحوجنى الظروف إلى خدماته .

ودوى صوت الميكروفون يستدعى ركاب الطائرة .

ووقف جاد الله يودع مدحت عند الحاجز الشبكى . وسمع أحد الطيارين وهو يهرع من الباب ويشير إلى إحدى المضيفات قائلا :

ــ وداعاً لك ، وللقاهرة .. قد تكون آخر مرة نعود إليكم .

وضحكت المضيفة قائلة :

ــ وقد تكونون آخر طائرة .. ترحل عنا .

وعلق جاد الله على قولها بقوله لمدحت :

ــ سامع ؟!

ــ لا يهمنى .

— طبعاً .. أنا شخصياً لو فى صحبة هذه المضيفة .. لفضلت ألا أنزل إلى الأرض أبداً .

وسار مدحت متجهاً إلى الطائرة ، وجاد الله يهتف به :

— مع السلامة .. إذا حدث شيء فاكتب إلىّ .

وارتفعت الطائرة فى الظلمات .. وتباعدت حتى أضحت كأنها نجمة تتحرك فى بطء .

واستقر مدحت فى مقعده .. واسترخى .. وأغمض عينيه وبدا ذهنه يغرق فى دوامة أفكاره .

وسط هذا الخضم من الأحداث .. كان مدحت يحس بشعور من الاستقرار والسكينة ..

كان أهم حدث فى كل هذا الخضم الحافل .. هو حياة .. « نادية » .

إن « نادية » لم تمت .

« نادية » الحبيبة .. العزيزة . موجودة .

إنها هى نفسها التى رآها ، وأحس فى وجهها الحزين شيئاً حبيباً ودوداً .

إنها هى نفسها التى ضمها فوق القبور ، وصحبها إلى البحيرة وجلس وإياها فى شرفة النادى .

هى نفسها التى ودّعته .. باللوعة فى قسماتها .. والدمع فى مآقيها .

هى نفسها التى كتبت إليه .. لتقول له إنها تحبه .. وإنها تود أن يحبها هى

هى نفسها المخلوقة الرقيقة .. التى أحكمت الإيشارب حول وجهها .

إنه يحبها بكل ما فيها .

ويحبّ أكثر .. ذلك الشيء الذى تخشاه فى نفسها .. ذلك الحرق فى عنقها مهما كان منظره .. فهو جزء منها .

جزء من المخلوقة الرائعة .. التى أحس بروعتها منذ أول كلمة كتبتها .. إلى آخر حرف نطقته .

المخلوقة الرائعة .. التى أحبها .. لذاتها .. لشخصيتها .. وإحساسها .. والتى يحس أنه قد أحبها أكثر .. عندما لقيها .. وودّعها .

المخلوقة .. الرّائعة وهماً ، وحقيقة ..

إن « نادية » كائنة .. وهو قد رآها ، وسيراها .

سيراها !

أيستطيع أن يجزم بهذا ؟!

أواثق هو أنها ما زالت تنتظر ؟! وأنها لن ترحل حتى تعرف نتيجة رسالتها إليه ؟

من يدرى ؟!

واستمر مدحت فى هواجسه .. حتى غلبه النعاس .

وقبيل الفجر هبطت الطائرة إلى مطار جنيف ، وغادر مدحت المطار بحقيبته الصغيرة إلى ميدان المحطة ، وتوجه للسؤال عن أول قطار ليتجه إلى جرينوبل ثم إلى « فين » ومنها إلى « جاب » نفس القطار الذى حمله آخر مرة عند عودته من « جاب » .

وكان الوقت ما زال مبكراً .

واضطر مدحت إلى الانتظار حتى يحين موعد القطار .

وتنفس مدحت الصعداء وهو يستقر على مقعد القطار .. وأحس بالسكينة والقطار ينساب به من مبنى المحطة ، ويندفع بين السفوح الخضر

وبعد فترة توقف القطار فى أول محطة على الحدود .. بين سويسرا وفرنسا ، وأقبل البوليس الفرنسى يفحص جوازات الركاب ، وقد مد مدحت يده بالجواز فى شىء من الاسترخاء .

ووقف الرجل يفحص الجواز ، ثم قلب شفتيه ورفع كتفيه وأجاب ببساطة :

— هذا جواز مصرى ؟

وأشار مدحت برأسه علامة الموافقة وأعاد الرجل الجواز إليه وهو يقول له

بنفس البساطة :

ـ ممنوع .

ورفع مدحت حاجبيه فى دهشة متسائلا :

ـ ما هو هذا الممنوع ؟!

ـ دخولك إلى فرنسا

ـ لم ؟!

ـ الأوامر .

ـ أية أوامر ؟!

ـ أوامر حكومتنا

ـ لم ؟!

ـ سل حكومتك .. سل « عبد الناصر » .

ونفخ مدحت نفخة قصيرة من أنفه .

هذه سخرية جديدة !!

لقد بدا جاد الله مازحاً وهو يقول له إنه قد يمنع من دخول فرنسا .. وقد أضحت مزحته جداً .

وها هو يقف على الحدود الفرنسية ، لا يستطيع تجاوزها .

وتذكر « جمال عبد السلام » .. الملحق الصحفى بسفارة سويسرا .. الذى نصحه جاد الله بأن يلجأ إليه وقت الحاجة .

ونفخ نفخة ساخرة أخرى .

ماذا يملكه له « جمال عبد السلام » ؟

بل ماذا يملك له « جمال عبد الناصر » نفسه ؟!

وجذب مدحت حقيبته .. وهبط من القطار ، وقد أثقل اليأس كاهله .

وأنقض الهم ظهره .

ماذا يفعل الآن ، وهو يقف على الحدود كاليهودى التائه .

ونادية ؟!

نادية العزيزة .

تجلس فى انتظار ردّه .

إن كان ينوى أن يرد .

ولكن لماذا لا يرد ؟!

لماذا لا يُرسل لها تلغرافاً .. لتنتظره حتى يأتى إليها .. إن كان هناك أمل فى مجيئه إليها .

بل لماذا لم يرسل لها من القاهرة .. بمجرد أن وصلته رسالتها ؟!

لقد أعماه تصميمه على الذهاب إليها .. عن أى حل آخر .

ولو أنه أرسل إليها تلغرافاً من القاهرة .. لكان الآن فى طمأنينة .

ولكن أتراها .. ما زلت تنتظر حتى الآن ؟!

إنه يتعلق بتعليل جاد الله .

وهو تعليل معقول .

ولو لم يكن معقولا .. لقضى يأساً وحزناً .

واتجه إلى مكتب التلغراف .

ووقف أمام المكتب وقد أمسك بالقلم وبدت عليه الحيرة .

ماذا يكتب لها ؟!

أيقول لها إنه يحبها ؟!

إنه يود أن يكتب إليها رسالة كرسالتها .

ولكن ليس هذا وقته .

يكفى أن يرجوها انتظاره .

وبدأ مدحت يخط البرقية :

« نادية .. إنى أحبك .. حاولت أن آتى إليك .. ولكنى أوقفت على الحدود وأنا فى طريقى إليك من جنيف .. انتظرينى .. حتى أجد طريقة للقائنا » .

« مدحت »

(٤٩)

عملية تهريب ! ..

أرسل مدحت البرقية إلى « جاب » ثم عاد فى أول قطار من الحدود إلى جنيف ، واتجه بحقيبته إلى الفندق الذى كان يوشك أن ينزل به فى المرة السابقة .

وكان رغم ما به من قلق وتوتر .. يحس بالأمل يملأ جوانحه .. وبأن اليأس المظلم الذى أطبق عليه فى المرة السابقة قد انقشع وتبدد .

ووقف أمام مكتب الاستعلامات يحيى نفس الرجل الذى حجز له مكاناً فى الطائرة عند العودة إلى مصر . وردّ عليه الرجل التحية وقد بدت عليه علامات الدهشة وهو يسائله فى أدب :

ــ لعل سيدى لا يكون فى عجلة هذه المرة ؟!

وأطلق مدحت ضحكته الساخرة من أنفه وأجاب :

ــ بل فى عجلة أشد .

ــ أتريد العودة إلى القاهرة مرة أخرى . ؟

ــ ليس الآن .. إنى أريد أن أتصل بسفارة مصر فى برن .

ــ حالا يا سيدى .

ورفع الرجل السماعة وطلب السفارة .

بعد بضع ثوان مد يده بالسماعة إلى مدحت قائلا :

ــ السفارة المصرية معاك .

وأمسك مدحت بالسماعة منادياً :

ــ آلو .. السفارة المصرية ؟!

ــ نعم .

— الأستاذ « جمال عبد السلام » الملحق الصحفى .

— انتظر .

وبعد لحظة أجاب الصوت :

— الأستاذ جمال غير موجود .

وأحس مدحت بالضيق والحيرة وعاد يتساءل :

— أين أستطيع أن أجده ؟

— معك مكتبه .

وسمع مدحت صوتاً يجيب عليه :

— أفندم ؟

— أين الأستاذ جمال ؟ .

— فى جنيف .

— إنى أتكلم من جنيف .. أين أستطيع أن أجده ؟

— من الذى يتكلم . ؟

— أنا الدكتور مدحت .. وصلت الآن من القاهرة .. وأريده فى مسألة هامة .

وصمت الصوت برهة ثم أجاب فى تردد :

— والله لا أعلم بالضبط .. ولكننى أعتقد أنك تستطيع الاستدلال على مكانه من مكتب القنصلية .

— سأحاول أن أسأل عنه هناك .. وإذا حضر إليكم أو اتصل بكم قبل أن أستطيع الاتصال به .. فأرجو أن تطلبنى فى فندق ..

ثم هز رأسه سائلا موظف الاستعلامات عن اسم الفندق .. وأجاب الرجل :

— سافوى .

وأردف مدحت مردداً الاسم فى السماعة .

— فندق سافوى .. وسأمكث هنا حتى أستطيع الاتصال به .

ووضع مدحت السماعة ثم سأل الرجل الواقف أمامه ينتظر فى أدب :

ـــ هل أستطيع أن أتصل بالقنصلية المصرية ؟.

ـــ طبعاً .

وبعد لحظة كان مدحت يسأل عن جمال عبد السلام .

ولم يطل سؤاله هذه المرة . ففى اللحظة التالية كان صوت جمال يجيب متسائلا :

ـــ هالوا .. أنا جمال .

ـــ أنا الدكتور مدحت .

ـــ من ؟.

ـــ الدكتور مدحت .. صديق جاد الله .

وهتف « جمال » مرحباً فى دهشة :

ـــ دكتور مدحت ؟! من أين تتحدث ؟

ـــ من هنا .. من جنيف .

ـــ متى وصلت ؟ .

ـــ اليوم .

ـــ كيف وصلت ؟

ـــ بالطائرة .

ـــ ألم تنقطع خطوط الطيران من القاهرة ؟ ألم تقفل المطارات بعد ؟!

ـــ أظن أنها قد انقطعت بعد سفرى .. لقد سمعت وأنا أركب الطائرة أنها آخر طائرة تقوم من مطار القاهرة .

ـــ حمد الله على السلامة . كيف الحال عندكم فى مصر ؟!

ـــ الحمد لله .

وبدأ سيل من الأسئلة يتدفق من جمال .. ولكن مدحت أوقفه بقوله .. متسائلا :

— ألا أستطيع أن أراك ؟.

— طبعاً .. من أين تتكلم ؟.

— من فندق سافوى .. بجوار المحطة :

— بعد بضع دقائق . سأكون عندك

ووضع مدحت السماعة ، ووقف شارداً .

لقد شعر ببعض الراحة عندما عثر على « جمال »

ولكن ماذا يستطيع أن يفعل « جمال » .. إذا كانت الحدود مغلقة ؟!

أيستطيع أن يجتازها .. بجواز دبلوماسى ؟.

إنه لا يفهم فى هذه الأمور .. بل هو لا يفهم حتى لماذا منعوه أن يدخل ؟

لقد انقضت مهلة الإنذار فى الساعة السادسة والنصف .. ولكن هل معنى هذا .. إنذار بحالة حرب ؟!

وهل يستطيع « جمال » فى هذه الحال أن يدخل ؟!

ولكن ما قيمة أن يدخل « جمال » وحده ؟

إنه قد يستطيع أن يقنع « نادية » .. بحقيقة مشاعره .. وصدق نواياه وحرارة رغبته .

ولكن أيستطيع أن يقنعها بحيث تقبل أن تعود معه إلى القاهرة ؟! وإذا أقنعها ! هل يستطيع أن يقنع أمها ؟!

إنه هو نفسه .. يستطيع .

إنه يثق فى قدرته .. وفى مشاعره .

بشرط أن يجدها .

وهو يعتقد أنه سيجدها .

إنها لن ترتكب تلك الحماقة التى كتبت عنها فى رسالتها ، أنها مجرد خواطر دفعها اليأس فى نفسها .

وهى لابد من أن تنتظر نتيجة .. رسالتها .

وسيؤكد لها التلغراف الذى أرسله الآن .. هذه النتيجة .. وسيمنحها من الأمل .. ما يبدد بأسها .. ويوقف أفكارها المظلمة .

لو أنه أرسل هذا التلغراف مبكراً !!

ولكنه كان عاجزاً عن التفكير .

كان كل ما يريده .. هو أن يطير إليها .

وطال شروده حتى بدأ الرجل الواقف أمامه يقلق .. وسأله موقظاً :

ـــ سيدى . هل أحجز لك غرفة ؟

وأجاب مدحت معتذراً :

ـــ أجل .. أجل .. سأصعد إليها الآن .. وعندما يحضر الأستاذ « جمال » الذى كنت أتحدث معه .. اطلبنى كى أهبط إليه .

وصعد مدحت إلى الحجرة . وأراحته بساطتها ونظافتها .

ووقف مدحت فى الشرفة المطلة على الميدان .. وأحس ببرودة الهواء .. وشم فى نسماته .. عبير الجبال .. والبحيرات .. وأحس بأنه غير بعيد عن مواطن أحلامه ومرتع أمانيه .. وبأن « نادية » .. باتت منه على قيد خطوات .. وأن هذه القمم البيض التى تلوح فى الأفق .. هى نفسها التى تطل على بيتها .

واغتسل مدحت فى الحمام الملحق بالغرفة ، وأبدل ملابسه و لم يكد يستلقى على الفراش حتى دق جرس التليفون .. ثم سمع صوت « جمال » مباشرة يصيح به :

ـــ دكتور مدحت ؟

ـــ سأهبط إليك حالا .

ووضع السماعة .. وأسرع إلى بهو الفندق .

وتعانق الرجلان فى شوق ولهفة .. رغم أن أحدهما لم ير الآخر إلا مرة واحدة .

ولكن إحساس مدحت بالغربة والوحشة ، وإحساس « جمال » .. بأنه يرى

مواطناً من بلده المكافح .. جعل كلا منهما .. يشعر نحو الآخر .. بألفة شديدة .

وروى مدحت لجمال خلاصة الحال فى مصر .. وحدثه عن الهجوم اليهودى والجرحى .. وعن الإنذار الذى تلقته مصر .

وهز جمال رأسه قائلا :

ـ لقد سمعت الإنذار فى الساعة السابعة مساء أمس .

ـ لقد سمعته وأنا فى المطار .

ـ لقد رفض جمال الإنذار .

ـ كنا نعرف جميعاً ذلك .

ـ رفضه بقوة وحزم .. لقد أعلن أن مصر لا يمكن أن تسمح أو توافق على احتلال بور سعيد والإسماعيلية والسويس بقوات أجنبية بريطانية فرنسية .. لقد أعلن باسم مصر أن هناك انتهاكا لحريتها .. واعتداء على سيادة الشعب المصرى وكرامته .. وقد أعلنت إسرائيل موافقتها على شروط الإنذار .

ـ طبعاً توافق .. كيف لا توافق على الانسحاب عن القنال عشرة أميال .. وهى بعيدة جداً عنه .. إنها توافق لأنها معتدية .. ولأن قواتنا منتصرة .. وهى ترغمها على الارتداد .

ـ وماذا تظن إنجلترا فاعلة ؟ هل ستقف مكتوفة اليدين أمام رفضنا للإنذار ؟

ـ أعتقد أنها يجب أن تفعل ذلك .. يجب أن تكف عن الاندفاع أبعد من هذا .

ـ لا أظن .. إنها لا تستطيع أن تتراجع بعد هذا الإنذار .

ـ إذن عليها أن تخوض حرباً .. لأننا لن نسلم بلادنا أبداً .. إذا كان « إيدن » لا يستطيع التراجع فى عملية اعتداء ، فلا أظن « جمال » يستطيع التراجع فى عملية دفاع .. عن سلامة الوطن .. وحرية الشعب .

وأطلق جمال تنهيدة قلق .. قائلا :

ــ ربنا يهديهم .. إن أى اعتداء يمكن أن يقوموا به .. قد يطلق الشرر فى العالم كله .. ومن أجل هذا أعتقد أنهم لن يغامروا بتنفيذ الإنذار .

ورفع مدحت كتفيه قائلا :

ــ أرجو ذلك .. ليس هناك من يتوق لإشعال حرب جديدة

ونظر جمال إلى مدحت ، وقد بدا عليه الشرود وتساءل :

ــ لم تخبرنى بعد ؟ . ماذا أتى بك فى هذه الظروف العصيبة .. ؟ لقد ألهانا الحديث .

وأحس مدحت بحيرة شديدة .

ماذا يمكن أن يقول له .. ؟

وسط هذه الأحاديث عن الإنذار .. والاعتداء .. والحرب الموشكة .. والموقف المتأزم ، والظروف العصيبة !

هل يجسر أن يقول له ، لماذا أتى ؟

أيقول له .. قد أتى .. ليأخذ فتاة تحبه .. ويمنعها من الانتحار .. من أجله ؟!

وأحس بتفاهته .

وساد الصمت .. واستغرق فى الشرود والتفكير .

وأخذ « جمال » يرقبه فى شيء من الدهشة .. ثم تساءل فى صوت خافت :

ــ ألا أستطيع أن أكون موضع ثقتك ؟

وهز مدحت رأسه قائلا :

ــ بل يجب أن تكون كذلك .. إنى فى حاجة إليك .

ــ لماذا لا تتحدث إذن ؟ ماذا أتى بك هنا ؟! وماذا يقلقك ؟

وأطرق مدحت وقال فى صوت خافت كأنما يحدث نفسه :

ــ المسألة فى الواقع تحتاج إلى شرح طويل .. يجب أن تفهم كل الظروف المحيطة بها .. والدوافع التى خلقتها .. حتى تلتمس لى بعض العذر .. وحتى

لا أبدو أمامك مخلوقاً تافهاً .

وهز « جمال » رأسه وقال مؤكداً :

ــ إنك آخر من يتهم بالتفاهة . إنى أعرفك من جاد الله جيداً .. وإنى معجب بك جداً .. كل ما أرجوه أن تضع ثقتك فىّ .. وسأفعل من أجلك كل ما أستطيع .

ورفع مدحت بصره وزم شفتيه .. ثم اعتصر جبينه .. وقال فى صوته الخافت الذى يبديه كأنما يحدث نفسه :

ــ إنى أريد منك أن تجد لى سبيلا للدخول إلى فرنسا .

ورفع « جمال » حاجبيه فى دهشة وتساءل :

ــ وهل منعك أحد .. ؟

ــ أجل .. حاولت اليوم أن أعبر الحدود فى القطار ، فمنعونى .

ــ وإلى أين تريد الذهاب ؟!

ــ إلى بلدة فى جبال .. الألب العليا ، تسمى « جاب » .

وبدت الدهشة على وجهه وهتف متسائلا :

ــ جاب .. ولماذا « جاب » بالذات ؟! من تعرف هناك . ؟

ــ فتاة مصرية تعيش هناك .

ونظر جمال إلى وجه مدحت نظرة طويلة فاحصة وتساءل فى صوت خافت :

ــ مصرية فى « جاب » !! لا أعتقد أن هناك غيرهما ، وترى من تكون منهما .. منى .. أو نادية .

ورفع مدحت رأسه مأخوذاً وتساءل وقد تلاحقت أنفاسه :

ــ هل تعرفهما ؟!

ــ عرفتهما على ظهر السفينة .. فى طريقى إلى هنا .

وصمت « جمال » برهة وتساءل فى لهجته المأخوذة الحائرة :

— ولكن كيف عرفتهما ؟! وماذا يدفعك إلى الإصرار على زيارتهما .. فى هذه الظروف العصيبة ؟

وصمت مدحت برهة .. وقد بدا عليه الشرود واستبدت به الحيرة .

ومرة أخرى لا يدرى كيف يشرح !!

وهز رأسه فى حيرة وقال فى لهجته الخافتة :

— لست أعرف كيف أوضح لك .. إن المسألة تحتاج كما قلت لك .. إلى شرح طويل .. فإن .. مجرد ذكرها لن يشعرك بمدى أهميتها وخطورتها فى نفسى .. ولكنى ...

وصمت مرة أخرى .

وعاد « جمال » يقول مستحثاً :

— ولكنك ماذا ؟ لماذا لا تتكلم ؟ إنى أفهمك جيداً . قل كل ما تريد .. من منهما تهتم بأمرها ؟.

وأطلق مدحت نفخته الساخرة وقال :

— الباقية منهما .. ألا تعرف أن « منى » قد ماتت ؟

وهتف « جمال » مرتاعاً وردد قوله كالمأخوذ :

— منى .. ماتت .. ؟ غير معقول .. الفتاة المرحة اللطيفة التى لا تهدأ لحظة ولا تكف عن المزاح والضحك .. ماتت .. لقد رأيتها هى ونادية على ...

وقاطعه مدحت فى قلق وأسى :

— اسمع .. يجب أن أذهب الآن إلى « نادية » . إنى أخشى ..

وصمت مدحت وعاد جمال متسائلا :

— تخشى ماذا !. لماذا لا تنطق .؟

— لا أدرى كيف أشرح لك ، ولا من أين أبدأ .

وتوقف مدحت عن الحديث فجأة ومد يده إلى جيبه فأخرج رسالة « نادية » . وأردف قائلا وهو يتنهد فى يأس :

ـــ اقرأ هذه .. أعتقد أنها ستكون أقدر على إفهامك كل شيء .

وأمسك جمال الرسالة وانهمك فى قراءتها .. وقد بدت عليه أقصى علامات الدهشة .

وعندما انتهى من قراءتها طواها فى رفق ، وهو يتمتم قائلا :

ـــ إذن فهو أنت ؟

وتساءل مدحت مردداً قوله :

ـــ هو أنا .. ؟

ـــ أجل .. أنت الوهم الكبير ، الذى وقف فى سبيلى ، والذى وعدتنى بأن أكون أول من تفكر فيه إذا ما زال !؟

وصمت جمال ثم أخذ يطرق المنضدة بأصبعه قائلا :

ـــ لماذا تتوقع أن أسخر منك .. ؟ لقد أحببتها أنا كما لم أحب فى حياتى .. أحببتها بعنقها المقروح .. عنقها الذى أقامت منه حاجز يأس .. يقف فى سبيلها إليك .. وإلى كل أمل .. أحببتها .. بكل ما أملك من مشاعر .. أحببتها ، وهى مستلقية على مقعدها فوق ظهر السفينة ، وقد أطارت الريح .. الإيشارب . فكشف رأسها وعنقها .. ولم أجد به ما يستحق الإخفاء .. لم أجد بها ما يشوّهها قط .. وأصابها الجزع .. وظنت حبى لها شفقة بها .. وحاولت أن أقنعها عبثاً .. لأنك كنت تقف فى سبيلى .. وهماً كبيراً يسيطر على مشاعرها .. وسداً ضخماً يقوم بينها وبين كل طارق لقلبها .. وكنت أنتظر أن يزول الوهم .. ولكنى أجده الآن قد تجسد ليصبح حقيقة واقعة .. لا تزول .. ولا تقاوم .

وصمت جمال ثم مد يده بالرسالة إلى مدحت ، وهو يقول :

ـــ إنى سعيد من أجلها .. شقى من أجل نفسى .

ثم نهض فجأة ، وهو يقول فى حزم :

ـــ قم .. سأفعل المستحيل .. لكى أوصلك إليها .

وخرج الاثنان من الفندق .. وتساءل مدحت قائلا :

ـــ إلى أين ؟ .

ـــ سنحاول أن نعبر الحدود بواسطة الترام .

ـــ الترام !!

ـــ أجل .. سنذهب إلى « أنماس » وسنعبر الحدود بها فى الترام .. وقد تستطيع أن تمر من الحراس الفرنسيين .

ـــ بمثل هذه السهولة ؟!

وذهب مدحت وجمال إلى « أنماس » .. وتحرك الترام بهما عبر الحدود ، وقد بدا القلق على وجه مدحت وأحس بأعصابه مشدودة متوترة .

وقال جمال مستضحكا :

ـــ لا تحمل هماً .. أنا مسئول عن إدخالك الحدود .

ـــ وإذا منعنا ؟.

ـــ سنأخذ قارباً ونهرب من البحيرة إلى « أفيان » .. وهناك نستطيع أن نأخذ القطار إلى « بلجارد » حتى جرينوبل . وأظنك تعرف طريقك بعد ذلك .

ـــ أتظن العملية ممكنة ؟!

ـــ جداً .. ليس أكثر من أصحاب القوارب المهربين فى بحيرة ليمان .. المهم أن تعرف طريقك أنت بعد ذلك إلى « جاب » .. ولست أظن فى ذلك مشقة .. كل ما عليك أن تذهب إلى المحطة وتأخذ القطار المتجه إلى جرينوبل .. وبعدها تهبط فى الطريق فى « فين » .

وتوقف الترام .. وصعد جندیان فرنسيان .. وأحس مدحت بقلبه يدق فى عنف .

ومر الجنديان بصفوف الركاب وهما يلقيان نظرة عابرة على الجوازات .

حتى وصلا إلى مدحت .

ونظر أحدهما إلى « الباسبورت » وهمّ بتجاوزه ، ولكنه عاد وتوقف ثم ألقى

عليه نظرة أخرى .. وحدث زميله .. ثم ناوله « الباسبورت » ونظر إلى مدحت قائلا :

— ممنوع .

وهز جمال رأسه مستفسراً :

— ما هو الممنوع ؟.

— المرور .

— لماذا ؟.

— هذه هي الأوامر .

ولم يكن هناك جدوى من المناقشة فهبط الاثنان واتجها إلى الترام العائد وجمال يقول ضاحكا :

— لم يبق أمامنا إلا البحيرة . سأهرب بك . كالممنوعات .. هل سبق لك أن قمت بعملية تهريب ؟.

وهز مدحت رأسه ، وهو شارد مهموم .

وأردف جمال يقول :

— علينا أن ننتظر حتى يسقط الظلام .. سأتركك فى الفندق وأذهب للاتفاق مع أحد أصحاب القوارب .

ووصلا إلى الفندق وقبل أن يفترقا تساءل مدحت قائلا :

— أتظن العملية ستكون ممكنة ؟

— طبعاً ممكنة .

ولم يبد على مدحت الاقتناع فأردف جمال قائلا :

— سأبقى معك حتى نصل إلى « جاب » . هل يريحك هذا ؟! وأحس مدحت بشىء من الطمأنينة وتساءل :

— وعملك ؟

— لن يضيرهم أن أتركهم يوماً ! وأظننا لن نتأخر أكثر من ذلك . لأننا

سنكون مرتبطين بموعد مع صاحب القارب لكى يعيدنا مرة أخرى .

وهز مدحت رأسه وقال مؤكداً :

ـــ لا .. لا .. لن نتأخر أكثر من مسافة الطريق .

ومضى اليوم بمدحت وهو قابع فى حجرته بالفندق .. مستلق على الفراش مفتوح الجفنين .. منطلق الذهن .. وقد أقدم بتفكيره .. على كل ما يحتمل أن يقدم عليه .

وعندما بدأ الضوء يبهت .. وتسللت خيوط الليل .. سمع مدحت طرقات على باب الحجرة ، ثم فتح الباب ودخل جمال وهو يقول فى عجلة :

ـــ ها .. أجاهز أنت ؟.

ـــ جاهز منذ الصباح .

ـــ لقد أعددت القارب .. إن الرجل ينتظر على الشاطىء فى طرف المدينة .. هيا بنا .. خذ معطفك .. ارتد كل ما تملك من « بلوفرات » .. فبرودة الليل لا تحتمل وسط البحيرة .

وارتدى مدحت معطفه وهبط مع جمال .

وفى الطريق قال جمال :

ـــ أسمعت آخر الأخبار ؟

ـــ لم أسمع شيئاً . إنى مستلق فى الفراش منذ أن تركتنى .

ـــ لقد أذاع صوت بريطانيا أن قيادة بريطانية فرنسية مشتركة قد تكونت فى نيقوسيا ، وأن الجنرال تشارلس كيتلى البريطانى قد عين قائداً لها ، وأن الفيس أميرال « باربو » الفرنسى قد عين نائباً له .

ـــ وماذا يعنى هذا ؟.

ـــ يعنى أن إنجلترا وفرنسا مصرتان على السير فى حماقتهما حتى النهاية .. لقد بدأت الغارات على القاهرة والإسكندرية والقنال .. وقد أبلغت مصر مجلس الأمن .. وعقد مجلس الأمن جلسته ، ولكن بريطانيا وفرنسا استهانتا بجميع

القوانين الدولية واستهانتنا بميثاق الأمم المتحدة . واستهانتنا بالرأى العام العالمى .. واعترضنا على قرار وقف القتال .. وقال « إيدن » إن بريطانيا لا تعترف بقرارات مجلس الأمن وستعمل كل ما فى وسعها كى لا تعد إسرائيل معتدية، لأن عملها من أحسن الأعمال .. وأغلب الظن أن مجلس الأمن .. لن يستطيع الوصول إلى قرار .

— إنها إذن مؤامرة .. وإنجلترا وفرنسا .. تصرّان على أن تبلغا الهدف منها .. وهو احتلال القتال ؟

— طبعاً .. إن وزارة الدفاع البريطانية تقول إنها ستضرب المطارات المصرية لأن مصر رفضت سحب قواتها ..

ولكن يبدو أن الغرض هو إعجاز سلاح الطيران المصرى الذى تفوّق تفوقاً تاماً على إسرائيل .. وكذلك لعزل القوات المصرية التى تحشد لرد قوات إسرائيل .. إن بريطانيا وفرنسا لا يمكن أن تتركا إسرائيل .. تتلقى الضربة وحدها .

— لست أظن هناك عملا أحط من هذا ولا أحقر .. من كان يصدق أن إنجلترا وفرنسا .. الدولتين الكبيرتين .. تطعنان مصر .. الدولة الصغيرة .. فى ظهرها .. وهى تتوجه لحماية حدودها من عدوان إسرائيل .. إن هذا العمل سيكون سبة فى تاريخ إنجلترا .. كان أكرم لها .. أن تتجه رأساً لاحتلال القنال .. وتعلن أنها تدافع عن مصالحها .. بدل ذلك الغدر والختال والخديعة التى لا تنطلى على أحد .

— على أية حال لا أظن المسألة يمكن أن تنتهى بسهولة . إن مصر ستقاوم .. ونحن لم نعد فى القرون المظلمة .. التى يمكن أن تغتال فيها الشعوب خفية .. عن أبصار العالم .

ووصل الاثنان إلى ساحة البحيرة .

وكانت الظلمة قد سادت ، وصقيع الليل وبرودة البحيرة ، تلسع الوجوه

والأطراف .

وبدا القارب تحت إحدى الأشجار .

وتحقق صاحبه من وجه « جمال » .

وفى صمت هبط الاثنان إلى القارب .

وأخذ القارب يشق طريقه فى سكون الليل وسط البحيرة .

ولم ينبس واحد من الثلاثة ببنت شفة .. حتى وصل القارب إلى الشاطئ مرة أخرى .

وكانت أضواء مدينة « أفيان » تتلألأ من بعيد .

وهبط مدحت وجمال .

وقال جمال لصاحب القارب :

ـــ سنعود إليك فى مثل هذه الساعة غداً .

وهز الرجل رأسه .

وهبط مدحت وجمال يشقان طريقهما بين الأحراش .

وبعد نصف ساعة كان القطار يتجه بهما من « أفيان » إلى « بلجارد » .

وفرك جمال يده وهو مسترخ فى مقعده قائلا :

ـــ ما رأيك فى عملية التهريب هذه ؟

وقبيل الصبح وصل الاثنان إلى « جاب » . واتجه مدحت بجمال إلى النادى .. ثم تركه .. وسار إلى بيت « نادية » .. وقلبه يدق بين جوانحه .. ورجفة القلق تسرى فى كيانه .

(٥٠)

أحقاً عدت ؟!..

هبطت « نادية » سفح الجبل بعد أن أتمت رسالتها الأخيرة إلى مدحت .. وقد عزمت على أن تلقى بها فى البريد ثم تمر بالبيت لتودع أمها .. وتعود إلى الجبل مرة أخرى لتلقى بنفسها من الهاوية .. أو لتضع نفسها ـــ كما قالت لمدحت ـــ فى موضعها حتى تستحق زهرته على قبرها .. وتنعم بحزنه عليها .

وعندما عادث إلى البيت تلقتها أمها بالباب فى لهفة وقد بدا عليها القلق وهتفت بها :

ـــ أين كنت يا نادية ؟! لقد أصابنى القلق عليك .

ـــ لقد صعدت فوق الجبل منذ الصباح .

ـــ وحدك ؟!

ـــ أجل .

ـــ ومكثت فيه حتى الآن ؟!

وأطرقت « نادية » وهى تنظر إلى أمها فى إشفاق وحزن .. وقد تجلت مدى الفجيعة التى يمكن أن تصيبها إذا ما أقدمت على تنفيذ خطتها .. ولحقت بأختها .

وضمتها الأم إليها وهى تقول :

ـــ كدت أجن خوفاً عليك .

ـــ لماذا ؟! إنى لم أفعل شيئاً غير عادى .

ـــ لم أتعوّد منك هذه الغيبة وحدك .. وخشيت أن يكون قد أصابك مكروه .

وكان الأب « رينو » يجلس أمام الجدة التى استرخت على مقعدها الكبير فى

حجرتها .

وتمتمت الجدة قائلة :

ـــ إنى أخشى على الفتاة الصغيرة أن يصيبها شيء .. من فرط الحزن والوحدة ، لا بد لها أن تبدل هذا الجو القاتم .. وتخرج من هذه الوحشة المعتمة .

وتساءل الأب رينو :

ـــ ولماذا لا تفعل ؟

ـــ لقد حاول أصحابها أن يخرجوها من انطوائها .. وزاروها بضع مرات .. ولكنها كانت تضيق بهم ، وتصعد هاربة إلى حجرتها .

ـــ إذن سأجرّب أنا معها .. إن مدام كلود .. ستذهب إلى قريتها لبضعة أيام . وأعرف أنها لا يسعدها شيء كصحبة « نادية » . وأعرف أن « نادية » تحب كلود ، وتطمئن إلى صحبتها .. وسأحاول إقناعها الآن بالذهاب معها .

ونهض الرجل ليلقى « نادية » مرحباً :

ـــ أهلا بفتاتى الهاربة . لقد حضرت فى الوقت الملائم ، لقد كنت أتآمر مع جدتك على خطفك .

وشدت « نادية » على يد الرجل مرحبة وتساءلت :

ـــ إلى أين ؟!

ـــ إلى قرية مدام كلود .

ـــ قرية مدام كلود ؟!

ـــ أجل .. لقد قررنا أن بقاءك هنا .. وانطواءك فى حجرتك .. أمر غير معقول .. وستسر مدام كلود بصحبتك إلى قريتها .

ـــ ولكن ..

وقاطعها مسيو رينو قائلا :

ـــ ليس هناك لكن .. لقد قررنا أنا وجدتك أن تذهبى معها .. وأظن أمك لن تعارض .

وأجابت الأم فى حماس :

— أبداً .. إنى أتمنى أن تخرج من عزلتها .. لترى الناس .. وليس هناك أدعى إلى الاطمئنان عليها من صحبة مدام كلود .

وأجابت نادية :

— ولكننى لم أشك لأحد . إنى لم أعد أطيق صحبة الناس .

ورد مسيو « رينو » فى شىء من الحدة :

— ومن أجل هذا يجب أن تخرجى إلى الناس .. يجب أن تكونى أكثر جلداً وأقوى تحملا .. يجب عليك ألا تفقدى إيمانك بالله .. وبالناس .. وبالحياة.. لقد أصابتنى نفس الضربة التى نزلت بكم .. وكدت أقضى من اليأس وأفقد الإيمان بكل شىء .. ولكننى تحاملت على نفسى وتجلدت .. وخرجت إلى الحياة .. لأفعل شيئاً أفيد به الناس ، ونزلت من دارى فوق الجبل .. وشيدت مدرسة لليتامى .. ورحت أبذل فيها كل ما أملك من جهد ومال .. حتى استطعت أن أصل بها إلى ما ترينها الآن .. ولقد بدد العمل من نفسى اليأس .. وأضاع الجهاد فى سبيل الناس والخير كل ما أحاط بى من وحشة وكآبة وحزن .. وها أنذا الآن كما ترينني .. أحيا وأعمل .

وصمت رينو برهة ثم ربت على ظهر نادية وأردف قائلا .

— هيا يا بنيتى .. هيا .. جهزى حقيبتك وتعالى معى .. لن تغيبى أكثر من بضعة أيام تغيرين خلالها ذلك الجو القاتم الذى تعيشين فيه .. وتكسرين ذلك الملل الذى تجرى عليه حياتك .. هيا .. إنى سأقدم بك إلى مدام كلود .. أجمل مفاجأة .. هيا يا « نادية » .

ووقفت « نادية » مترددة .. وهى لا تدرى بم ترد على إلحاح الرجل الذى يوشك أن يعرقل خطتها المرسومة .

وهتفت بها الجدة قائلة :

— هيا يا نادية .. لا تكونى عنيدة .

وربتت الأم ظهرها فى رقة راجية :

ـــ هيا يا نادية . إنى واثقة أنك ستكونين أحس حالا .

وأحست « نادية » أنها لا بد أن تؤجل خطتها حتى تعود من صحبة كلود .

وتسلل إلى نفسها .. خيط رفيع من الأمل .

من يدرى .. ربما تعود من القرية لتجد رداً على رسالتها .

ومن يدرى أيضاً .. ربما يكون رداً جميلا .. يبعد عنها تيار اليأس الذى يجرفها إلى الدمار .

من يدرى ؟!.. من يدرى ؟!

ولكن أمعقول أن يحدث ؟

معقول أم غير معقول .. إنه مجرد أمل .. مجرد بصيص من أمل .. يضىء الظلمات المكدسة فى حناياها .

لماذا لا تنتظر ؟!

لماذا لا تمنح نفسها .. فرصة الأمل ؟

حتى ولو كانت فرصة كاذبة .. لا طائل تحتها ؟!

ما الذى يدفعها إلى التعجل ؟!

أهى الرغبة فى الراحة .. والهروب من اليأس ؟!

ولكن .. إذا كان هناك بصيص من أمل .

فلماذا لا تنتظر من أجله ؟!

بصيص من أمل ؟

من الذى منحها هذا البصيص ؟!

أوهامها ؟

أما زالت تحاول مرة أخرى .. أن تتعلق بالأوهام ؟!

وهزت « نادية » رأسها فى ضيق ثم اندفعت إلى أعلى .

وبعد لحظات كانت عربة المسيو « رينو » تنطلق بها إلى بيت كلود .. ولم

يطل بها الوقت هناك .. حتى رحلت الاثنتان إلى القرية .

واستقرت « نادية » مع كلود فى قريتها .. ونجح تبديل المكان والخروج من الوحدة .. فى إزالة بعض ما بنفسها من يأس معتم ووحشة قاتلة .

ولكن لم تمض بضعة أيام .. حتى تملكها إحساس بالقلق والرغبة فى العودة إلى البيت .

وكان مبعث القلق .. ذلك الخيط الرفيع من الأمل .. الذى تسلل إلى نفسها .

والذى يجعلها .. تتوهم .. احتمال .. وصول رد من مدحت .

ردّ — إن وصل — سيكون الحاسم فى أمرها .. المقرر لمصيرها .. وشىء خفى فى باطنها ، يمسك بذلك الخيط ويثبته ويؤيده .. شىء يجزم لها أن مدحت لن يخذلها .. وأنه يحبها هى .. هى ..

لا الصورة ..

ولا القبر .

وإنما هى . بكيانها . وشخصها . فى أية صورة على أى وضع فإن كانت واهمة .. وإن خذلها .. فهى تعرف مقرها

إن لها فى رقدتها فيه ، خير راحة وأجمل عزاء .

***

وصل مدحت إلى البيت .

ومرة ثانية ، وجد نفسه . يقف بالباب ليطرقه ، وشتان ما بين طرقة وطرقة .

كانت الأولى طرقة أمل .

وكانت الثانية : طرقة تردد وخوف .

وفتح الباب ..

وأطل منه وجه جانيت .

وأحس مدحت بشيء من الخيبة . كان يتمنى لو كان الوجه المطل . الوجه ذا الإيشارب ، والملامح الرقيقة . وهز مدحت رأسه محيياً .. ثم تساءل فى لهجة مترددة :

ـــ أأستطيع أن أرى نادية ؟

وهزت جانيت رأسها بالنفى ، وأحس مدحت بشيء يفرى أمعاءه . أترى قد نفذت وعدها ؟!

أترى الوقت قد فات ؟!

وأحس بأنه عاجز عن النطق .. عاجزِ عن الاستفسار .. لقد خشى مرة أخرى أن يسمغ .. ما سمعه أول مرة .. من « نادية » نفسها أن « نادية » قد ماتت .

لقد روّعه أن يتلقى الصدمة ثانية .

ومضى الوقت به ، وهو يحملق فى صمت ، وبدا القلق على الوجه المطل من الباب .

وأحس أنه لا بد أن يسأل . فقال فى لهجته المترددة الخائفة :

ـــ هل .. هل .. أعنى .. هل أستطيع أن أعرف . أعنى ...

وضاقت جانيت بتردده وسألته فى شيء من نفاد الصبر :

ـــ هل أستطيع أن أعرف من أنت ؟

ـــ أنا .. أنا .. الدكتور مدحت .. لقد أرسلت إليها تلغرافاً بالأمس .

وقاطعته جانيت لتسأله فى شيء من الدهشة :

ـــ أنت .. الدكتور مدحت .. لقد وصل التلغراف .. ولكنها لم تتسلمه لأنها رحلت .. من بضعة أيام .

ومرة أخرى أحس بالشيء الذى يفرى أمعاءه .

رحلت !؟

ما معنى رحلت ؟!

هل يمكن أن تكون المرأة البليدة ، تعنى برحلت ، أنها ماتت ؟ ولكن لماذا تقولها بمثل هذه البساطة ، والبلادة !؟

إنها لا يمكن أن تعنيها .

وكان عليه أن يلم أطراف شجاعته ويسأل ، ودقات قلبه تكاد تعلو على نبرات صوته :

ـــ رحلت .. إلى أين ؟

ـــ إلى قرية مدام كلود .

وتنفس مدحت الصعداء .

الحمد لله . إنها ما زالت كائنة .. لم تخذله وتذهب .

ولم يستطع مدحت أن يمنع التهلل من الانبساط على أساريره ، وقال متسائلا :

ـــ ومتى ستعود ؟!

ورفعت جانيت كتفيها قائلة :

ـــ لا أعرف بالضبط ، وإن كنت أعتقد أنها لن تغيب . قد تعود غداً ، أو بعد غد .

غداً .. أو بعد غد ؟!

ولكنها على أية حال أهون كثيراً .. من ألا تعود مطلقاً .

ماذا يفعل بجمال ؟ وبالقارب المنتظر ؟!

إن المفروض أن يعودا هذا المساء .

إن الفرصة ضيقة أمامهما .

إن على جمال أن يعود إلى عمله .

وعليه هو أيضاً أن يعود إلى القاهرة . فليس مفروضاً ـــ والمعركة يحتدم أوارها فى مصر ـــ أن يبقى هو متسكعاً فى جبال الألب .

على أية حال . إنه يستطيع أن يترك لها رسالة يشرح فيها كل مشاعره ونواياه .
ثم هو أيضاً يستطيع أن يحدث أمها . ويقنعها .
وقبل أن يفتح شفتيه ليرد على التساؤل ملأ وجه جانيت بالقلق ، سمع صوت عربة تقف بالباب الخارجي للحديقة .
وفتح باب العربة ثم أغلق .
وسمع صوتاً يقول :
ــ إلى اللقاء .
واستدار ليواجه المفاجأة العجيبة .
يواجه « نادية » .. تعبر الممر فى طريقها إلى الباب .
ورفعت « نادية » عينيها.. لتجد مدحت يحملق فيها مشدوهاً ، فجمدت فى مكانها بلا حراك .
ودون أن ينبس بكلمة واحدة ، مدّ ذراعيه وضمها إليه .
ومضت برهة ، وهو يحيطها بصدره وذراعيه ويمسح رأسها بشفتيه وأنفه
واستسلمت هى لضمته ، وهى تهتز مرتجفة ، كالصادية أهلكها الظمأ ، وأحرقها الهجير .
ووقفت جانيت ترقب المنظر مشدوهة . ثم هزت رأسها فى حيرة ، ودلفت إلى الداخل .
وخفت ضمة ذراعى « مدحت » عن جسدها .. ورفعت « نادية » رأسها ، والدموع الصامتة تهمى من مآقيها .
ومد مدحت يده فانتزع الإيشارب الذى تحيط به رأسها وعنقها ، وقذف به بعيداً .
ثم انحنى على عنقها ، يمسه بشفتيه فى أقصى آيات الحنان والحب وهو يهمس قائلا :
ــ إنى أحبك أنت . بكل ما فيك . على أية صورة ، وفى أى وضع . أحب

« نادية » التى أحبتنى ، وكتبت إلىّ .

ومدت « نادية » يدها إلى عنقها تتحسسه فى خوف .

وهتف بها مدحت فى لهجة تأنيب :

ــ ماذا ظننتنى « يا نادية » ؟! أظننتنى تافهاً .. يضيع حبى .. مجرد آثار أعتقد أنى أنا المسئول عنها ، فلو كنت قد بقيت معك حتى أجريت لك العملية لما تركت هذه الآثار التى تركها هذا الأحمق فى عنقك .

وكانت « نادية » تنظر إليه مشدوهة ، دون أن تنطق بكلمة.وعندما استطاعت أن تتحدث.. هتفت ، وهى تتحسس ذراعيه كأنما تحاول التأكد من أنه حقيقة واقعة :

ــ أحقاً عدت ؟!

وعاد مدحت يضمها إليه ضاحكاً ، وهو يقول :

ــ طبعاً عدت . ماذا كنت تظنيننى فاعلا إزاء رسالتك العجيبة ؟ أكنت أتركك ترتكبين حماقتك وأرسل تلغراف تعزية إلى « ماما » ؟

وضحكت « نادية » ، وقالت ، وهى تمسك بيده وتقوده إلى الداخل :

ــ ألا تنوى التعرّف بماما هذه المرة .

ــ بل أنوى أخذك أنت وهى إلى مصر الآن ؟

ــ الآن ؟!

ــ أجل .

ــ غير معقول .

ــ ليس هناك شيء غير معقول ، ولا مستحيل ، بعد أن وجدتك .

ــ ولكن لماذا نرحل الآن ؟!

ــ لأن مصر قد أصبحت فى حالة حرب مع فرنسا ، وقد دخلت إلى الحدود متسللا ، فى قارب مع صديق يعرفك .

ــ يعرفنى أنا ؟!

ــ أجل .. جمال عبد السلام .

ــ جمال . الملحق الصحفى فى سويسرا ؟!

ــ أجل . لقد كان له الفضل فى إدخالى عبر الحدود ، وقد أتى معى حتى « جاب » ، وهو ينتظرنى فى النادى .

ــ حقاً ؟! إنه مخلوق نبيل .

ــ لا تمدحيه أكثر من ذلك . لأنى أغار .

ونظرت « نادية » إليه ضاحكة . ثم همست قائلة :

ــ لا أستطيع أن أصدق أنى أعيش فى الحقيقة .. أبداً . إن هذا فوق ما كنت أحلم به .

ونظر إليها مدحت ضاحكا ، وهو يهز كتفيها قائلا :

ــ دعينا الآن من الأحلام .. أفيقى .. يجب أن نعود حالا إلى « إفيان » فالقارب ينتظرنا هناك .

وبدا الشرود على وجه « نادية » وأجابت :

ــ ولكن .. ماما ؟!

ــ مالها ماما .. ستأتى معنا .

ــ غير معقول .

ــ دعى أمر ماما لى .. أين هى ؟

ودخلت « نادية » إلى حجرة أمها هاتفة ، وقد بدا عليها القلق والحيرة :

ــ ماما . لدينا ضيف من مصر .

ــ من مصر ؟

وأطرقت « نادية » وأجابت فى حياء وتردد :

ــ أجل . الدكتور مدحت .. الذى .. أعنى .. أننا ..

وتمتمت الأم قائلة :

ــ لا داعى للشرح .. إنى أعرف كل شيء . إنى أعرفه جيداً من أختك

« منى » .

وازدردت نادية ريقها وقالت :

ـــ لقد عاد ليأخذنا .

ـــ يأخذ من ؟

ـــ أنا وأنت ..

وأطلقت الأم تنهيدة حارة . وضمت « نادية » إلى صدرها وهمست قائلة :

ـــ منذ سنوات طوال .. أخذنى أبوك أول مرة إلى مصر .. وكنت سعيدة .. سعيدة .. كان ذلك منذ زمن سحيق .. أما الآن .. فأحس أن مكانى هنا .. إن فرصتنا فى الحياة لا تتكرر مرتين .. فعودى أنت معه .. أنا أعرف مدى سعادتك بعودته .. وبعودتك معه .. وأحس من سعادتك .. عزاء لى عن فرقتك .. أين هو ؟!

وخرجت الأم إلى القاعة .. ونظرت إلى مدحت نظرة عطف وحنان .. ثم مدت يدها وضمته إليها .

وانحدرت الدموع من مآقيها .. وهى تهمس :

ـــ خذ بالك من نادية .. ما كنت لأتركها .. لولا يقينى من حبك لها .. وحبها لك .

وقال مدحت مؤكداً :

ـــ ولكنك ستأتين معنا .

وهزت الأم رأسها فى صمت .

وتساءل مدحت فى دهشة :

ـــ لماذا ؟!

ـــ لقد فات العمر .. وهنا أرضى وأرض آبائى . وهنا ترقد حبيبتى الأخرى .. إن فى هذا الوطن شيئاً يشدنى إليه ، نفس الشىء الذى يشدكم إلى مصر ، أرضكم الحبيبة ، وموطنكم العزيز .

وهتفت « نادية » راجية :

ـــ ولكنى لن أتركك وحدك .

ـــ بل ستتركينني الآن ، وتعودين إلىّ .. تعودين إلىّ مع مدحت .. ومع أولادكما .. وأدعو الله أن تكونى أحسن منى حالا .. وأسعد حظاً .. و ..

وقاطعها مدحت قائلا :

ـــ ولكن فرصة العودة قد لا تسنح .. إن الحرب قد نشبت بين فرنسا ومصر .

وهزت الأم رأسها قائلة فى نبرات ملؤها الثقة والسكينة :

ـــ الحرب أجلها محدود .. والسلام أبقى وأثبت .. إن شعور المودة بين البشر أقوى من أحقاد الساسة .. الحب أقوى من كل شىء .. النيران ستخمد .. والدوى سيتبدد ، وتهب نسائم السلام على الأرض دائماً .. وسنعود مرة أخرى ليعانق بعضنا بعضاً .. إن فى أرضكم المحبة .. وفى أرضنا المحبة .. والمحبة أقوى من كل مشاعر الحقد والضغينة .

ومد مدحت ذراعيه فضم المرأة الطيبة الوادعة .. وقد سرى إليه من روحها الوادعة شعور فياض من السكينة والمحبة والسلام .

ولم تمض الساعة حتى كانت « نادية » قد أعدت حقيبتها ووقفت الأم تودع ابنتها والدموع تنهمر من مآقيها .

وأشارت لها « نادية » وملء نفسها الحزن والأسى وهى تهتف :

ـــ سنعود إليك قريباً .. قريباً جداً .

والتفتت إلى مدحت وهى تسأله مؤكدة :

ـــ سنعود إليها قريباً .. أليس كذلك ؟

ـــ بالطبع يا حبيبتى ، سنفعل كل ما يرضيك ويريحك .

وقبل أن يذهبا إلى النادى لأخذ « جمال » .. مرّا بالمقابر البيض المنضدة وسط الخمائل ، ووضعا على أحدها عودين مكللين بأزهار الزنبق الأبيض .

وأخيراً عادا إلى المحطة مع جمال .. وحملهم القطار إلى « إفيان » .

وفى الموعد المحدد ، سار بهم القارب يشق سطح البحيرة ، فى سكون الليل .

وأخيراً وصلا إلى جنيف .

ونزلت « نادية » فى حجرة مجاورة لحجرة مدحت .

وفى الصباح كانت إحدى الطائرات تقلهما إلى بيروت ، حيث يأخذان طائرة أخرى إلى الخرطوم ، ليعودا إلى القاهرة عن طريق سكة الحديد .

ووقف مدحت ونادية يودعان جمال .

وقالت « نادية » فى صوت ملؤه الشكر والعرفان بالجميل :

ـــ لست أدرى كيف أشكر لك .

وهز جمال رأسه :

ـــ تشكرينني علامَ .. لقد سرّنى أن استطعت أن أجعل من السد الوهمى الذى كان يحول بينى وبينك حقيقة واقعة .. إنى الآن أحس بشىء من الراحة .. راحة اليأس .. فقد كنت أكره أن يحول بينى وبين سعادتى .. حاجز من الأوهام .

وضحك مدحت قائلا :

ـــ آسف جداً .. لم أكن أحب أبداً أن أحول بينك وبين سعادتك .

والتفت مدحت إلى « نادية » فوجدها تحكم الإيشارب حول عنقها .

وقال لها فى حزم :

ـــ ارفعي هذا الإيشارب .. لا أريد أن تضعيه على رأسك أبداً .

وترددت « نادية » برهة .. ونظر إليها مدحت نظرة صارمة جعلتها تمد يدها فى سكون لتنزع الإيشارب .

وصاح بها جمال :

ـــ أجل .. هكذا أجمل .. مع السلامة .

(٥١)

معركة شعب !..

بدأت الغارات الجوية على مصر بعد أن انتهت مدة الإنذار فى يوم الأربعاء ٣١ أكتوبر ١٩٥٦ ، وشهدت القاهرة أولى تلك الغارات فى الساعة الخامسة بعد الظهر .

وكان أهل القاهرة قد تعوّدوا منذ يومين عويل صفارات الإنذار المتقطع . ثم سماع بضع طلقات من المدافع المضادة للطائرات .. ثم انطلاق الصفارات فى عويل مستمر لتعلن أنتهاء غارة بيضاء .. انقشعت من سماء القاهرة من غير سوء .

وسمع الناس فى تلك الغارة طرقات تدك الأرض .. واختلط عليهم أمرها .. فمن قائل إنها طلقات مدافع ، ومن مؤكد أنها دكات قنابل .. ثم غلب عليهم الاستخفاف بأمرها ليقينهم بأن طائرات إسرائيل .. لا يمكن أن تتطاول إلى سماء القاهرة .

لم يكن هناك من يصدق .. بأن إنجلترا وفرنسا .. يمكنهما حقاً .. أن تقدما على ذلك الجرم الأحمق والخيانة الطائشة الرعناء .

لم يخطر ببال أحد .. أن إنجلترا وفرنسا .. الدولتين الكبيرتين .. يمكن أن تتآمرا مع إسرائيل .. بمثل هذه الطريقة المفضوحة .. المزدراة .

وكان بالناس .. بقايا حسن ظن بالدولتين الكبيرتين .

حتى أقبل المساء .

وأطلقت الصفارات المتقطعة مرة أخرى .

وأغمضت القاهرة عيونها المضيئة وسحبت على بدنها كساء الليل الأسود ، وكتمت أنفاسها لترقب طارق الليل الجديد .

وخيمت الظلمة وساد السكون .. إلا من صيحات المراقبين « طفى النور » ومن انطلاق بعض عربات الجيش المارقة .. ذات المصابيح الزرق .

ووسط الصمت المخيم .. سمع أزيز يحلق فى الجو .

وفجأة .. أبصر سكان مصر الجديدة .. صوتاً يخطف الأبصار .. وحلقت فى السماء مصابيح يشع منها ضوء أغرق الحى .. وكشف عن ستار الظلمة ، وبدا الحى كأن جلاداً قد حسر عنه ثوبه .. ثم هوى عليه بالسياط ، فلم يكد يكشف الضوء الغامر .. بدن الحى .. حتى هوت الطرقات .. شديدة متتالية ، تدك الأرض وتهز الجدران ، وترج القلوب .

وتعالت ألسنة اللهب .. وتصاعدت أعمدة الدخان .. وتوالت الضربات العنيفة .. والأصوات المدوية .. وأحس الناس كأن السماء قد تحولت إلى قطعة من جحيم .

واستمر جلاد الليل الأحمر يدق الأرض بطرقاته المحرقة وضرباته الموجعة . وقد حوّل سكون الليل .. إلى ظهر أحمر صاخب ضاج .. حتى أفرغ حمولة الدمار .. تاركاً وراءه آثاره من خرائب وأطلال وأشلاء .

وأدرك الشعب المصرى ليلته .. أن معركته .. لم تعد هينة ، وأن القتال فيها لم يعد مع إسرائيل وحدها ، وإنما مع دولتين كبيرتين أفقدهما الحمق صوابهما فاندفعتا .. كمجنون ضاع رشده فجعل يدمر ويحطم .. بلا عقل ولا روية .

وأدرك الشعب أيضاً .. أنه يخوض معركة حياة أو موت . وأنه مقبل على كفاح شاق مرير .. سيقرر مصيره ، ومصير حريته ، ومصير مستقبل أجياله القادمة .

وفى اليوم التالى .. تتابعت الغارات .. وتوالى الضرب والدوى ، وفى عصر ذلك اليوم .. فى إحدى حجرات مستشفى العجوزة .. رقد عصام على فراشه مشدود الساق ، وجلس صبرى أمامه بجسده النحيل الطويل .. وحلته « الكاكية » وعلى رأسه الصغير قد وضع « الكاسكتة الكاكية » تحجب جزءاً

من منظاره السميك وقد وضع بندقيته عمودية بين ساقيه ، وأسند مرفقيه إلى ركبتيه ، وكفيه إلى فوهة البندقية .. وأسند ذقنه إلى ظهر راحتيه وبدا واجماً شارداً .

وامتدت أصابع عصام تدير مفتاح الراديو وهو ينظر إلى ساعته قائلا :

ـــ أظن جمال سيتحدث الآن .

وهز صبرى رأسه فى أسف وقال كأنما يحدث نفسه :

ـــ لم يخطر ببالى أن خلق الدول يمكن أن ينحط إلى هذا الدرك .

وضحك صبرى قائلا :

ـــ بل وينحط إلى أكثر من هذا .. إن المثل والأخلاق تنهار أمام المطامع .

ـــ كانت هناك وسائل أخرى .. أكرم لهما .. لتحقيق مطامعهما .

ـــ مثل ؟!

ـــ مثل الغزو الصريح المباشر .. لو أنهما ..

وقطع حديث صبرى صوت « جمال عبد الناصر » يعلو من الراديو .

وأرهف صبرى وعصام .. أذنيهما .

كان الصوت ينطلق عميقاً ، متهدجاً .. كانت به رنة أسى .. ولأول مرة .. يغلب حزنه .. ثورته ، وحماسه .

لأول مرة ، يبدو الثائر العميق .. فى صوت الشاب الثائر الذى غير مجرى التاريخ ، وقفز بأمته إلى ذرا المجد .

وانطلق الصوت الهادئ الحزين يقول :

« بدأت المؤامرة بهجوم إسرائيل المفاجئ يوم الاثنين ٢٩ أكتوبر ، وأعلنت إنجلترا فى أول الأمر أنها لن تستغل الفرصة ، ولكن لم يكد يتبين لها أن قواتنا قد سيطرت على أرض المعركة ، وأن سلاحنا الجوى قد سيطر على سمائها .. حتى أرسلت إنذارها باحتلال القناة من أجل حماية الملاحة فيها .

« حدث هذا فى وقت كانت الملاحة فيه مستمرة و لم تهدد إطلاقاً ، والقوات

المصرية تحتشد لمقابلة القوات الإسرائيلية المعتدية وتردها على أعقابها .

« ورفضنا الإنذار لأننا لا نقبل مطلقاً أن نوافق على احتلال جزء من أراضينا بقوات أجنبية .

« وفى الساعة السابعة مساء أمس أصدرت وزارة الدفاع البريطانى بلاغاً بأنها ستضرب المطارات المصرية نتيجة لرفض مصر للإنذار .

« وبدأ الضرب فعلا .. فى القاهرة والقناة والإسكندرية .

« وكان الغرض هو تدمير السلاح الجوى المصرى ، وسحب قواتنا إلى داخل سيناء وعزلها وتدميرها .. ثم احتلال مصر بلا أية مقاومة .

« وكان لا بد من اتخاذ قرار خطير » .

وأحس عصام كأن يداً تقبض على عنقه وتكتم أنفاسه .

وخلع صبرى منظاره فى حركة عصبية ثم مد يده وأدار مفتاح الراديو ليعلى صوته .

وعاد الصوت الهادىء الحزين يقول :

« كان لا بد من اتخاذ قرار حاسم حتى يمكن إحباط خطط إنجلترا وفرنسا وإسرائيل والمحافظة على قواتنا الرئيسية .. حتى يمكن أن تبقى دائماً مساندة للشعب .

« وكلفت القائد العام اللواء عبد الحكيم عامر بحماية قواته المسلحة والعمل على أن ينضم أكبر جزء منها إلى الشعب حتى لا تتمكن القوات المعادية من عزلها وتدميرها فى صحراء سيناء .

« ولقد بدأ أمس تنفيذ هذه الخطة » .

ومد عصام يده فضغط على جبينه .

وشرد ذهنه فلم يستطع تمييزا لصوت المتحدث إلى جـواره .

أيمكن هذا ؟!

أحقاً .. سنسحب قواتنا من سيناء .. أمام قوات إسرائيل ؟!

أيمكن أن نترك أرضنا للكلاب النابحة ؟!

وتجمعت الدموع فى مآقى الجريح الراقد .. وعض على شفتيه حتى يرد عن نفسه نوبة بكاء .

والتفت إلى صبرى ليجده شارداً واجماً وعاد يستمع إلى الصوت .. وقد أخذ يزول عنه الأسى .. وارتدت إليه قوته ، وحماسته وهو يقول :

« لقد أعلنت مصر أنها ستقاتل دفاعاً عن سيادتها وعن حريتها وعن كرامتها .. سنقاتل كما كنا دائماً .. فى حرب شاملة جنودها الشعب جنباً إلى جنب مع القوات المسلحة .

« أيها الإخوة .

« إن كل فرد منكم جندى فى جيش التحرير الوطنى .

« لقد صدرت الأوامر بتوزيع السلاح .. وعندنا منه الكثير ، وسنقاتل فى معركة مريرة ، سنقاتل من قرية إلى قرية ومن مكان إلى مكان .

« ليكن شعارنا أننا سنقاتل ولن نسلم .

« إننا اليوم نكتب صفحة جديدة فى تاريخنا .

« إننا اليوم نريد الصبر والإيمان حتى ننتصر .

« وأنا أعاهدكم أنى سأقاتل معكم من أجل حريتكم ، كما عاهدتكم من قبل لآخر قطرة من دمى » .

وبدأت المعركة المريرة .

معركة أحس فيها كل مصرى بأنها معركته الشخصية .

بدأت المعركة المريرة .. بلا مرارة .. وإنما بحرارة وحرقة .. وحماس .

وأمست مصر كلها كأنها معسكر مسلح .

وشقت الخنادق فى الحدائق الخضر .. وربضت الدبابات فى زوايا الدور ، ومنحنيات الطرق .

ولم تعد صفارات الإنذار تثير فى النفوس ذعراً .

لا .. ولا عاد الدوى .. الذى يزلزل الأرض .. يهدم الدور .. بقادر على أن يزلزل الأفئدة أو يرج القلوب .

لم يكن الناس يسألون عن ضحايا الغارة من الشعب .. وإنما يتلهفون على ضحايا الطائرات المغيرة .

كانت الرغبة فى القتال ، وفى صد العدو الظالم المعتدى المغير ، أقوى من كل خوف .

لم يكن الناس ينزوون فى المخابئ ، خوفاً من الشظايا وإنما يتطلعون فى الشرفات .. ليرقبوا الطائرات تتهاوى .

وواجهت مصر .. غارات العدو على مدنها .. ببسالة فائقة وإيمان عجيب .

واستمر جلاد الجو الأحمر .. يبذر الدمار فى الأرض الطيبة الخضراء .

ووسط هذا الجحيم وبين الحمم المتساقطة من السماء .. والأرض المزروعة بالسلاح والجو الذى لا يهدأ فيه دوى .. ولا يصمت فيه عواء إنذار .

وصل قطار سكة الحديد من الخرطوم يحمل مدحت ونادية إلى محطة القاهرة .. عقب رحلة شاقة طويلة .. وسارت بهما « عربة الأجرة » من المحطة .. تشق طريقها بين المدافع المتناثرة .. فى الميادين .. والمركبات المتحركة فى الطرقات .

ونظر مدحت إلى نادية متسائلا :

ــ إلى أين ؟

ورفعت نادية كتفيها فى حيرة وأجابت :

ــ لست أدرى .. وأنا أكره الذهاب إلى بيت عمتى .. ولا أعرف زوجة عمى ، ولا أدرى هل ما زال فى بيته .

وفكر مدحت برهة ثم قال لها :

ــ لماذا لا تذهبين لتقيمى مع والدتى .. سأمر الآن بالمستشفى ثم أذهب بك إلى البيت .. وأعود إلى المستشفى مرة أخرى .

وتساءلت نادية :

ــ ولماذا لا أبقى معك فى المستشفى ؟ ألا أستطيع أن أفعل شيئاً .. إن لدىّ فكرة عن التمريض ؟!

ــ أنت متعبة وتحتاجين إلى راحة .

ــ لا أظننى أحتاج إلى راحة أكثر منك .. فإذا كنت ستذهب إلى المستشفى فإنى أحب أن أكون بجوارك .

ونظر إليها مدحت وقال ضاحكا :

ــ ألديك فكرة عن طريقة معاملتى للممرضات .. أتعرفين أنى أضربهن !

وأجابت نادية ضاحكة :

ــ ربما .. ولكننى أعتقد أنى سأرغمك على ترك هذه العادة السيئة .. وسأعلمك .. كيف تعامل الناس .. بطريقة أرق .

ووصلت العربة إلى مستشفى العجوزة وهبط الاثنان ، واتجها إلى حجرة مدحت .

وفى أحد ممرات المستشفى .. سمع مدحت صوتاً يصيح به :

ــ مدحت .

والتفت ليجد جاد الله مقبلا عليه فى حماس ولهفة .

وقبل أن يفتح ذراعيه ليضمه .. وقف ينظر إلى نادية مأخوذاً مشدوهاً .

وقال له مدحت ضاحكا :

ــ ألا تنوى أن تسلم .. الآنسة نادية .

وهز جاد الله رأسه قائلا وهو يطلق تنهيدة حارة :

ــ أخيراً .. لقد دوختنا .

وابتسمت « نادية » فى حياء ، وأردف جاد الله ضاحكا :

ــ لم يكن يخطر ببالى أننى سأراك حقيقة .. كنت أتوهمك عفريتة تسكن قمم الجبال .. كأنك « لولية بنت مرجان » .

ومدت « نادية » يدها مصافحة ولكنه فتح ذراعيه ضاحكا :

ـــ بالحضن .. أقل ما فيها .

ثم ضمها إليه فى لهفة .

ومد مدحت يده ليجذب ذراعه قائلا فى صرامة :

ـــ كفى . « لا تسق الهبالة على الشيطنة » .

ـــ الحق علىّ . لولاى ما كنت استطعت حتى رؤيتها . اسمع .. قص علىّ ما حدث من « طقطق لسلامو عليكم » .

ـــ ليس هذا وقته .. إنى أريد أن تفرد إحدى حجرات الممرّضات لنادية .

ـــ هكذا مرة واحدة ؟ .

ـــ أجل ستعمل معى .

ـــ وستضربها ؟

ـــ ليس لك بها شأن .

ونظر مدحت إلى نادية قائلا :

ـــ أظنك تستطيعين أن تذهبى الآن لتستريحى ؟!

وترددت « نادية » برهة وتساءلت :

ـــ أأستطيع أن أرى عصام ؟

ـــ سترينه بعد .

ـــ إنى أحب أن أراه الآن .

ـــ هل ستحدثينه عن « منى » ؟

ـــ ما رأيك ؟!

ورفع مدحت كتفيه .. وقال :

ـــ أظن أنه لا بد أن يعرف فى يوم ما .. لست أدرى ما إذا كان يستطيع الآن احتمال الصدمة .

وأجاب جاد الله :

— إنه فى تحسن .

وهز مدحت رأسه قائلا :

— على أية حال لا داعى لأن تخبريه مرة واحدة .. قولى له إنها مريضة .. وبعد بضعة أيام .. يمكن أن نسوق له النبأ .

واتجه مدحت إلى غرفة عصام .. وفتح الباب وأطل عليه .

وبدت الدهشة على وجه عصام وهتف به :

— أهلا دكتور مدحت .. لقد طالت غيبتك عنا .. أين كنت ؟

— على سفر .

— فى هذا الوقت ؟

— أجل .. لقد ذهبت فى مهمة خطيرة .. وأحضرت معى أثمن ما يمكن الحصول عليه .. أحضرت معى شخصاً تعرفه .

ورفع عصام حاجبه فى دهشة وتساءل :

— أعرفه أنا ؟

— أجل .

وتنحى عن الباب ثم دفع نادية قائلا :

— لقد أحضرت نادية .. خطيبتى .

وهتف عصام مأخوذاً :

— نادية .. لا يمكن .. غير معقول .. كيف حدث هذا . ومتى عرفتها ؟ ولماذا ذهبت إليها فجأة ؟ وكيف أحضرتها ؟

وقال جاد الله :

— حيلك .. حيلك .. هذه أسئلة تحتاج إلى سنة للإجابة عليها .. المهم أنه قد أحضرها ، وخطبها .

وصاح عصام فرحاً :

— إذن لقد أصبحنا عدايل .

وأحس الثلاثة بلسعة أسى ، وخيم على وجوههم صمت رهيب .. وعاد عصام يقول لمدحت :

— لقد قابلت « منى » طبعاً . لماذا لم تحضر معكما ؟

وأجابت نادية :

— لأنها مريضة .

— مريضة ؟. بم ؟

وازدردت نادية ريقها وأردفت قائلة :

— لقد أصابها التهاب رئوى .

وبدا الفزع على وجه عصام :

— التهاب رئوى ، وكيف تركتماها ؟

— أحسن .. أحسن .

— من أجل هذا لم تكتب إلىّ ؟.. كيف وجدتها يا دكتور مدحت ؟.. قل الحق .

وأحس مدحت أنه من الخير أن ينهى الموقف فأجاب مردداً كلمات نادية :

— أحسن .. أحسن . هيا بنا الآن ، يجب أن تستريحى يا نادية .

وهمّ عصام بالسؤال ، ولكن مدحت أسكته بإشارة من يده قائلا :

— انتهينا .. كفى هذا الآن .. يجب عليك أن تستريح أنت أيضاً .

— ولكن ...

— سنعود عندما نستريح كلنا .

واستدار مدحت ليخرج من الغرفة عندما بدا صبرى بالباب .

وهتف صبرى مرحباً :

— دكتور مدحت .. أهلا وسهلا .

ومد يده يشد على يد مدحت فى شوق .

ولم يكن فى غمرة حماسه لمدحت قد أبصر نادية فأشار مدحت يعرفه بها :

— نادية .. خطيبتى .

وفغر صبرى فاه ، ووقف مكانه مشدوهاً ، ثم هتف متمتما :

— نادية .. نادية .

ومدت نادية يدها تصافحه قائلة :

— كيف حالك يا صبرى ؟

واستمر صبرى يردد فى ذهول ، وقد جثمت على وجهه سحابة أسى ولوعة ويأس :

— نادية . نادية . خطيبته !

وضحك مدحت متسائلا :

— خطيبتى أنا . أية غرابة فى ذلك ؟!

وأجاب صبرى وهو يهز رأسه كأنما يحاول أن يفيق من صدمة :

— أبداً . أبداً .. إنى لم أكن أتوقع .. أعنى ....

ثم مد يده يشد على الدكتور مدحت وهو يتمتم فى اضطرابه :

— مبروك . مبروك يا دكتور مدحت . مبروك يا نادية . متى أتيت ؟

— الآن .

— الآن ! وأين « منى » ؟

ومرة أخرى بدا الاضطراب على نادية ، وأجابت وهى تحاول أن تتمالك أعصابها :

— فى جاب .

— ولماذا لم تحضر ؟

— لأنها مريضة .

وقبل أن يسترسل صبرى فى أسئلته ، سحب مدحت نادية من ذراعها قائلا :

— عن إذنكم الآن .. سنراكم مرة ثانية .

وخرج الثلاثة من باب الحجرة مخلفين صبرى وعصاماً مغرقين فى دهشتهما .

(٥٢)

متعة جزاء ...

فى فجر اليوم التالى .. يوم الاثنين ٥ نوفمبر ، بدأ غزو القوات المعادية لبورسعيد ، وركزت القوات الفرنسية والإنجليزية هجومها بالقنابل والصواريخ على المدينة الباسلة .. وحلقت الطائرات فى الشوارع لتصب رصاصها من ارتفاع خفيض على الأهالى الوادعين .

وفى السابعة والنصف بدأ هبوط أول موجة من موجات المظلات فى سماء بور سعيد ، وشاهد الشعب المكافح ، المعتدين يحلقون بمظلاتهم فوق مطار الجميل والجبانة وبور فؤاد .

واندفع الأهالى .. بكل ما يملكون من أسلحة .

اندفعوا « بأيادى الهون » .. وبالسواطير والسكاكين .

اندفعوا فى حماس جنونى .. ليدفعوا المعتدى .. عن أرضهم .. وعرضهم وكرامتهم .

اندفعوا ليخوضوا معركتهم المريرة .. إلى جانب القوات المسلحة .. فى عزم وحزم .. وشجاعة وإيمان ..

وفى أربع ساعات .. كانت الموجة الأولى .. قد قضى عليها ..

وقبيل الظهر عاد العدو إلى إنزال موجة أخرى استطاعت أن تعزز بعض المراكز فى بور توفيق ومطار الجميل .

وكان الهجوم من القوة بحيث أعلن إيدن فى مجلس العموم أن بور سعيد قد سقطت

وأقبل صبرى فى المساء على عصام وقد بدا متجهم الوجه .

وقال له عصام فى أسى وحزن :

ـــ أسمعت ؟!.. لقد أذاعت الإذاعة البريطانية أن بور سعيد سلمت ..

وصاح صبرى فى حنق :

ـــ أبداً .. لم تسلم .. لقد كذبت محطتنا هذا .. لقد حاولوا تدمير محطتنا .. لإسكات صوتها .. حتى يستطيعوا نشر أكاذيبهم .. ولكن محطتنا تعلن فى كل مكان .. أن بور سعيد لم تسقط .. إننا سنقاوم حتى آخر رجل .. سنقاتل كما قال « جمال عبد الناصر » .. من قرية إلى قرية ، ومن مكان إلى مكان .. سنقاتل لآخر قطرة من دم كل مصرى .

وصمت برهة ثم أردف قائلا :

ـــ اسمع يا عصام .. سأذهب إلى بور سعيد .

وعلت الدهشة وجه عصام وتساءل :

ـــ أنت ؟!.. لم ؟!

ـــ إنهم فى حاجة إلى كل سلاح ، وكل قطرة من عرق .

لا بد أن أقوم بواجبى فى المعركة .

ـــ ولكنك تستطيع أن تقوم به هنا .

ـــ أبداً .. إن جبهتنا فى بور سعيد يجب ألا تتصدع.سأذهب من الليلة .. إن لدىّ موعداً مع بعض الفدائيين وستحملنا عربة عن طريق المطرية .

وتنهد عصام فى أسى وقال :

ـــ كما تشاء !

ونقل صبرى بندقيته إلى يده اليسرى ثم شد على يد عصام فى حرارة قائلا :

ـــ لن نهزم أبداً .

وأجاب عصام والدموع تترقرق فى عينيه :

ـــ أبداً .. أبداً .. إن شعبنا يستطيع أن يفعل المعجزات .

وخرج صبرى من الحجرة وهو يثبت منظاره على عينيه . ولم يتجه إلى

الخارج .. وإنما عرج فى ممرات المستشفى حتى وصل إلى حجرة « نادية » ، وطرق الباب .

ووصل إليه صوت « نادية » الرقيق يقول :

ـــ ادخل .

ودخل صبرى .

ورفعت « نادية » عينيها فى دهشة وقالت مرحبة :

ـــ أهلا صبرى .. تفضل .

وقال صبرى وهو يقف منتصب القائمة وقد ارتجفت شفتاه ، وسلاحه فى يده :

ـــ إنى آسف لإزعاجك .. ولكنى فقط أردت أن أودعك .

ـــ لمه ؟!

ـــ لأنى سأسافر إلى بور سعيد الليلة .

ـــ أنت ؟!

ـــ أجل .

وقبل أن ترد عليه « نادية » دفع يده فى جيبه وأخرج ظرفاً مغلقاً وقال لها فى صوت خافت أشبه بالهمس :

ـــ لقد كتبت لك رسالة .. وسأعطيها لك بشرط ...

وهزت « نادية » رأسها مستفسرة وقد بدا عليها التأثر والدهشة

وأجاب صبرى :

ـــ بشرط ألا تفتحيها .. الآن .

وصمت ، برهة .. وعادت « نادية » تهز رأسها مستفسرة .

وأجاب صبرى فى لهجته الهامسة :

ـــ لا تفتحيها إلا .. إذا .. سمعت نبأ استشهادى .

وأحست « نادية » برجفة وهتفت به :

ــ لماذا تقول هذا ؟! إنك ستعود سالماً .

وأجاب صبرى قائلا فى إصرار :

ــ إذا عدت سالماً .. فأرجوك ألا تفتحيها .. عدينى

وتساءلت « نادية » فى حزم :

ــ لماذا تقول هذا يا صبرى ؟! إنك ستعود سالماً .

ــ عدت سالماً أو لم أعد .. هذا لا يهم .. المهم أنك لا تفتحينها إلا إذا عرفت أنى استشهدت .

وأجابت « نادية » فى لهجة حزينة وصوت متهدج :

ــ أرجو ألا أفتحها أبداً .

ومد صبرى يده فسلمها الرسالة ، ثم شد على يدها ورفعها فى رفق إلى شفتيه قائلا :

ــ أتسمحين ؟!

وهزت « نادية » رأسها ، فمسها بشفتيه ثم استدار خارجاً .

وهتفت « نادية » من أعماقها :

ــ مع السلامة .. ستعود .. إن شاء الله .. لنقرأ الرسالة سوياً .. مع السلامة .

واختفى صبرى .. فى ممرات المستشفى .

وفى صباح اليوم التالى عاود الطيران البريطانى والفرنسى هجومه العنيف على بور سعيد .. ليترك المدينة حمماً وأطلالا . وقبل الثامنة والنصف انطلقت مدافع الأسطول تدك بيوت الأهالى ودمرت « حي المناخ » ومعظم المبانى القائمة على شاطىء بور سعيد فى ثلاثة صفوف تقريباً ، واستمر الضرب حتى الساعة العاشرة .

وفى الساعة العاشرة بدأ العدو إنزال دباباته وعرباته المصفحه وقواته من المشاة .. تحت ستار كثيف من الدخان .

وخاض شعب بور سعيد معركته المريرة من شارع إلى شارع ، ومن بيت إلى بيت .. تحت قنابل الطيران ونيران الأسطول .. وأخيراً استطاعت القوات الهابطة على الشاطىء الاتصال بالقوات التى هبطت بالمظلات فى اليوم السابق عند كوبرى الرسوة ...

وبرغم الطيران والأسطول والمدرعات استمرت المقاومة الشعبية تزداد عنفاً .

وفى يوم وليلة تحوّل القطر كله إلى معسكر واحد كبير حتى بلغ عدد الذين يحملون بنادق خمسة ملايين ونصف مليون رجل وامرأة .

ووقف العالم يرقب الشعب الباسل المكافح فى معركته ضد القرصنة والطغيان والظلم .

وأعلن الرأى العالمى سخطه على العدوان الآثم وتأييده للشعب المكافح .

وأرسل الروس إنذارهم .

ووقفت أمريكا فى الأمم المتحدة لتعلن معارضتها للاعتداء وتؤيد الشعب المناضل ضد قوى العدوان .

وفى يوم الأربعاء ٧ نوفمبر .. اضطر الباغى المعتدى للرضوخ لقرار الأمم المتحدة بوقف القتال .

وفى ٩ نوفمبر وقف « جمال عبد الناصر » .. فى الأزهر ليعلن للشعب :

« إن موقفنا بعد عشرة أيام من المعركة أقوى مما كان .. إن القومية العربية تحققت وأصبحت عملا بعد أن كانت قولا .

الشعب قوة متحدة .. الجيش والطيران والبحرية قوة متماسكة .

اثنتان من الدول الكبرى ضد العدوان .

روسيا هددت فعلا أنها ستسحق هذا العدوان

وأمريكا ستعمل على القضاء عليه .

هذا هو الموقف .

الأمم المتحدة قامت بعمل مستمر .. ووقف العالم كله ضد إنجلترا وفرنسا ، وظهرت الحرب العالمية فى الأفق .. وافقت إنجلترا وفرنسا على وقف إطلاق النار .

ولكن المعركة لم تنته بعد .

إننا سنكون على حذر دائم حتى لا نؤخذ بالخديعة والغدر .

إننا نريد السلام .. ولن يفرض علينا الاستسلام .

إن العالم يساندنا فى كل مكان .

سنقاتل .. سنقاتل .. سنقاتل .. دفاعاً عن أراضينا ، وعن سيادتنا وعن حريتنا » .

وهكذا أوقف العدوان .. وأحبطت المؤامرة .

وانتصر الشعب المصرى المكافح فى سبيل كيانه وحريته .

ولم يكن النصر سهلا .

ولم تكن المعركة هينة .

ووقفت المدينة الباسلة .. لتؤكد .. وجراحها تنزف .. ودخان الحرائق يتصاعد من أطلالها ، وجثث ضحاياها تتكدس بين خرائبها .. ودماء شهدائها تجرى فى ميادينها .. أنها لن تكف عن المقاومة .. حتى تتطهر أرضها .. من آخر جندى .. من جنود الطغاة .. وأنها على استعداد لمزيد من البذل ومزيد من التضحية .. ومزيد من عرق المكافحين .. ودماء الشهداء .

وبين هذا المزيد من الشهداء ، الذى قدمته المدينة الباسلة ، كان صبرى .

ووصل نبأ استشهاده فى نفس الليلة .

وتلقته « نادية » فى ذهول .

ومدت يدها تتحسس .. رسالته .. فى صمت موجع .

وبدا لها طيفه ، بجسده النحيل الطويل . ورأسه الصغير الذى حجبته « الكاسكتة الكاكية » وقد أمسك بالسلاح فى يده .. وهمس بها فى صوت رقيق

متوسل : « لا تفتحيها إلا إذا سمعت نبأ استشهادى » .

وبأصابع مرتجفة فتحت « نادية » الرسالة .

ومن خلال الدموع المرتجفة فى مآقيها قرأت سطوره الأخيرة :

« حبيبتى نادية .

« لأول مرة .. أجسر على أن أناديك مما أحس لك .. وبما أحب أن أناديك به

« لأول مرة أجسر على أن أناديك .. بحبيبتى .

« وأنت حبيبتى .. منذ سنوات طوال .. منذ أن عرفت كيف أحس .. وكيف أحب .

« ومع ذلك لم أجرؤ يوماً على أن أصارحك بشىء مما أحس .

« حتى بعد أن سافرت .. وظننت أنى أستطيع فى رسائلى أن أكتب لك فى بعدك ما عجزت عن قوله فى مواجهتك .

« ولكنى لم أكن أجرؤ .

« كنت أحس بالخشية ..

« والتردد .. والعجز ..

« لست أدرى لمه .

« ألأنك كنت أول حبى .. وأول تجربتى !!

« ألأنى .. كنت أخشى ألا أكون كفئاً لك .. وألا يكون .. نصيبى منك .. سوى الصد والسخرية !!

« جائز هذا .. وجائز ذاك .

« لقد ظللت .. طيلة هذه السنين .. أتحدث إليك .. وأكتب لك .. دون أن أجرؤ .. مرة واحدة .. على أن أقول لك .. إنى أحبك ..

« ولكنى أحس الآن ، وأنا أكتب إليك .. أن إحساساً جديداً فى باطنى ، يمنحنى الجرأة على قولها .. إحساساً يمنحنى الشجاعة ، والقدرة ، على أن أهتف

بك .

« إنى أحبك .. أحبك .. أحبك .

« أقولها ، وبنفسى جرأة عليها .. لأنى لن ألقاك بعد .. حتى أواجه ما قد ألقاه منك ، من إيلام صد ، ومرارة وسخرية .

« أقولها ، وبنفسى جرأة عليها .. لأنها لن تصل إليك .. إلا .. وأنا شهيد .

« والإحساس بالاستشهاد يمنحنى إحساساً بالجرأة .

« ويملأ نفسى ثقة بأنى قد أصبحت كفئاً .. إن لم يكن لحبك .. فعلى الأقل لتقديرك .

« هل تدرين السعادة التى أحس بها .. عندما أتخيل أنى ساستشهد .. وأنك ستفتحين رسالتي ، وأنك ستبسمعين هتافى بك « إنى أحبك » ؟

« بل هل تدرين المتعة التى أحس بها الآن .. وأنا أجد فى نفسى الجرأة على ترديدها .. والإحساس بأنها عندما تصل إليك .. لن تكون محل سخرية ، لأنها ليست من محب عابث ، بل من محب شهيد ؟

« الاستشهاد ؟؟

« ما تصوّرت قط أن يكون للاستشهاد .. مثل هذا الإحساس الممتع .

« إنى أحس له بمتعتين : متعة البذل .. ومتعة الجزاء .

« متعة البذل .. من أجل مصر .

« من أجل وطننا .. الجريح . المظلوم . المعتدى عليه .

« وطننا .. الذى استكثر عليه الطغاة حريته .. وكرهوا له أن يأخذ حقه فى الحياة ، وأن يسترد أرضه ، ويستعيد موارده .

« متعة البذل .. من أجل كفاح المعتدى . وصد الباغى

« البذل من أجل صيانة أرضنا ، وعرضنا ، ومستقبلنا ، من قيود استعماره ، وذل طغيانه .

« وإذا لم نبذل نحن أبناءه .. فمن الذى يبذل من أجله ؟!

« إن صد العدوان .. يحتاج عرقاً ، ودماء .

« فإذا لم نبذل نحن من جباهنا العرق ، ومن عروقنا الدماء .

« فمن الذى يبذل له ؟ ومن الذى يقيه الشر ويصد عنه الأذى ؟!

« هذه هى متعة البذل التى أحس بها .

« أما متعة الجزاء .. فهى جرأتى على مناجاتك .. وعلى أن أقول لك : حبيبتى « نادية » :

« وإحساسى بأنى لن ألقى منك صداً ولا سخرية .

« ولهفتى على تقديرك لى ، وثنائك علىّ ، وحزنك من أجلى .

« وطمعى فى عبرتين تسكبينهما .. على قبرى إن كان لى قبر ، وعلى رسالتى إن حرمته » .

« صبرى »

وتكاثفت طبقة الدمع فى مآقيها .. حتى حجبت رسالة الشهيد .. وانحدرت عبرتان . لتستقرا بين السطور وتمتزجا بالكلمات ، وتحملا لروح الشهيد ، متعة الجزاء ، بعد أن منح الوطن متعة البذل .

الخاتمة

أقبل مدحت على « نادية » يكفكف دمعها .. وضمها إلى صدره وهو يتحسس شعرها وعنقها قائلا فى صوت رقيق :

— أظنك الآن تستطيعين العودة إلى البيت !

— أى بيت ؟!

— بيتنا .. لقد تركته أمى خلال الغارات لأنه ملاصق للمطار وذهبت إلى بيت أخيها فى شبزا . وسنمر عليها اليوم لكى نعود بها إلى البيت . إنها فى حاجة إلى معونتك .

وصمت برهة ثم تمتم فى حيرة :

— لست أعرف شيئاً عن إجراءات الزواج .. ولكن لا شك أن أمى تعرف كل شىء .. وسنتصل بعمك سليمان .. ليحضر إلينا .

وتنهدت « نادية » وانحدرت عبراتها من عينيها وكفكفها مدحت ضاحكا وهو يقول :

— انتهينا .. لا عبرات بعد الآن .. بل حياة .. وأمل .. وبسمات .. وسلام لنا .. ولوطننا .. ولكل الناس .

(تمت)

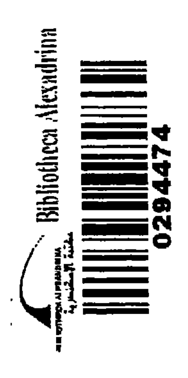
فهرست الجزء الثانى

صفحة

رقم الإيداع ٤٠٦٩ / ٨٧

الترقيم الدولى ١ ــ ٠٣١٢ ــ ١١ ــ ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة



الثمن ٨٥٠ قرشا

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه